

دكتور عبد الحكيم راضي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

النقد العربي و شعر المحدثين في العصر العباسي

(محاولة لقراءة جديدة)

دار الشايب للنشر

دكتور عبدالحكيم راضي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

النقد العربي وشعر المحدثين في العصر العباسي

(محاولة لقراءة جديدة)

دار الشايب للنشر

١٠ ش سليمان الحلبي - التوفيقية

ت : ٥٧٤١٣٧١

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

٢٠٠٣

إلى أستاذنا الجليل

شوقي ضيف

مد الله في عمره وتلق بعلمه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

عزيزى القارئ .. أقدم إليك هذا الكتاب على استحباء ، لبعده العهد ما بين الفراغ من كتابته وتاريخ نشره .

أما القضية التي يعالجها فهي - كما يتضح من العنوان - موقف النقد العربى من شعر المحدثين فى العصر العباسى ، وهى قضية قديمة جديدة ، قديمة لأن فى تراثنا النقدى ما يبعث على التساؤل حولها ، وجديدة لأن الدارسين فى العصر الحديث قد وقفوا عند هذه البواعث ، وكثير منهم أطلال الوقوف دون أن يتبين الحقيقة ، فقالوا فيها بغير ما هى عليه .

لذلك كان من الضرورى أن نتبع المسألة - أو المشكلة - من بدايتها ، فنعرض لتصور هؤلاء الدارسين عن موقف النقد العربى من شعر أولئك المحدثين - إذ كان هذا التصور هو الباعث الأول على هذه الدراسة - وأن نناقش تصورهم هذا ، لنثبت أنه يشير من المشاكل ما لا سبيل إلى حلّه إن نحن تمسكنا به ، خصوصاً حين نعرض الصورة الحقيقية لموقف النقد العربى من شعر المحدثين من واقع نصوص التراث النقدى ، وهى الصورة التى يدعمها الكشف عن موقف ذلك النقد من محاولات التجديد كما تمثلت فى دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام .

وإيضاحاً لبقية الجوانب كان لا بد من تفسير ما بدأ عند أوائل النقاد - المتهمين بالتعصب على الشعر المحدث - من اهتمام بأشعار القدماء ، تلك الأشعار التى كان لها العديد من الأدوار والوظائف فى مجرى الحياة الثقافية العربية ، كما كان لا بد من التأكيد على تنوع اهتمام أولئك النقاد وتعدد أدوارهم ومواقفهم التى كان منها ما يتطلب المعرفة بالشعر القديم وروايته وحفظه ، دون أن يشكّل ذلك تعصّباً على شعر المحدثين .

وأخيراً كان من الضرورى تعليل وقوع الدارسين فى العصر الحديث فيما تصوّروه من تعصب أوائل النقاد على شعر المحدثين فى العصر العباسى ، ليظهر وراء هذا التصور إطاراً تاريخياً خاطئاً ساهم فى رسمه بعض القدماء ، وتابعه الدارسون فى

عصرنا الحديث دون مراجعة أو بحث . وإنما أوقعهم فيما وقعوا فيه إغفالهم الشروط الواجبة لقراءة تراثنا الأدبي عامة ، وتراثنا النقدي بوجه خاص ، وهي الشروط التي ذكرتها في كلمة التمهيد .

وبعد .. فهذا هو الكتاب ، وقد عمدتُ إلى عدم تفصيل الحديث عنه في هذا التقديم ، مكتفياً بالتنبيه إلى موضوعه والمشكلة التي يعالجها ، تاركاً للقارئ أن يتعرفَ عليه من خلاله بنفسه ، معترفاً بأنه نتاج فترة مبكرة من حياتي ، إذ هو أول ما خطتُ يدي على طريق البحث ، ولذا فإنه لا يعوزه الصدق ولا الحماس الذي أرجو ألا يكون قد بلغ إلى حد الاندفاع .

ولن أقول إنني قد أتيتُ بما لم تستطعه الأوائل والأواخر ، حسبى أن أقول لقارئى : إنني قد حاولتُ قدرَ طاقتي أن أدلل على ما اعتقدتُ أنه الصواب ، وإنني قد أعدتُ قراءة نصوص نقدنا العربي ، بعد أن ضمنتُ بعضها إلى بعض ، ففهمتها على نحو يخالف ما فهمها عليه غيري ، وسجلتُ نتاج هذا الفهم في تجريد وصدق ، دون تعسف في الفهم أو إبعاد في التأويل .

وقد نُشرت أجزاء من هذا الكتاب - في حينها - في بعض المجلات الأدبية ، كمجلة (المجلة) ومجلة (الثقافة) ، وإن بقي الكتاب في مجمله جزءاً من رسالة جامعية تضمها - في غير شفقة - رفوف قسم الرسائل في مكتبة جامعة القاهرة .

وحتى لا أظلم نفسي ولا كتابي ، فقد أعدتُ قراءته أخيراً قبل تقديمه للطبع ، وحذفت من عباراته ما أمكن من آثار اندفاع الشباب ، ثم أضفتُ إليه الكثير مما يدعّم فكرته الأساسية التي بقي إيماني بها راسخاً حتى هذه اللحظة .

ذلك - يا قارئى العزيز - هو ما أعرفه عن الكتاب ، أفضيتُ به إليك ، أما ما ستعرفه أنت وما ستقوله عنه فليس بوسعى التنبؤ به ، وإن كنتُ تواقاً إلى معرفته ، كل ما أستطيعه أن أسأل الله التوفيق لك ولى ، توفيقك إلى الإنصاف والإخلاص في النصح ، وتوفيقى إلى التواضع وحسن القبول ، والله من وراء القصد .

عبدالحكيم راضى

فهرس إجمالى

٣	إهداء
٥	تقديم
١١	تمهيد
	الباب الأول : موقف النقد العربى من شعر المحدثين كما
٢٥	تصوره الدراسات الحديثة
٢٦	(١) عرض
٤٧	(٢) تحليل ومناقشة
٧١	الباب الثانى : بين مشكلات التصور وصورة الواقع
	(١) مشاكل يفرضها القول بتعصب النقد
٧٢	العربى ضد شعر المحدثين
٨٣	(٢) صورة الموقف من واقع النصوص
١٤٣	الباب الثالث : دراسة لطبيعة دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام
١٤٤	مقدمة
١٤٩	(١) موقف النقاد من أبى نواس
١٥٥	(٢) طابع الخصومة حول أبى تمام
٢٠١	(٣) عود إلى حقيقة الموقف من أبى نواس
٢١٥	الباب الرابع: تفسير وتعليل
٢١٦	مقدمة
	(١) تفسير :
٢٢١	المهام المتعددة لقدامى النقاد
	(٢) تعليل :
٢٥٩	الأساس التاريخى للتصور القديم
٢٨١	خاتمة
٢٨٥	مراجع
٢٩٤	فهرس تفصيلى

Handwritten title at the top of the page.

- Page 1
- Page 2
- Page 3
- Page 4
- Page 5
- Page 6
- Page 7
- Page 8
- Page 9
- Page 10
- Page 11
- Page 12
- Page 13
- Page 14
- Page 15
- Page 16
- Page 17
- Page 18
- Page 19
- Page 20
- Page 21
- Page 22
- Page 23
- Page 24
- Page 25
- Page 26
- Page 27
- Page 28
- Page 29
- Page 30
- Page 31
- Page 32
- Page 33
- Page 34
- Page 35
- Page 36
- Page 37
- Page 38
- Page 39
- Page 40
- Page 41
- Page 42
- Page 43
- Page 44
- Page 45
- Page 46
- Page 47
- Page 48
- Page 49
- Page 50
- Page 51
- Page 52
- Page 53
- Page 54
- Page 55
- Page 56
- Page 57
- Page 58
- Page 59
- Page 60
- Page 61
- Page 62
- Page 63
- Page 64
- Page 65
- Page 66
- Page 67
- Page 68
- Page 69
- Page 70
- Page 71
- Page 72
- Page 73
- Page 74
- Page 75
- Page 76
- Page 77
- Page 78
- Page 79
- Page 80
- Page 81
- Page 82
- Page 83
- Page 84
- Page 85
- Page 86
- Page 87
- Page 88
- Page 89
- Page 90
- Page 91
- Page 92
- Page 93
- Page 94
- Page 95
- Page 96
- Page 97
- Page 98
- Page 99
- Page 100

• كان العرب أحراراً في الحياة المادية محافظين في الحياة الأدبية ، وكان الشعراء الذين يجروون على أن ينكروا هذه المحافظة ويحاولون تحرير الشعر يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء ، لأن هؤلاء الأئمة والعلماء حراس على القديم أعداء لكل جديد .

طه حسين

• كان الميلاد بعد الإسلام في ذاته دليلاً على الانحطاط الشعري .

نكلسون

• وقد تزعم معسكر الدعوة إلى القديم فريق اللغويين أمثال الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء وابن الأعرابي ، واتهموا أبا تمام بالخروج على عمود الشعر لأنه انحرف عن المألوف قليلاً بابتكار بعض المعاني والتعمق فيها والتحليق بها في الخيال .

أحمد أمين

• أبو عبيدة : قال المازني : سمعت رجلاً يقرأ على أبي عبيدة شعر بشار ، فمرت قصيدته الميمية ، فقال له : هاتها ، فهي أوزن من ميميتي جرير والفرزدق . ولقصيدة مروان أجود من قصيدة الأعشى ، ولقصيدة أبي نواس خير من قصيدة امرئ القيس .

• الأصمعي : سئل الأصمعي : أبتشار أشعر أو مروان ؟ فقال : بشار ، فقليل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأن مروان سلك طريقاً أكثر سلاكة ، وأن بشاراً سلك طريقاً لم يسلكه أحد ، فانفرد به ، وأحسن فيه .. ومروان أخذ بمسالك الأوائل .

• ابن قتيبة : لم يقصر الله العلم والشعر ، إلبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عبادة في كل دهر .

Handwritten title or header at the top of the page.

- Handwritten entry 1
- Handwritten entry 2
- Handwritten entry 3
- Handwritten entry 4
- Handwritten entry 5
- Handwritten entry 6
- Handwritten entry 7
- Handwritten entry 8
- Handwritten entry 9
- Handwritten entry 10
- Handwritten entry 11
- Handwritten entry 12
- Handwritten entry 13
- Handwritten entry 14
- Handwritten entry 15
- Handwritten entry 16
- Handwritten entry 17
- Handwritten entry 18
- Handwritten entry 19
- Handwritten entry 20
- Handwritten entry 21
- Handwritten entry 22
- Handwritten entry 23
- Handwritten entry 24
- Handwritten entry 25
- Handwritten entry 26
- Handwritten entry 27
- Handwritten entry 28
- Handwritten entry 29
- Handwritten entry 30
- Handwritten entry 31
- Handwritten entry 32
- Handwritten entry 33
- Handwritten entry 34
- Handwritten entry 35
- Handwritten entry 36
- Handwritten entry 37
- Handwritten entry 38
- Handwritten entry 39
- Handwritten entry 40
- Handwritten entry 41
- Handwritten entry 42
- Handwritten entry 43
- Handwritten entry 44
- Handwritten entry 45
- Handwritten entry 46
- Handwritten entry 47
- Handwritten entry 48
- Handwritten entry 49
- Handwritten entry 50
- Handwritten entry 51
- Handwritten entry 52
- Handwritten entry 53
- Handwritten entry 54
- Handwritten entry 55
- Handwritten entry 56
- Handwritten entry 57
- Handwritten entry 58
- Handwritten entry 59
- Handwritten entry 60
- Handwritten entry 61
- Handwritten entry 62
- Handwritten entry 63
- Handwritten entry 64
- Handwritten entry 65
- Handwritten entry 66
- Handwritten entry 67
- Handwritten entry 68
- Handwritten entry 69
- Handwritten entry 70
- Handwritten entry 71
- Handwritten entry 72
- Handwritten entry 73
- Handwritten entry 74
- Handwritten entry 75
- Handwritten entry 76
- Handwritten entry 77
- Handwritten entry 78
- Handwritten entry 79
- Handwritten entry 80
- Handwritten entry 81
- Handwritten entry 82
- Handwritten entry 83
- Handwritten entry 84
- Handwritten entry 85
- Handwritten entry 86
- Handwritten entry 87
- Handwritten entry 88
- Handwritten entry 89
- Handwritten entry 90
- Handwritten entry 91
- Handwritten entry 92
- Handwritten entry 93
- Handwritten entry 94
- Handwritten entry 95
- Handwritten entry 96
- Handwritten entry 97
- Handwritten entry 98
- Handwritten entry 99
- Handwritten entry 100

تقديم أر كلمة في المشكلة والمنهج

من المؤكد أن للنقد العربي ، بل لتراثنا الفكري القديم عامة ظروفه الخاصة التي يمثلها امتداده العميق زمتنا ومكاننا في أمة غلب عليها التأليف في علوم اللسان بأوسع مدلولات الكلمة : إنشاءً ووصفاً ونقداً ، كما يمثلها عدم وصول هذا التراث إلينا كاملاً بسبب الأوضاع التي حاقت بالأمة العربية من ناحية ، وبسبب ضخامة هذا التراث وتفرقه في شتى أنحاء العالم من ناحية أخرى .

ويبدو أن الأثر المباشر لهذه الظروف هو أن ذلك التراث ، وبالذات ما يتعلق منه بالوصف والتقييم ، لم يتح له أن يستوعب استيعاباً كاملاً نتيجة لغياب كثير من النصوص عن أعين الباحثين ، مما كان له أثره في عدم تكامل أجزاء الصورة ، وأيضاً في عدم تبين المراد من الأجزاء المتاحة في كثير من الأحيان .

ولقد عملت الحركة الدائبة في بعث هذا التراث ونشره على تمكين القراء والدارسين منه بقدر الإمكان مما دفعهم إلى إعادة النظر في الصورة ، بل إعادة الفهم لكثير من النصوص التي قدر لما تحمله من أحكام أن تفهم في يوم من الأيام على غير حقيقتها .

على أن اكتشاف النصوص ونشرها ليس كافياً ، وحده ، في إتاحة الفهم الكامل للتراث النقدي العربي ، ذلك أن طبيعة وظروف التأليف والمؤلفين في ذلك النقد قد ساعدت هي الأخرى على أن يشوب فهم الدارسين كثير من اللبس مصدره الإخلال بمقتضيات القراءة الصحيحة لذلك النقد والتي من بينها :

* التجرد من أي حكم أو أية فكرة سابقة عن ذلك النقد .

* الفهم التاريخي للنصوص والمصطلحات ، والاقتصار بفهمها على ما أريد منها .

* وجوب التفرقة بين الاتجاهات العامة المؤثرة والنصوص المفردة أو الشاذة غير المؤثرة .

* التمييز بين النتائج والمقدمات ، والحذر من أن النتائج المتشابهة قد يكون صدورهما ممكنا عن مقدمات مختلفة .

وتتضح الآثار الخطيرة لإغفال الشروط المشار إليها لقراءة التراث العربي قراءة صحيحة مما ساد في الدراسات الحديثة ابتداءً من مطالع القرن العشرين على الأقل والتي دارت حول النقد العربي القديم ، من اتجاه إلى تصوير موقف قدامى الرواة واللغويين والنحاة ، ابتداءً من أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني - وهم الذين كانوا يمثلون نقاد الشعر في تلك الفترة - على أنه كان موقف التعصب للشعر القديم والعداء والرفض للشعر المحدث ، وتبع هذا اتهامهم بمعادة كل حركة من حركات التجديد في الشعر ، وبأنهم ظلوا - حتى بعد تسامحهم في قبول شعر المحدثين - لا يقبلون منه إلا ما كان سائرا في ركاب القديم في أسلوبه وبنائه الفني ، وتمادت الدراسات الحديثة في تثبيت هذا التصور ، إلى حد القول بأنه لم يكن لأولئك النقاد من مبررات في رفض الشعر الحديث وقبول الشعر القديم سوى عامل الزمن ، فرفضوا الشعر الحديث لأنه حديث زمناً ، وقبلوا القديم لأنه قديم زمنياً .

وراح أصحاب هذه الدراسات يحملون أولئك النقاد كل ماتصُوروا أنه نتيجة لزعمة محافظة في الشعر العربي ، فما داموا قد رفضوا الشعر الحديث ، ثم لم يقبلوا منه - حين قبلوا - إلا ما سار على نهج القديم ، فهم مسئولون عن كل ما يمكن أن يكون محافظاً في هذا الشعر .

وقد ذهب الجميع يحشدون النصوص التي تؤيد هذا التصور ، وهي نصوص معدودة ترد في جميع الأبحاث بلا استثناء .

وكان مما يلفت النظر في هذا التصور أنه وقف عند نصوص جزئية لا تعبر عن اتجاهات عامة ، وإنما كان الناقد يدلي بالحكم في مناسبة ثم يعدل عنه في أخرى - وإن كان في الإمكان تبين رأيه النهائي باستقراء آثاره وآرائه في جملتها - مما جعل الاعتماد على نصوص بعينها ، تكرر وتعاد ، وتبتر أحياناً لكي تلائم المعنى الذي يراد

تحميلها إياه ، أقول : أصبح الوقوفُ عند هذه النصوص - القليلة جدا - فحسب ، غيرَ كافٍ على الإطلاق .

على أن الناظرَ في تاريخ النقد العربي والمتبَعَ لحركته ، على أساسِ نظرةٍ شاملةٍ تخطي ما يمكن تسميته (بالتَّوَاتُوهَاتِ الهَشَّةِ) - التي تمثلها النصوص التي اعتمد عليها الدارسون المحدثون - يستطيع أن يتبين أن أعلامَ ذلك النقدِ لم يكونوا على هذه الصورة من التعصّب للقديم والمقاومة لكل ما هو جديد ، بالعكس لقد كان الجديد دائما محلَّ قبولهم ، وأكثر من هذا أنهم حثوا عليه ، ونبهوا على من سَوَّلَ له نفسه أن يستعير من غيره . هذا عن النقادِ القدامى في القرن الثاني وتلاميذهم من اللغويين والنحاة في القرن الثالث ، وهم الذين يتعرَّضون لهجوم الدارسين المحدثين ، ثم مالبت تيارُ القبول للجديد أن اتسع وتعاظم وأصبح هذا الشاعرُ أو ذاك يُفضَّل على غيره لأنه مجددٌ ولأنه مبتكر .

ومعنى ذلك أن هناك خطأ متصلا في النقد العربي ليس عماده التعصّب ضد الحديث وتقديس ما هو قديم ، وإنما كان على العكس من هذا يرحب بالجديد ويقبله وينوّه به .

وحين يحاول الإنسان أن يتبين السببَ الذي من أجله وقفَ الدارسون المحدثون هذا الموقفَ من وصفِ النقادِ القدامى بالتعصّب للقديم ورفضِ الحديث لا يجد سببا سوى الوقوفِ عند النصوص الجزئية والأفكارِ المبتسرة التي لا تمثل اتجاهها عاما ولا تيارا متصلا سار فيه أولئك النقاد وخضع له تفكيرهم .

وتبدو أهمية الاحتكام إلى النظرة الشاملة والاتجاه العام في دراسة التراثِ النقدي من أننا نواجه في نصوص هذا التراث غير قليل من الخطأ والتناقض والتحامل والجمالة . فهناك - كما سنرى - النصوص التي اقتطعت من سياقها ، والنصوص التي تحمل من الأخبار ما يستعصي على التصديق ، وتلك التي تنضح بالكيد أو التزلف .

وعلى سبيل المثال : كيف يمكن أن نتصورَ شاعراً كالفرزدق (ت ١٠ / ١١١) ينوّه بالسيد الحميري (١٠٥ - ١٧٣) سالكا معه في نفس الخبر شاعراً خارجياً هو عمران بن حطان (ت ٨٤ هـ) ، إذ يُنسب إلى الفرزدق القولُ : « إن هاهنا لرجلين لو

أخذنا في معنى الناس لما كنا معهما في شيء ، فسألناه : من هما ؟ فقال : السيد الحميري وعمران بن حطّان السدوسي^(١) . ومثل آخر : كيف يمكننا أن نثق بقول الأصمعي : إن « تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة ، وكان يكابر ، وأما جرير فما علمته سرق إلا نصف بيت . قال : ولا أدري ، ولعله وافق شيء شياً »^(٢) . ومعنى (وافق شيء شياً) أن نصف البيت الذي تُنسب إلى جرير سرقة قد يكون من قبيل التوارد ، فلا تكون هناك سرقة لجرير على الإطلاق .

وإذا كان المرزباني قد انتقد هذا القول ووصفه بالتحامل على الفرزدق والميل مع جرير لأن الفرزدق كان يهجو باهلة قبيلة الأصمعي ، فإن الخبر الأول لم يجد من ينقده ، ولا وجد من القدماء من لاحظ التناقض بين القول بأن أبا عمرو بن العلاء كان لا يحتج بأشعار الإسلاميين ولا يرويها ، وبين واقع روايته الواسعة لتلك الأشعار والإعجاب بها والتلقى عن أصحابها والتلمذ عليهم .

والواقع أنه مالم يؤخذ الاتجاه العام لحركة النقد العربي في الاعتبار ، فإنه يكون من الصعب فهم أي موقف من مواقف ذلك النقد ، إذ إن مجرد الوقوف عند النصوص - خاصة إذا كانت قليلة وغير قاطعة في دلالتها - لا يكفي ، إذ توجد - من ناحية أخرى - نصوص تنقضها ، وبالتالي يصبح الاكتفاء بمجرد النصوص غير مجدٍ ، وهذا ما تبدو صحته من مجرد النظر في محاولات الدارسين في عصرنا الحديث للتدليل على تعصب قدامى النقاد ضد شعر المحدثين في العصر العباسي وضد محاولات التجديد في ذلك الشعر .

فعلى الرغم من اتفاقهم على هذا التصور لموقف أولئك النقاد ، فإننا لا نعدم الخلاف بينهم ، وهو خلافٌ كثير ما يكون جوهرياً ، وإن صدر عن نظرة واحدة . وعلى سبيل المثال : دعوة أبي نواس : قيمتها ، ومدى وقعها على أولئك النقاد ، وموقفهم منها ، أهوجمت ؟ أم لم تُهاجم ؟ وما هو التعليل الذي يساق في كل من الموقفين ؟ .

(١) الأغانى ٧ / ٢٣١ .

(٢) الموشح ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

أما عن قيمتها ، فيبدو من حديث نيكلسن (Nicholson (R.A) عن (أبي نواس الناقد) أنه يعترف بقيمتها ، إذ يتحدث عن أبي نواس كواحدٍ ممن سلّموا بسُخفِ الجُرّي على النمط القديم في حشو الشعر بصور مستعارةٍ من حياة البادية ، لا يجد الشعراء أو جمهورهم أدنى قدر من الميل إليها (١) . كما يُشيد بها طه حسين ويرى أن أبا نواس كان يدعو الناس إلى تغيير القديم ، كما يرى في دعوته مذهبا في الصدق الفني (٢) ، ويرى فيها طه إبراهيم المحاولة الوحيدة في النقد العربي التي استهدفت تجديد الشعر تجديدا حقيقيا وإن أخفقت في النهاية . هذا بينما لا يرى فيها مندور دعوة إلى التجديد ، كما أن ما حاوله أبو نواس في تغيير مقدمة القصيدة بإحلال الخمر محل الأطلال لا يعدُّ تجديداً بقدر ما هو ضربٌ من المحاذاة التي يفوق خطرُها خطرَ التقليد ، وكذا يتفق معه عبد القادر القط في التقليل من قيمة تلك المحاولة على أساس أنها لا تمثل ثورةً فنيةً على تقاليد الشعر العربي . (٣) أما محمد مصطفى هدارة فيذهب إلى أنها من الحركات الثورية وأن أبا نواس ثار على تقاليد الشعر العربي وخرج على عمود الشعر ونهج القصيدة (٤) .

هذا عن الاختلاف في قيمتها ، أما عن وقعها على أولئك النقاد ، وموقفهم منها ، فيرى طه حسين أنها كانت محل سُخْطٍ لما فيها من هجوم على العرب وهجوم على القديم لأنه عربي ، بينما لا يشير طه إبراهيم إلى أنها كانت عرضةً لهجوم خاص من جانب النقاد ، وإن فهم من كلامه أنها هوجمت ضمن التيار العام في الهجوم على كل ما هو حديث ، ويرى مندور وعبد القادر القط أن أحداً لم يهاجم دعوة أبي نواس هجوماً مماثلاً لما حدث مع أبي تمام ، وذلك لأنها كانت ضئيلة الأهمية من الوجهة

(١) Nicholson (R.A .) A Literary History of the Arabs, p 286 .

(٢) طه حسين ، حديث الأربعاء ٩٤/٢ .

(٣) عبد القادر القط ، حركات التجديد في الشعر العباسي ، بحث نشر ضمن مجموعة من الدراسات مهداة (إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) ص ٤١٨ .

(٤) محمد مصطفى هدارة ، مشكلة السرقات في النقد العربي ص ٢١٢ ، وراجع : أحمد أمين ، (جنابة الألب الجاهلي على الأدب العربي) مجلة الثقافة ، العدد ١٩ مايو ١٩٣٩ ، ص ٧ حيث يجعل أبا نواس من الدعاة إلى التجديد .

الفنية. أما أحمد أمين فيرى أن أنصار القديم هاجموا تلك الدعوة واضطروا أبو نواس إلى الرجوع عن مذهبه في الدعوة إلى الإقلاع عن بكاء الديار ووصف الأطلال في افتتاح القصائد ، وهذا هو ما يراه صاحب (مشكلة السرقات في النقد العربي) أيضا (١) .

بل إنهم يختلفون في نوع المهاجمين لتلك الدعوة ، فطه حسين يشير إلى تعرض الشعراء المجددين لسخط الأئمة والعلماء من رجال الدين ، الذين كانوا يحكم منزلتهم الدينية واللغوية يقفون في صف القديم ، يحافظون عليه ويتعصبون له ضد كل ما هو جديد ، على حين يرى أحمد أمين ومحمد مصطفى هدارة أن مصدر الهجوم على أبي نواس كان الرواة وعلماء اللغة ، وهم الذين قاموا بدور النقاد في المرحلة الأولى من نشأة النقد العربي ، ويبدو أن هذا هو ما يراه إبراهيم سلامة حين يقرر أن الرواة واللغويين كانوا يسعون إلى كبت كل صوت يرتفع بالتجديد (٢) ، وهو ما يراه أيضا شكري عياد حين يذكر أن أصحاب النقد العربي الخالص ألزموا الشعر المحدث منهج القصيدة التقليدية (٣) ، أي أن خروج أبي نواس يجب أن يكون محل سخط أولئك النقاد .

ومن الواضح إجماعهم على وجود ذلك الموقف من جانب قدامى النقاد ، حتى عند من نفوا قيام خصومة وهجوم على أبي نواس ، مثل مندور والقط ، فهؤلاء لم ينفوه على أساس قبول النقاد لدعوة الشاعر المجدد ، بل على أساس أن الدعوة ذاتها لم تكن درجة التجديد فيها ، ومدى الجدوية أيضا ، من الوضوح بالقدر الذي يثير انتباه النقاد ، ويستحق - بالتالي - المقاومة والهجوم . وهم بذلك يصدرون عن نفس التصور الذي يرى أن دعوة أبي نواس تعرضت للهجوم على أساس القيمة التجديدية في تلك الدعوة .

(١) أحمد أمين ، المصدر السابق ص ٨ . ومحمد مصطفى هدارة ، المصدر السابق ص ٢١٣ .

(٢) إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، ص ٣٠٦ .

(٣) شكري عياد كتاب أرسطو طاليس في الشعر ، نقل متي بن يونس ، تحقيق وترجمة حديثة

ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية ص ٢٢٩ .

بل إن الباحث الواحد ليتناقض مع نفسه في بعض الأحيان في تصوره لمدى قبول العلماء لتلك الدعوة ، فطه حسين مثلاً يبدأ كلامه عن (القدماء والمحدثون) بأن من أسباب ببطء تطور الأدب العربي ، والشعر العربي خاصة ، أن الشعراء المجددين كانوا يتعرضون للهجوم والسخط من جانب الأئمة وعلماء الدين ، لأن أولئك العلماء ، بحكم منزلتهم اللغوية والدينية ، محافظون يكرهون كل جديد ، ويعملون على الإبقاء على اللغة وعلى مفرداتها ومعانيها كما هي دون أى قدر من التطور ، تلك الطائفة كانت أعداء للجديد ، ولاشك أن عداءهم يشمل أبا نواس ، إذ هو الممثل البارز للجديد ، هو صورة العصر كله في الجرى وراء الجديد ورفض القديم أياً كان : دينا أو لغة أو تقاليد .

ولاشك أن أبا نواس - وفقاً لهذا التصور - كان في دائرة هجومهم ، وعندما قال بعضهم لطه حسين إن ذلك العصر كان فيه الوقار والرزانة والتدين ، راح يجادل معارضيه مؤكداً أن ذلك العصر - سواء في الظاهر أو في الخفاء - كان عصر مجنون وكان عصر تحرر ، لم يسلم منه من يفترض فيهم أنهم أكثر الناس محافظةً ، لم يسلم منه رجال الدين أنفسهم ، وما كان رجال الدين من المتزمتين ، ابتداءً من عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن الزبير الذى كان خليفة - لم يكن علماء الدين من المتزمتين ، وفي العصر العباسي صاروا من المتحررين وإن تسترُوا قليلاً ، أو ظهروا بمظهر الجدّ أحياناً ، بل هم لم يحافظوا على مظهر الجدّ دائماً ، لأن أبا نواس - رأس الاستهتار والمجون والجرأة والتجديد - حظى بأكبر قدر من ثنائهم ، بل إنهم رَوَوْا عنه ، وروى هو عنهم (١) ، وأشادوا به وجالسوه وأعجبوا به . بل إن الناس جميعاً في العصر العباسي كانوا قابلين للجديد آخذين به ، الجميع كانوا مجددّين وقابلين للجديد ، ولا يفترق أبو نواس عنهم إلا بأنه هو الذى (أعلن) قبول الجديد ، أما القبول للجديد في ذاته والعمل

(١) فى رواية أبى نواس عن عدد من المحدثين ، ورواية عند من ثقاتهم - منهم الشافعى - عن أبى نواس ، يراجع : حديث الأربعاء ٢٣/٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، وجدير بالذكر أن الدكتور طه حسين يحيل فى هذا على (تاريخ دمشق) للحافظ ابن عساكر .

به ، فقد كان قائما وكان مأخوذا به بين الجميع (١) .

فهل قاوم رجال الدين وعلماءه كل جديد ؟

وهل أخذ رجال الدين والمجتمع العباسي كله بكل جديد ؟

يجيب طه حسين عن كلا السؤالين بنعم . وأحسب أن إجابته عن السؤال الثاني صحيحة وأنه موقن بها ، لكنه قال ما قال خاصا بالسؤال الأول ، تحت وطأة الفكرة المسيطرة عن وجود من قاوموا حركات التجديد في الشعر العربي ، وهي الفكرة السائدة من بداية القرن العشرين على الأقل إلى هذا اليوم .

هذا مثال واحد لكيفية الاختلاف في جزء واحد من أجزاء الصورة ، بسبب الاعتماد على بعض الروايات دون بعضها الآخر ، وبسبب الانسياق وراء أفكار سابقة تكونت لدى الباحثين من قبل ، وظلت تتحكم في اختيارهم للنصوص وفي فهمهم لها حتى تصبح أكثر طواعية لما يريدون أن يقرروا .

ولاشك أن الخلاف سيكون أعظم حين يطرح هذا السؤال : ما الفرق بين دعوة أبي نواس ومذهب أبي تمام ؟ ثم يعظم أكثر حين يسأل عن موطن الهجوم الذي وكر عليه خصوم أبي تمام : هل كان هجوما على اختراعه للمعاني ، أو كان هجوما على طريقته في الصياغة أو على غموضه ؟ هل كان هجوما على ما جاء به من جديد ؟ أي أن خصومه كانوا في صنف القديس ؟ أم أن خصومه تصوروا أن ما يهاجمونه هو ضرب من الإغراب والإحالة وإفساد اللغة لا أكثر ؟ وأنهم كانوا - في ذلك - يجارون ذوقا عاما وجد قبلهم وظل سائدا بعدهم حتى عند من عرفوا بأنهم ناصروا الجديد ؟ .

(١) عرض الدكتور طه حسين رأيه في مهاجمة رجال الدين وعلمائه للتجديد في الشعر في (حديث الأربعاء) ١٠/٢ أما رأيه في اندفاع المجتمع العباسي كله بما فيه رجال الدين والخلفاء والشعراء وقبول الجميع للجديد بشتى صورته فيصوره كثير من الصفحات التي تناول فيها المشكلة بالدراسة ، على سبيل المثال ٣٥/٢ ، ٣٦ ، ٩٥ ، ٩٧ ، وراجع أيضا ٥٥ / ٢ في تفضيل الفقهاء والمحدثين والمتكلمين لأبي نواس .

ولقد بلغت نتيجة الاعتماد الجزئي على الروايات أقصى مراحل خطورتها - فيما أعتقد - حين تصور أستاذ جليل أن النقد العربي تناقض مع نفسه ، ذلك أن هناك روايات تقول إنهم حثوا على اتباع القديم ، ثم إن هناك دراسات تسجل اهتمامهم بكل ما اقتدى فيه أحد الشعراء بشاعر ممن سبقوا عليه ، وهو الاقتداء الذي كان عرضة لسخطهم واستنكارهم ، أي أن النقد العربي وفقاً لهذا التصور كان يحث على التقليد وينهى عن التقليد في آن واحد (١) . ومع الاعتراف بحصافة الاستنتاج فإننا لانستطيع التسليم بسهولة بأن تلك المرحلة من التفكير العربي شهدت خدعة كبرى كان الناس أثناءها لا يفهمون أنفسهم ، ولا يفهمون ما يريدون ، بحيث تضاربوا مع أنفسهم دون أن يشعروا ، فراحوا يأمرون بالتقليد والبعد عن التقليد في وقت واحد !

أكثر من هذا أن أولئك النقاد كثيراً ما كانوا يُصدرون الحكم النظري فيذاع عنهم ، ثم هم عند التطبيق يتراجعون عنه ، وخطورة هذا التصرف بالنسبة للدراسات الحديثة أن البعض يكتفي بعدد من النصوص ، أي بجانب من الصورة دون بقية الجوانب ، فتكون النتيجة صدور حكم خاطئ ، أو ناقص على أقل تقدير . وهذا ما حدث بالنسبة لابن قتيبة ، فقد أعلن ضرورة التزام الشاعر المحدث بالنهج التقليدي للقصيدة العربية وحين راح يطبق ما أعلنه على الشعراء - في ترجمته لهم - كان احتفاؤه وتنويهه بأولئك الذين خرجوا عن النهج التقليدي للقصيدة أكثر من احتفائه بمن حافظوا على ذلك النهج .

على أن تصريح ابن قتيبة لم يمر دون أن يسجل عليه المحدثون ملاحظاتهم ، وهكذا تضاربت الآراء فيه ابتداء من الوصف بأقصى درجات الرجعية إلى الوصف بالتححرر والعدل ، فبينما يرى نكلسن أنه أول ناقد عربي هام يعلن أن القدماء والمحدثين ينبغي أن يُحكم عليهم على أساس ميزاتهما لا على أساس العصر (٢) ، نرى محمد مندور لا يعجبه شيء في ابن قتيبة ، فحين يصرح الناقد القديم بوجوب الحكم على شعر القدماء والمحدثين على أساس مافي كل منهما من عناصر الجودة

(١) شكري عياد ، المرجع السابق ص ٢٣٤ .

(٢) Nicholson (R. A .) A Literary History of the Arabs, p . 286 .

لا على أساس الحدائث والقدم لا يروق هذا التصريح لمندور لأن الشعر القديم أفضل من الشعر المحدث ، وبالتالي فابن قتيبة مخطئ حين يطالب بالمساواة بين الشعرين : القديم والمحدث ، وحين يدلى الناقد القديم بتصريحه عن وجوب عدم خروج المحدثين عن منهج القدماء يتساءل مندور : لماذا لا يخرج الشاعر المحدث ؟ ولماذا لا يصف الدور والقصور ؟ وهكذا (١) ، أما أحمد أمين فيرى في ابن قتيبة ناقداً متحرراً ورجعياً في آن واحد (٢) .

وكان رجوع ابن قتيبة عن حكمه رجوعاً صامتاً ، حين قبل - دون تحفظ - شعر أبي نواس ، الشاعر الذي خرج على نهج القصيدة ، أى حين وافق على ما سبق أن أعلن رفضه . ولكن هناك غير ابن قتيبة من كانوا يصدرن نصوصاً متضاربة ، أو هكذا صورتهم الروايات ، بل مانظن إلا أن الروايات هي التي صورتهم بهذه الصورة ، وهذا مثال واحد : أبو عمرو بن العلاء ، من رؤوس المدرسة البصرية في اللغة والنحو - والنقد أيضاً - حكى الأصمعي أنه جلس إليه ثمانى حجج فما سمعه يستشهد ببيت واحد إسلامي ، ثم نجد روايات أخرى : كان يروى شعر جرير وطبقته ، وكان إعجابه بالأخطل لا حدود له ، وكان يروى شعر ذى الرمة ، ويرى أن عمر بن أبي ربيعة حجة ، ثم هو كان يرسل إلى الحارث بن خالد المخزومي - وهو شاعر إسلامي - يستفتيه في اللغة ، وتتساءل : هل ذلك هو سلوك الرجل الذي يرفض شعر الإسلاميين ؟ - حتى في مجال الاحتجاج اللغوي ؟ ذلك مثل واحد .

وتعظم محنة الدارس الحديث حين يرى أن النقد العربي انتهى به الأمر إلى أفراد مبحث لما سُمي (بالاختراع) حيناً و(الإبداع) حيناً آخر ، وأنه أصبح يبحث على الابتكار والتجديد ، وهنا يتساءل الدارس الحديث : ألا يوجد تناقض في التفكير العربي ، تناقض بين موقفين له في زمنين مختلفين ، ماداموا يقولون إن عصرنا قد رفض كل ما هو جديد ، وها نحن أولاء نرى أنهم صاروا أحرص الناس على الجديد ؟

(١) محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) أحمد أمين ، النقد الأدبي ٢/٤٤٠ ، ٤٤٣ ، وراجع أيضاً المقالة الأولى من دراسته عن (جناية

الأدب الجاهلي على الأدب العربي) العدد ١٩ من مجلة الثقافة مايو ١٩٣٩ ص ٨ .

ألا يوجد تضارب وتعارض ؟ وقد يقال إنه تعارض طبيعي ، فهم قد تراجعوا - بعد فترة - عما سبق أن تمسكوا به في فترة سابقة ، وهنا يجد الإنسان نفسه في حاجة إلى التماس تعليل لهذا التحول والتراجع ، ويجد نفسه أمام محاولات لهذا التعليل تحاول أن تعزو ذلك التحول إلى عوامل طارئة من الخارج . والتعليل وإن كان مطلوباً ، واللجوء إلى عامل خارجي وإن كان يمكن أن يكون مقبولاً ، لكنه من ناحية يبدو أنه لا يتفق مع الواقع ولا مع طبيعة المجتمع الذي قبل كل ما هو جديد ، ولو صح أن العوامل الخارجية الطارئة قد تولد اتجاهات جديدة مستحدثة ، فإن الذي نشك فيه أن تستطيع هذه العوامل المضى في مخاباة الاتجاهات الجديدة وتنميتها ما لم يكن المجتمع نفسه على استعداد لقبول هذا الجديد ، من هنا يبدو اللجوء إلى تعليل خارجي لقبول المجتمع العربي للجديد غير كافٍ ، بل غير مستقيم .

وهكذا لا يكون أمام الباحث إلا أن يكرر النظر في الصورة مرات ومرات محاولاً أن يتبين فيها بعض الخطوط التي يمكن أن يكون لها حظ من الاتصال والوضوح وهو ما يضمن على الصورة شيئاً من المنطق ويكسبها صفة الاستمرار ويجنبها صفة التناقض . ويكون جلُّ اعتماده هنا على الاتجاه العام في حركة النقد أكثر من الوقوف عند نصوص جزئية قليلة قد تنقصها الدلالة الكافية ، وإن كان لا يهمل هذه النصوص ، وإنما ينظر إليها من خلال الإطار العام والاتجاه العام الذي يطبع حركة النقد في عمومها ، وهكذا يصبح الاتجاه العام هو الذي يحكم على دقة النصوص المفردة ، على الرغم من أنه يقوم على أساسها ، وليس العكس ، أي أن النصوص الجزئية لا تحكم نظرنا إلى الاتجاه العام إلا بمقدار ما تتفق مع هذا الاتجاه .

ولانعنى بما نسميه الاتجاه العام نظرة سابقة على البحث نحاول أن ننتخب النصوص لتأييدها وأن نرفض ما يعارضها تحت دعوى عدم توافقها مع هذا الاتجاه ، ولكننا نعنى به نوعاً من الاستقرار القائم على النظرة الشاملة التي قد تتخطى بعض التواءات التي لا تتوافق مع اتجاه حركة النقد ، لاعن عمداً لإهمال ما نسميه بالتواءات ، ولكن لأن هذا الإهمال والتخطى إنما يعتمد على انعدام أثر هذه النصوص ، وبالتالي لا ينبغي الوقوف عليها مادامت عديمة التأثير .

ولا يمكن الحكم عليها بعدم التأثير ما لم يُنظر إليها في ضوء غيرها من النصوص وفي ضوء ملاءمة هذه النصوص واتفاقها مع النتائج ، بحيث تبدو النصوص المهمة غريبة على الصورة أو نشازا في اللحن ، وهو ما يقوم سببا مشروعاً لعدم الوقوف عندها .

ونحن بهذا المنهج لا نبتدع جديداً ، سواءً من حيث التحفظ في قبول آراء العلماء ، أو اقتراح التوفيق بينها بحمل بعضها على بعض والانقياد للنصوص التي تمثل الاتجاه الأقوى . فمن القدماء من واجه مثل هذا الموقف وتصدى له بحلول لم يكن أمامه - فيما نرى - أنسب منها ، وهي حلول من النوع الذي اقترحناه . ومن هؤلاء ابن جنى (أبو الفتح عثمان ت ٣٩٥) وقد جاء في كتابه - الخصائص - (باب في اللفظين على المعنى الواحد يردان عن العالم متضادين) ، ويقصد بـ (اللفظين) هنا : العبارتين ، أو الحكمين في الموضوع الواحد ، قال : « وذلك عندنا على أوجه :

أحدها : أن يكون أحدهما (يعني أحد الحكمين) مرسلًا والآخر معللاً ، فإذا اتفق ذلك كان المذهب الأخذ بالمعلل ، ووجب - مع ذلك - أن يتأول المرسل .. » (١) .

« ومن ذلك أن يرد اللفظان عن العالم متضادين على غير هذا الوجه ، وهو أن يحكم في شيء بحكم ما ، ثم يحكم فيه نفسه بضده ، غير أنه لم يعلل أحد القولين ، فينبغي حينئذ أن يُنظر إلى الأليق بالمذهب والأجري على قوانينه ، فيجعل هو المراد المعتمَر فيهما ، ويتأول الآخر » (٢) .

« ومن ذلك أن يرد اللفظان عن العالم متضادين ، غير أنه قد نص في أحدهما على الرجوع عن القول الآخر ، فيعلم بذلك أن رأيه مستقر على ما أثبتته ولم ينفه ، وأن القول الآخر مطرَح من رأيه .

(١) الخصائص ١/٢٠٠ .

(٢) الخصائص ١/٢٠٢ .

فإن تعارض القولان مرسلين ، غير مبين أحدهما من صاحبه بقاطع يحكم عليه به .. بحث عن تاريخهما فعلم أن الثاني هو ما اعترفه ، وأن قوله به انصراف منه عن القول الأول ...

فإن استبهم الأمر فلم يُعرف التاريخُ وجب سبرُ المذهبين ، وإنعامُ الفحص عن حال القولين ، فإن كان أحدهما أقوى من صاحبه وجب إحسان الظن بذلك العالم ، وأن ينسب إليه أن الأقوى منهما هو قوله الثاني الذي به يقول ، وله يعتقد ، وأن الأضعف منهما هو الأول منهما الذي تركه إلى الثاني ، (١) .

وواضح أنه لا يكتفي في التوفيق بين المتناقض من آراء العالم الواحد في المسألة الواحدة بمجرد ترجيح الرأي المعلن على غير المعلن ، أو اعتماد الرأي الثاني باعتباره ناسخاً للرأي الأول ، وإنما يتدخل بالترجيح بين الرأيين المرسلين في ضوء المعروف من اتجاه صاحبهما ومذهبه مما يساعد على تقوية أحد الرأيين والأخذ به وإهمال الآخر (٢) .

هذا هو مسلك ابن جني الذي لا يسعنا إلا تقديره والتنويه به ، وهو مسلك أملتته - دون شك - ظروف التراث العربي وتعدد ما يروى عن العالم الواحد من آراء في المسألة الواحدة ، مما جعل من الضروري الصدور في دراسته عن نظرة شاملة تعم آراءه ومواقفه .

وهذه هي النظرة التي حاولت اصطناعها في هذه الإطالة على موقف النقد العربي القديم من شعر المحدثين ومن حركات التجديد في ذلك الشعر في القرنين الثاني والثالث ، إذ إن الوقوف على حقيقة ذلك الموقف ومدى قبول النقد أو رفضه للتجديد يعتبر - فيما أرى - مقدمة ضرورية لدراسة أي من موضوعات ذلك النقد

(١) الخصائص ٢٠٥/١ .

(٢) مما له دلالة في هذا الصدد ما ذكره ابن جني من شيوع هذا المسلك عن عدد من العلماء ، أعني صدور الرأي من أحدهم في مسألة من المسائل ثم رجوعه عنه إلى رأي آخر ، أو قوله في المسألة الواحدة برأيتين يلتزمهما جميعاً ، وممن نسب إليهم سلوك هذا المسلك بعض الفقهاء كابن يوسف صاحب أبي حنيفة ، وعدد من المشتغلين بالنحو واللغة والقراءات منهم أبو الحسن الأخفش وأبو العباس المبرد وأبو علي الفارسي . يراجع الخصائص ٢٠٥/١ ، ٢٠٦ .

وقضاياه تلك التي أُسيءَ فهمُ الكثير منها بسبب انطلاق الدارسين لها من مسلمات غير دقيقة أخطرها ما شاع عن مناصرة النقد العربي - بل الفكر العربي كله - للقديم ، ورفضه لكل جديد .

وإذا كان هناك من ملحظ أعترض عنه - سلفاً - فإنما هو كثرة الإلحاح على النصوص وإيرادها ، سواء في ذلك نصوص الدارسين في عصرنا الحديث ممن وصّفوا أوائل النقاد بالتعصب ، ونصوص أوائل الأوائل ممن وُجّهت إليهم تهمة التعصب ، وهو مسلك تشفع له طبيعة المشكلة التي يتصدى لها البحث والموقف الذي يتوخاه صاحبه ، أعني موقف الحساد والاكتفاء بتتبع ما يمكن أن نسميه بـ (تحاور النصوص) تتبعاً غايته الفهم ، ورائده ما سبق أن ذكرته من وضع النصوص تاريخياً في أطرها الاجتماعية والثقافية والفنية .

الباب الأول
موقفُ التقديرِ العربيِّ من شعرِ المحدثين
كما تصوّره الدراساتُ الحديثةُ

(١)

عرض

في الفصل الذي عقده نكلسن Nicholson للحديث عن الشعر والأدب والعلم في العصر العباسي ، في كتابه (التاريخ الأدبي للعرب) تناول موقف أوائل النقاد العرب ، الذين كانوا من اللغويين أصلاً ، في تعظيم الشعر الجاهلي ، وهو الموقف الذي كان له انعكاسه - فيما رأى - على النظرة إلى الشعر المحدث ، وعلى الشعراء المحدثين أنفسهم ، يقول : « كان الشعر الجاهلي هو التعبير الطبيعي عن الحياة البدوية ، وعلى هذا فمن الممكن أن نتوقع قيام الظروف الجديدة والأفكار التي جاء بها الإسلام بإحداث ثورة مماثلة في الشعر على وجه السرعة في القرن التالي . ولكن ذلك على أي حال كان بعيداً عما آل إليه الوضع ، ذلك أن الشعراء الأمويين تشبثوا بقوة بالنماذج العظيمة التي أنتجها عصر البطولة ، كما اعتقدوا بوجود ميزة في المحاكاة الماهرة للقصائد القديمة . وتمسك النقاد المسلمون الأوائل ، الذين كانوا الغويين بحكم المهنة ، بالمبدأ القائل بأن الشعر في العصور السابقة على الإسلام قد وصل إلى درجة من الكمال لا يطمع في مجاراتها شاعرٌ محدث ، ولا يتبع الإلهام بمثلها سوى المثل الجاهلية البائدة . وكان الميلاد بعد الإسلام في ذاته دليلاً على الانحطاط الشعري .

وقد حازت تلك الأفكار قبولا واسعا في الدوائر الأدبية ، وأدت بالتدريج إلى انحراف الذوق العام إلى حدٍّ أن يدعى الدارسون المتحذلقون ، مثل الخليل بن أحمد مخترع العروض العربي ، أن في إمكانهم أن يشيدوا أو يحطموا شهرة الشاعر الناشئ حسب ما يترأى لهم ، وإذ صارت الأصالة **originality** مقضياً عليها مقدماً ، فإن أولئك الذين رغبوا في الحصول على تقدير تلك الأكاديمية التي تكونت ذاتياً ، كان عليهم أن يضيعوا وقتهم ومواهبهم في احتذاء الروائع القديمة مع شيء من التحسين ، وفي إتحاق الندماء والمواطنين بالصور المستعارة من الحياة البدوية ، التي لا يشعرون

ولا يشعر جمهورهم بأدنى قدر من الميل إليها (١) .

وخلال الأعوام ١٩٢٢ - ١٩٢٣ - ١٩٢٤ نشر طه حسين مجموعة من المقالات الأسبوعية في جريدة (السياسة) جمعها موضوع واحد هو (القدماء والمحدثون) ، ويذهب الأستاذ الجليل إلى أنه « لم يتخل عصر أدبي في حياة الأمم التي كان لها نصيب من الأدب وحظ في إتقان القول وإجادته من هذه المسألة - مسألة القدماء والمحدثين » (٢) ، ولم تكن الأمة العربية بدعاً في ذلك بين الأمم فقد ظهرت فيها هي الأخرى ظاهرة الصراع بين القديم والحديث في ميدان الشعر ، ذلك أن الخلاف قد وقع بالفعل في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للهجرة بين أنصار الجاهليين والإسلاميين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يروى كل ما شعر جوير لأن هذا (المؤلد) كان مجيداً ، ثم ظهر الخلاف في منتصف القرن الثاني بين أنصار العرب جاهليين وإسلاميين وأنصار المحدثين ، أي ظهر الخلاف بين بشائر وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من الأدباء وبين امرئ القيس وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من أئمة اللغة ورواة الشعر ، ثم ظهر الخلاف في القرن الثالث بين الذين كانوا يتصرون للبحري وأبي تمام والذين كانوا يتصرون لأبي نواس ومسلم ، ثم ظهر الخلاف في القرن الرابع بين الذين كانوا يتصرون للمتنبي والقيس كانوا يتصرون لأبي تمام ، فأنت توى أن كل هذا العصر الأدبي الذهبي عند العرب كان مملوءاً بالاختلاف بين القدماء والمحدثين ، (٣) .

أما موطن الخلاف ، « فقد كان قبل كل شيء في اللفظ ثم في المعنى ، لم يتجاوز هذين الأمرين ، كان القدماء والمحدثون أيام بني أمية يختلفون في اللفظ اختلافاً ظاهراً ، وكانوا يتخذون اللفظ مقياساً لجودة الشعر ، فكلمة أقرب هذا اللفظ من البداوة وكلمة كان رصينا .. كان الشعر جيداً .. ثم ظهر الخلاف بعينه في أول العصر العباسي فاختلف الشعراء العباسيون واختلف معهم الأدباء واللغويون في

(١) Nicholson (R.A) A Literary History of the Arabs, p. 285 , 286 .

(٢) طه حسين ، حديث الأربعاء ٢/٢ .

(٣) طه حسين ، المرجع السابق ٦/٢ ، ٧ .

أى الشعرين أجمل وأرقى وأحسن: الشعر الذي يحتذى شعراء الجاهلية والإسلام في متانة اللفظ وورصانته وبدأوته، أم الشعر الذي يتخير الألفاظ السهلة العذبة التي ألفها الناس عامة لأعلام اللغة خاصة؟ وظهر إلى جانب هذا خلاف آخر في المعنى، فاختلف الشعراء في معاني الشعر، أتبقى كما كانت بدوية أعرابية أم تتحضر كما تحضر الناس؟ ثم أتتناول الشعور الإنساني فتصفه... كما كان يشعر به الأعراب في باديتهم وصحرائهم، أم تتناول هذه المستحدثات الحضرية والمستطرفات التي لم يعهد لها الأعراب؟ وعلى الجملة أيعيش الشعراء عصرهم الذي هم فيه أم يعيشون عصور الآباء والأجداد؟ (١).

ثم يرى أن ذلك الخلاف « لم ينتج لهذه الآداب شيئا كثيرا في الشعر على أقل تقدير... وإنما أحدث شيئا جديدا في لفظ الشعر ومعناه ». لكن ذلك الشيء « كان أقل جدا مما كنا نتظر » (٢) ، « لقد كان العرب أحراراً في الحياة المادية محافظين في الحياة الأدبية.. وكان الشعراء الذين يجرؤون على أن ينكروا هذه المحافظة ويحاولون تحرير الشعر قليلاً أو كثيراً.. يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء من رجال الدين، لأن هؤلاء الأئمة والعلماء بطبيعة منازلهم الدينية حراس على القديم أعداء لكل جديد، وكان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء لأنهم يحكمون متزلتهم اللغوية مضطرون إلى أن يحتفظوا بالبقواعد اللغة وأصولها فحسب بل بألفاظها وأساليبها أيضاً » (٣) « فكان من المعقول أن يتأثر الشعر بهذا كله وأن يكون موقف الشعراء المجددين - كموقف الفلاسفة المجددين - ثقيلًا، شديد الحرج، وأن يتعرض أولئك هؤلاء للحبس والضرب والنفي وغير ذلك من ضروب الاضطهاد وألوان العذاب... فقد ضرب بشار حتى مات، وحبس أبو نواس في عصر الرشيد، كما حبس في عصر الأمين ولو أدركه المأمون لقتله » (٤).

(١) طه حسين، المرجع السابق ٧/٢، ٨.

(٢) طه حسين، المرجع السابق ٩/٢.

(٣) طه حسين، المرجع السابق ١٠/٢.

(٤) طه حسين، المرجع السابق ١١/٢.

ولاعتيننا بقية الأسباب التي ذكرها لتعليل عدم مُسايرة تطور الشعر لتطور الحياة مثل روعة الآداب العربية القديمة وحرص الأمة على سننها القديمة وعلى ما ورثته، ثم عدم معرفة الأمة العربية لشيء من الآداب الأجنبية، وإنما يعيننا ما ذكره من مقاومة الأشخاص، وهم الذين سماهم الأئمة وعلماء الدين، لِمَا هو جديد.

ثم راح يعرض لمظاهر التجديد الشامل في العصر العباسي وماتج عن ذلك من تجدد الحياة الأدبية: « وفي الحق أن الشعر قد سلك في أيام بني العباس طريقا تكاد تخالف كل المخالفة طريقه أيام بني أمية فنشأت معانٍ جديدة وذهب الشعراء مذاهب مختلفة في وصف هذه المعاني والتعبير عنها .. ذلك أن الحياة في عصر بني العباس كانت جديدة من كل وجه، فانقطعت الصلة شيئا فشيئا، أو كادت تنقطع، بين هذه الحضارة البديعة التي كانت تزدهر في بغداد وضواحي بغداد وبين هذه البداوة القاسية الخسنة التي كانت تيسط سلطانها على بلاد العرب » (١). فقد كان من الظواهر اللافتة في ذلك العصر « ظاهرة الإباحة والإسراف في حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم دينا كان هذا القديم أو خُلُقا أو سياسة أو أدبا ... وظهر ازدراء الأدب العربي القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة، بل ظهر ازدراء الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها .. والذي يعيننا أن هذا التغيير قد كان، وقوى حتى ظهر في الشعر ظهورا جعل إنكاره مستحيلا، فيكفي أن تقرأ شعرا أبي نواس وما كان بينه وبين أصحابه وخصومه من معارضة ومناقضة لتعرف مقدار هذا التغيير، ثم إن هذا التغيير نفسه قد أنتج نتيجته الطبيعية فنهض القديم للدفاع عن نفسه واشتد الجهاد بينه وبين الجديد » (٢).

والواقع أنه « لم يكن الجهاد عنيقا حين كانت الحياة المادية موضوعا له ... وإنما كان الجهاد عنيقا بعض العُنف حين كانت الحياة العقلية موضوعا له ... وكان القرن الأول للهجرة عصر هذا الجهاد، ولكنه لم يكد ينقضى حتى ظهر انتصار الجديد، وأخذ القديم ينهزم أمامه ... وكان هذا الانتصار عاما تناول الحياة المادية والعقلية،

(١) طه حسين، المرجع السابق ٢٠/٢.

(٢) طه حسين، المرجع السابق ٢٢/٢.

وتناول معهما حياة الشعور ، ففكر العرب المحدثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكير العرب القدماء ... وظهرت عندهم العلوم وضروب الفلسفة ، وتغير لهذا كله حسهم وشعورهم ، فتغير لسان هذا الحس وهذا الشعور وهو الأدب نثرا كان أو شعرا (١) .

ويرى طه حسين أن أبا نواس يمثل ذلك العصر أصدق تمثيل ، بشكوه ومجونه وأيضا بجده وزهده ، ويورد جملة من أقوال العلماء والأدباء في تفضيل شعر أبي نواس ومدح شاعريته (كالأصمعي وأبي العتاهية وابن الأعرابي والمبرد) (٢) ، ويتشكك طه حسين في أن تكون تلك الأحكام صادرة عن دراسة حقيقية لشعر الشاعر وانتقاد حقيقي لفنه ، ولكنه - مع ذلك - يرى « أن معاصري أبي نواس كانوا يقدمونه ويدينون له بالزعامة ... كان القدماء يؤثرون أبا نواس على معاصريه ، وكانوا في ذلك محقين ولكنهم لم يقولوا ، ولعلهم لم يعلموا ماذا كانوا يؤثرون أبا نواس » (٣) .

فإذا انتقل إلى الحديث عن مذهبه في ترك الحديث عن الأطلال وحياة البدو رأى « أنه كان يريد أن يتخذ - ويتخذ الناس معه - في الشعر مذهباً جديداً ، وهو التوفيق بين الشعر والحياة الحاضرة بحيث يكون الشعر مرآة صافية تمثل فيها الحياة ، ومعنى ذلك العُدول عن طريقة القدماء ، لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء وما ألفوا من ضروب العيش ، فإذا تغيرت ضروب العيش هذه وجب أن يتغير الشعر الذي يتغنى بها فليس يليق بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذاتها أن يصف الخيام والأطلال أو يتغنى الإبل والنساء وإنما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ، ويتغنى الخمر والقيان ، فإن فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف ، أراد أبو نواس أن يشرع للناس هذا المذهب فجده فيه ووفق التوفيق كله ، واتخذ وصف الخمر وما إليها من اللذات وسيلة إلى مدح طريقته الحديثة وذم طريقة القدماء ... على أن هذا المذهب الجديد ، على حسنه واستقامته وعلى أن أبا نواس موفق فيه ، لم يسلم من أشياء تمكنا من أن نفهم

(١) طه حسين ، المرجع السابق ٢/٢٧ ، ٢٨ .

(٢) طه حسين ، المرجع السابق ٢/٥٧ .

(٣) طه حسين ، نفس المرجع والصفحة .

بُغضَ الناسَ له ونَعِيهم عليه ، فهو ليس مذهباً شعرياً فحسب وإنما هو مذهب سياسيٌ أيضاً ، يذمُّ القديم - لا لأنه قديم - بل لأنه قديم ولأنه عربي ، ومدح الحديث - لا لأنه حديث - بل لأنه حديث وفارسي ، فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوية المشهور... ومن هنا نفهم سُخطَ كثير من العرب وأنصار العربية على هذا المذهب الجديد ، ونفهم أيضاً أن الرشيدي حيس أبانواس لقصيدة هجا بها العرب (١) .

ذلك هو عرض طه حسين لحركة القدماء والمحدثين ولموقف أنصار القديم ،

والمجتمع العباسي كله من حركة أبي نواس .

ويقرر طه إبراهيم في كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) عند حديثه عن (الخطبومة بين القدماء والمحدثين) أن النقد « بلغ أشده واستوى عند متقدمي اللغويين (٥) ، فهم الذين وطدوه واستنبطوا أصوله ومقاييسه ، وشرحوا وعللوا كثيراً من أحواله » ويقرر أن كل ذلك « كان خاصاً بالشعر القديم .. الجاهلي والإسلامي . فلما همَّ المحدثون بالتجديد أو جدلوا في النقد مشاكل لم تكن فيه من قبل ، وكلما أمعنوا في الابتعاد عن روح القديم أمعن النقد في الشخصيات والجدل » ، إذ عندما « أخذ الشعر العربي يتغير في أوائل القرن الثاني أخذ النقد الأدبي من ذلك العهد يتغير ويخوض فيما جاء به المحدثون » (٢) .

ويستعرض المؤلف بعض السمات المميزة للشعر القديم ، وكيف أن الشعراء المحدثين منذ قبيل قيام الدولة العباسية - أي من عهد بشار ومروان بن أبي حفصة -

(١) طه حسين ، المرجع السابق ٩٠/٢ ، ٩١ .

(٥) يُقصدُ بهم متقدمو اللغويين والنحاة الذين شاركوا بصور مختلفة في نقد الشعر ابتداءً من أواخر القرن الأول الهجري . ومنهم : عبدالله بن أبي إسحاق (ت ١١٧) . أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤/٩) . الخليل بن أحمد (ت ١٦٠) . خلف الأحمر (ت ١٨٠) . أبو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) . الفراء (ت ٢٠٧) . أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٧/١١) . الأصمعي (ت ٢١٢) . ابن الأعرابي (ت ٢٣١) محمد بن سلام الجعفي (ت ٢٣٢) وغيرهم .

(٢) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٩١ ، ٩٢ .

حاولوا التجديدَ فاضطرتهم ظروف خاصة إلى لون من التجديد أو الابتكار في حدود الإطار الذي رسمه القدماء (١) ، ويذكر من مظاهر ذلك التجديد - الخاضع لرسم القدماء - محاولة أبي نواس أن يستمد ديباجة شعره من حياته الحاضرة ، من الخمر والندامى ومجالس الشراب ، وكذلك ما فعل غيره من استمداد تلك الديباجة من الحديث عن القصور والرياض والورد والنيلوفر وغيرها من الأزهار ، وهكذا خلق المحدثون من الموالي ديباجة حضرية لاتصل بسبب إلى شبه جزيرة العرب ... ولا تبكى على طلل ، (٢) .

ولم يكن استبدال مقدمة خمرية أو غيرها بالمقدمة الطللية أمراً عظيماً الخطر - على حد تعبيره - فتلك الديباجة لم تنسخ سابقتها ، ولم تستهوى من الشعراء إلا نفراً يسيراً ، على أن لونا آخر من التجديد استهوى غير قليل من الشعراء وطفى على الشعر أولاً ثم على النثر ، ولازم الأدب العربي قروناً طويلاً ، وقد وجد ذلك النوع حين تغير المثل الأعلى للشعر عند المحدثين : لقد رأوا أن أهم شيء في الشعر إنما هو الصياغة وليس المهم إذن شيئاً يقال ، وإنما المهم أن يقال هذا الشيء في بيان جميل . وكيف يتأتى هذا البيان الجميل ؟ بالزخرف في العبارة والتتميق . وجدت إذن مدرسة بيانية جديدة شيخها بشار ومن رجالها ابن هرمة والعتابي ومنصور النمرى وأبو نواس ومسلم بن الوليد . وأصبح للشعر لغة جديدة غير لغة القدماء ، وتغيرت وجهة النظر في البيان ، وأصبح الشعر فناً حقا يسير الشاعر فيه وراء الجمال (٣) .

ويستطرد المؤلف فيذكر ألواناً أخرى من محاولات المحدثين في التجديد مثل ما صنعوا في أعاريض الشعر وأوزانه ، وبعض المظاهر الأخرى كالإسفاف والإغراق والإحالة ، يقول : « هذه الحركة التي قام بها المحدثون كانت بعيدة الأثر في الشعر وفي النقد . فمن ذلك العهد صار الشعر مذهبين متميزين وصار الشعراء طائفتين : طائفة تحتذى القدماء ، ولا تجدد إلا بمقدار ما يتلاءم مع الروح العربية ... وطائفة مالت إلى

(١) طه إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٢) طه إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٣) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ٩٩ - ١٠١ .

التجديد ... صار الشعراء من مذهبيين ، وصار في الأدب العربي شعراً ، بينهما في الصياغة وفي المعاني أحيانا تفاوت غير قليل ، وكان هذا بالضرورة موضع اختلاف بين النقاد : أيهما أحسن ... كانت هناك خصومة عنيفة بين القديم والحديث ، بين المذهبين اللذين توطدا وأصبح لكل منهما أتباع وأشياع » (١) .

« وأخص الناس الذين كانوا يتعصبون للقدماء ، ولا يكادون يقرون بإحسان لمحدث هم النحويون واللغويون .. فأبو عمرو بن العلاء شيخهم وأسنتهم كانت ذهنيته جاهلية ، وتعصبه شديداً للجاهليين ، فلا يرى الشعر إلا لهم ولا يرى من بعدهم شيئاً ، وغالى في ذلك مغالاة صرفته إلى النظر إلى المتقدم بعين الجلالة ، لا لسبب إلا لأنه متقدم ، والنظر إلى المتأخر بعين الاحتقار لا لسبب إلا لأنه متأخر ، وحتى أقام الموازنة على العصر لا على الشعر ... وحتى قال في أشعار كبار الإسلاميين : (لقد كثرت هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته) ومن كان هذا شأنه مع الإسلاميين فأحري به ألا يسلم بفضل لمولد » (٢) . « ومات أبو عمرو قبل أن يتحدد شعر المحدثين وتوضح خصائصه كما هي عند أبي نواس ومسلم ، وظل اللغويون على تجاهلهم له وازدراءهم إياه » ويمثل لهم بابن الأعرابي وبخلف الأحمر ثم يقول : « كان تعصب اللغويين للقدماء للأسباب التي ذكرناها ، كان قائماً على التقدم في العصر مستنداً إلى أسباب لغوية دون أن ينصرف إلى الأسباب الفنية في الشعر وعناصره » (٣) .

وهكذا تستمر نظرة المؤلف إلى موقف اللغويين كما هي حين ينتقل إلى الحديث عن لغويي القرن الثالث وموقفهم من شعر المحدثين ، لقد قرر أن اللغويين في ذلك القرن « هم تلاميذ اللغويين الذين ذكرناهم وأتباعهم والممثلون لآرائهم وأذواقهم في اللغة والأدب والفن » ، وهم أيضاً « حملة العربية والساھرون على تنظيمها وتطهيرها مما يشوبها من فساد » (٤) . وهو يحدد خصائص ذهنيته في نقد الشعر بالآتي :

(١) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٣) طه إبراهيم ، نفس المرجع والموضع .

(٤) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ١١٨ .

١ - أنهم من أنصار القدماء.. يؤثرون الشعر القديم ويعدونه المثل الأعلى للشعر العربي فإن آثروا محدثا على محدث فلا بد أن يكون من يؤثرونه جاريا على مذهب القدماء في جملته كالبحتري.

٢ - ويحبون في الشعر القديم ما كان يحبه القدماء : جودة المعنى وسهولة الألفاظ .

٣ - وقلما يتعرضون لتحليل عناصر شعر المحدثين ...

أما السر في هذا الموقف كما يراه فهو أن اللغويين كانوا « زاهدين في الشعر المحدث مولين وجوههم عنه ، مؤثرين عليه القديم ، واللغويون الآن على ذلك العهد (يعنى القرن الثالث) يخاصمون المحدث ، ولا يستسيغون منه إلا ما شاكل القديم» (١) .

ويقرر أن الذين اهتموا بتحليل عناصر شعر المحدثين هم جماعة الشعراء المحدثين أنفسهم والأدباء، ويمثل لهم بابن المعتز في رسالته عن (محاسن شعر أبي تمام ومساويه) (٢) ، وهم وإن اختلفوا مع اللغويين في طريقة النقد لشعر المحدثين إلا أن المقياس في ذهنين كان واحداً . وهكذا يخلص إلى أن النقد عند اللغويين وعند الأدباء لم يخلص يوماً من آثار القديم ولم يتحرر من كثير من الأصول التي عرفت فيه من قبل (٣) .

وفي سنة ١٩٣٩ كتب أحمد أمين مقالا بعنوان (جنابة الأدب الجاهلي على الأدب العربي) نشر في العدد ١٩ و ٢١ من مجلة الثقافة .

ويرى أن موضوعات الشعر الجاهلي من وقوف على الأطلال وبكاء الدمن والرحلة على الناقة ووصف الرحلة وغيرها من الموضوعات كالفخر والهجاء والغزل ... الخ إنما هي موضوعات حياتهم فكان الأدب الجاهلي صورة لتلك الحياة .

(١) طه ابراهيم ، المرجع السابق ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) أورد المرزباني في (الموشح) جانبا من نقد ابن المعتز لأبي تمام في رسالته تلك عند حديثه عن مأخذ العلماء على أبي تمام ، الموشح ص ٣٠٧ ط جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ١٢٤٣ هـ .

(٣) طه ابراهيم ، المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

كذلك يقرر أن الشعرَ في العصر الأمويَ استمر - غالباً - بنفس صفاته وأُسسه الجاهلية إذ إن كثيراً من شعراء الدولة الأموية « لم تكن حياتهم إلا امتداداً للحياة الجاهلية » كما أن الأثر الذي جاء به الإسلام لم يمتد إلى الشعراء ، « فلا عجب أن يأتي الشعرُ الأمويَ مصبوغاً بالصبغة الجاهلية في الأوزان والقوافي والموضوعات والروح ، إنما العجب أن يأتي الشعرُ العباسيُّ على هذا النمط ، وكثير من الشعراء فرس والحياة حياةً فارسية في أكثر ألوانها ، والحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مخالفة كل مخالفة للحياة الجاهلية والأموية ... لقد كان من مقتضى هذا التغير أن يأتي الشعر العباسيُّ صورةً صادقة لهذه الحياة الجديدة ، ولكن لم يكن شيء من ذلك » (١).

وهو يرى أن السبب في ذلك كله (جناية الأدب الجاهلي) عليهم ، فقد وجد معسكران أحدهما يتعصب للقديم والآخر يدعو للجديد .

وقد تزعم معسكر الدعوة إلى القديم فريق من اللغويين أمثال الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء وابن الأعرابي ، وكان هؤلاء رواة أكثر منهم أدباء ... فغلب عليهم بطبيعة ثقافتهم أن يتعصبوا للقديم وخاصة الشعر الجاهلي .

وأما المعسكر الثاني فكان يدعو إلى استحسان الحسن لقديم كان أو لمحدث ، واستقباح القبيح لقديم كان أو لمحدث ، وكان من هؤلاء أبو نواس .

ولكن هذه الحرب انتهت ، مع الأسف ، بنصرة الدعوة إلى القديم ، والسبب في ذلك أنهم كانوا أكثر اتصالاً بالحكام وأكثر أتباعاً وأتباعاً ، وأنهم صبغوا دعوتهم بصبغة دينية ، فقالوا إن الشعرَ الجاهليُّ هو أحد المصادر في تفسير القرآن الكريم وعليه نعتد في شرح مفرداته وبيان أساليبه ... على كل حال نجحت دعوتهم وأخفتوا صوت مخالفيهم وساد في ذلك العصر تقديس الشعر الجاهلي وكل شيء جاهلي (٢) .

ودليله على ذلك دعوة ابن قتيبة إلى عدم خروج الشعراء عن مذاهب المتقدمين في أجزاء القصيدة ، ويرى أن في دعوته تلك منافاة لصدق العاطفة وصدق الوصف ،

(١) مجلة الثقافة ، العدد ١٩ مايو ١٩٣٩ ، ص ٦ .

(٢) أحمد أمين ، مجلة الثقافة ، العدد السابق ص ٧ .

وإن تكن قد لاقت - مع الأسف - نجاحا كبيرا ، وشلت الألب العربي شللا فظيما
في العصور كلها ، إلى اليوم .

ويتهم أنصار القديم بأنهم هاجموا كل دعوة للتجديد ، فقد اضطروا أبانواس
إلى العدول عن مذهبه الجديد ، واتهموا أبا تمام بالخروج عن عمود الشعر لأنه انحرف
عن المألوف قليلا « بابتكار بعض المعاني والتعمق فيها والتحليق بها في الخيال » . فكان
من « أثر دعوتهم هذه انعدام حركة التجديد في الشعر وعدم ملاءمته لروح العصر
وانحباسه في قوالب تقليدية لا يتعداها » (١) .

ومن هنا يرى أنه لم يحدث أي تجديد في الشعر العربي ، فقد ظلت الخصائص
الشكلية كما هي ، وظلت الموضوعات كما هي إلى حد التوقف عن القول إلا في
الموضوعات التي قال فيها الجاهليون (٢) .

وقد استمر على نفس الرأي في كتابه (النقد الأدبي) ورأى أن من أثر فريق
المحافظين « تخوف كثير من الشعراء أن يخرجوا على التقاليد القديمة فيثيروا سخطهم
ونقدهم » (٣) .

وقد سار محمد مندور في كتابه (النقد المنهجي عند العرب) في نفس
الاتجاه ، وعرض رأيه في موقف النقاد اللغويين والنحاة في القرنين الثاني والثالث -
موقفهم من الشعر الحديث - في الفصل الثالث حين تحدث عن (الخصومة بين القدماء
والحديثين) .

ويقرر مندور أن تلك الخصومة « لم تكن بين مذهب أبي نواس وبين أنصار
التقاليد الشعرية ، ولو أنها كانت كذلك لأخذت اتجاهها غير الذي أخذته ، إنما قامت
بين أنصار أبي تمام وبين خصومه ، كأن هذا الشاعر قد جدّد الشعر العربي تجديدا
حقيقيا ، وكأنه قد خرج على ماعهده الجاهليون والأمويون من شعر ، مع أنه - كما

(١) أحمد أمين ، المرجع السابق ص ٨ .

(٢) أحمد أمين ، المرجع السابق ص ٩ .

(٣) أحمد أمين ، النقد الأدبي ٢ / ٤٤٠ .

قلنا - لم يغير شيئاً في الأصول الفنية للشعر العربي ، ولم يخرج إلا على عموده...
ومعنى العمود عندهم - فيما يبدو - الصياغة (١) .

وحين يتطرق مندور إلى هذا السؤال : لماذا لم تنشأ - في رأيه - خصومة حول
مذهب أبي نواس ؟ يحاول - في سبيل الإجابة - أن يستعرض سير الحركة الشعرية
عند العرب ، ولقد جاء العصر العباسي وأخذ العرب يجدلون في جمع تراثهم
الروحي ، وكان من الطبيعي أن ينصرف أول جهدهم إلى المحافظة على لغتهم من
العُجْمَة التي أخذت تتسرب إليها بعد الفتوحات ، وعلى سلامة تلك اللغة يتوقف
فهمهم لمصادر دينهم... . ولذا حرص علماءهم على تدوين الشعر القديم ، يتخذونه
حُجَّة في تفسير القرآن والحديث ، ولم يكن يشغلهم إذ ذاك جمال ذلك الشعر قدر
ماشغلتهم صلاحيته للاستشهاد . فأتصال الشعر بالدين هو السبب الأكبر في الانتصار
للقديم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل امتد إلى الشعراء أنفسهم ، إذ لم يروا
بدأً - لكي يروى عنهم شعرهم وينتشر - من أن يحاكوا الشعر القديم ، لا في
أسلوبه فحسب ، بل وفي بنائه الفني (٢) .

ويردُّ مندور نفس النصوص التي استشهد بها غيره في الدلالة على تعصب
قدامى النقاد ضد شعر المحدثين (٣) ثم يقول : إن ظروف الحياة كانت قد تغيرت ولم
يعد الشاعر المحدث مستطيعاً أن يعبر عن نفسه مع التقيد بمحاكاة القدماء في مواضيع
القول عندهم ، ومن هنا كانت دعوة أبي نواس إلى إحلال التغمي بالخمر ومتع الحياة
محل وصف الديار والأطلال . إذ لم تعد هناك ديار ، ولا أطلال ، وإنما هناك مظاهر
الترف العباسي التي يجب وصفها ، لأنها هي التي يعيشها الشاعر . وهنا يتعرض مندور
لقضية من أخطر قضايا النقد ، وهي ما إذا كان لابد للشاعر - أو الفنان عموماً - من
المرور بالتجربة مروراً مباشراً لكي يتحقق له شرط الصدق ، ويميل مع الرأي القائل بأن

(١) محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، ص ٦٩ .

(٢) محمد مندور ، المرجع السابق ص ٧٠ .

(٣) محمد مندور ، المرجع السابق ص ٧٤ ، ٧٥ .

الفنان الموهوب « يستطيع أن يخلق في نفسه الجوَّ الشعري الذي يريده ، ومتى خلق هذا الجو استطاع أن ينقل إحساساته إلى أى موضوع ، وهذا مايسمونه بنقل القيم » (١) .

ويتطرق من تقرير هذا المبدأ إلى القول بأن دعوة أبى نواس لم تكن من الناحية الفنية ضرورةً حتمية ، « وبخاصة أنها لم تعد أن تكون محاذاةً للشعر القديم ، والمحاذاة أخطر من التقليد ، وذلك لأننا كنا نفهم أن يدعو إلى نوع جديد من الشعر ، وأما أن يحافظ على الهياكل القديمة للقصيدة مستبدلاً بدياجةً بأخرى وأن يدعو إلى الحديث فى موضوعات لا يستطيع أن تحرك نفوس الجميع فذلك مالا يمكن أن يُعتبر خلقاً لشعر جديد ولو أننا أضفنا إلى ذلك أن دعوته كانت مشوبة بروح الشعورية والغضب من شأن العرب ... وأن معظم الأغراض التى طرقها كان العرب قد سبقوا إليها ، وأن ما لم يسبقوا إليه كان شيئاً تافهاً كالغزل بالمذكر ، كما أنه هو نفسه لم يساير مذهبه إلى النهاية ... نقول : إننا لو أضفنا كل هذا إلى ما سبق أن بسطنا عن حقائق الخلق الفنى لفهمنا أسباب إخفاق المحاولة ، وعدم مسايرة الشعراء له ... ومن ثمَّ عدم قيام خصومة قوية حول هذا المذهب على نحو ما قامت حول مذهب أبى تمام » (٢) .

ولقد انتهى الأمر بالشعراء العرب - كما يقول مندور - إلى أن « حبسوا أنفسهم فى تفاصيل الصور والمعانى ... فضيقوا على أنفسهم حتى لم يعد أمامهم مجالٌ للتجديد غير (التجويد الفنى) وحتى جاء شعرهم أدل على المهارة فى الصياغة منه على أصالة الطبع ، والعمق فى الإنسانية .. وفى هذا ما يفسر نزعة أبى تمام إلى التجديد فى الصياغة واتخاذها من البديع مذهباً بما يجر إليه مذهب كهذا من التكلف والإحالة والإسراف والإغراب فى المعانى المألوفة ، فكان من نتيجة ذلك أن النقاد راحوا يبحثون فى الشعر القديم عن أمثال لما قال أبو تمام ، بعضهم ليغض منه متهماً إياه بالسرقة ، وإما بإفساد التراث ... والبعض الآخر ليُشيد به مدعياً أنه قد بز القدماء فى معانيهم وفى العبارة عن تلك المعانى ، مع تسليم الكل بأنه لم يخرج عن الدائرة التقليدية .

ونظر النقاد فرأوا البحرى يأتى بالشعر السهل دون أن يكدر خاطرهُ فى مخالفة

(١) محمد مندور ، المرجع السابق ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ .

ونظر النقاد فرأوا البحتري يأتي بالشعر السهل دون أن يكدر خاطرَه في مخالفة
عمود الشعر فتعصب له أنصار القديم ، وكان هذا عنصرا قويا في تلك الخصومة
العنيفة (١) .

ويتحدث إبراهيم سلامة في (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) عن النقد
في كتاب (الموازنة) للآمدي عارضا الأسس التي قام عليها جدال أنصار الشعراء
الكبيرين ، وهو يرى أن الهجوم على أبي تمام يدل على أن النقاد قد برّموا بالبديع وثاروا
ضده ، وأنهم برّموا بالمعاني الدقيقة التي يُغرب بها الشاعر ، وأنهم في مقابل ذلك دعوا
إلى شعر الأوائل وطريقتهم وذلك ظاهر عند النقاد الذين يعرضون الأوائل نموذجا ،
وهو يرى أن الدعوة إلى تحديد السرقات والاعتداد بها وعمل المقاييس لها دليل
واعتراف عملي صريح من المحدثين بأن من تقدمهم أمثال تُحتذى ونماذج يُفرغ على
قولها (٢) .

على أنه يتجاوز هذا إلى القول بأن العلماء باللغة والنحو ورواية الأدب ممن
يعتمدون على القديم وقفوا أمام هؤلاء المحدثين رصداً يعدون عليهم أنفاسهم ويميزون
بين الحار منها والبارد فإذا أحسوا بنفس جديد خنقوه في أول تردده مخافة أن تستطيل
به الحياة ، ثم يمثل بما يحكى عن ابن الأعرابي حين خرق شعرا كتبه لعلمه أنه لمحدث ،
وقصة الأصمعي مع إسحاق الموصلي ثم يقول : « مثل هذا الظلم قد وقع فعلا وعانى
منه الشعراء كثيرا ، والذي يهمننا من أمره أن رد الفعل ضد الصنعة وضد الحدائث قد
وقع فعلا وأثر تأثيره بالرجعة إلى السوراء (٣) ، ويذكر في موضع آخر أن الشعراء
المحدثين « لم يقفوا عند حد ما يمليه الزمن وماتمليه المدنية الحديثة التي عاشوا فيها ولم
يعرفها سابقوهم ، وإنما جاروا مضطرين أو متعمدين ، الرواة وعلماء اللغة الذين
يعتزون بالقديم دائما (٤) .

(١) محمد مندور ، المرجع السابق ص ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٢٠٦ .

(٣) إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٤) إبراهيم سلامة ، المرجع السابق ص ٢٠٩ .

و حين يعلن القاضي الجرجاني - فى الوساطة - أن القدماء ليسوا معصومين من الخطأ وإنما هم يخطئون - تماما كالمحدثين - وإن حاول الرواة والنحاة جبر هذه الأخطاء والتماس العلل لها ، وبالتالى فهم لا يصلحون نموذجا فى كل شىء ، بل إن من حق الشاعر الحديث أن يتخير أسلوبه ويطاوع خياله .. يرى إبراهيم سلامة فى تلك الدعوة محاولة من الجرجاني أن يكسر الحواجز التى أقامها الرواة والنحاة المحتاجون إلى الرواية للاستشهاد (١) .

ويلاحظ شكري عياد ، عند تتبعه لنشأة النقد العربى الخالص - كمقدمة لتبيين أثر كتاب الشعر الأرسطى فى ذلك النقد - أن تلك النشأة ، كما يمثلها كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام - كانت شديدة الاتصال بعلوم العربية التى كانت ناشئة إذ ذاك ، وأن هذه الصلة تظهر فى ملاحظات فى النحو واللغة والعروض يعنى ابن سلام بروايتها وتسجيلها . لذلك « لم يكن غريبا أن يقصر هؤلاء النقاد الرواة اللغويون عنايتهم على الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، وألا ينظروا فى شىء من شعر المحدثين الذين نشئوا فى عصر اضطربت فيه اللغة وشاع اللحن حتى على ألسن السراة . وقد عاد حاملو لواء هذا النقد القديم فتسامحوا فى رواية شعر المحدثين ، ولكنهم من جهة أخرى ، أفلحوا فى أن يلزموا الشعر العربى كله أخص خصائص الشعر الجاهلى ، أعنى منهج القصيدة ، وفعلوا ذلك فى شىء من ضيق الأفق ، وحرَج الصدر ، إذا قورنت به محاولة أبى نواس تجديد هذا المنهج بدت لنا لونا من العبث لا يراد به إلا الهُزء بأولئك الجامدين » (٢) ، ويقول فى موضع آخر إن النقد « ألزم المحدثين منهج القصيدة العربية » (٣) ، وإنه كان نقدا جزئيا ذاتيا ، وحين قرر قانونا عاما « كان هذا القانون هو اتباع الأقدمين » (٤) .

و حين يتحدث عن آثار كتاب الشعر الأرسطى فى البلاغة العربية ، يرى أن من

(١) إبراهيم سلامة ، المرجع السابق ص ٢٢٤ .

(٢) شكري عياد ، (كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ، نقل متى بن يونس ، تحقيق مع ترجمة حديثة

و دراسة لتأثيره فى البلاغة العربية) ص ٢٢٩ .

(٣) شكري عياد ، المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٤) شكري عياد ، المرجع السابق ص ٢٣١ .

المسائل التي اتّصلت دراستها عند البلاغيين العرب بترجمة كتاب الشعر وتلخيصاته ، مسألة اللفظ والمعنى ، ويرى أن عناية الأدباء بتلك المسألة قد اشتدت في القرنين الثاني والثالث متأثرة بعاملين هما : « سلطان الشعر القديم الذي فرضه النقاد أنفسهم شيئاً فشيئاً ، فمن منهج القصيدة إلى المعانى إلى التشبيهات نفسها ... والعامل الثانى ... هو ظهور أبى تمام بمذهب جديد فى الشعر يقوم على الصنعة والتدقيق فى المعانى ، فأدى به ذلك فى كثير من الأحيان إلى الخروج على مألوف الشعر فى تشبيهاته واستعاراته ... واتخذ أنصار القديم من سقطاته هذه ذريعة إلى الطعن فى مذهبه والإلحاح فى قيمة اللفظ والسبك » (١) .

ذلك عن إلزام النقاد - من أنصار القديم - للشعر بالسبى فى ركاب القديم ، والمحافظة على صورته ، فإذا عرفنا أن النقاد راحوا يَحْصُونَ سرقات الشعراء ويؤلفون فيها ، أى راحوا يهاجمونهم حين يتبينون أنهم اقتدوا بسابقيهم أو تأثروا بهم فى شعرهم ، أى حين يتبينون فى شعرهم أثراً من آثار التقليد واتباع القديم أدركنا « أن النقد العربى الخالص قد وضع الشعراء والنقاد جميعاً فى (مازق) ؛ فالشاعر المحدث ملزم بأن يجارى القدماء فى أوصافهم وتشبيهاتهم ... فإذا وافق الشاعر المحدث بعد ذلك شاعراً مقدماً فى معنى أو أسلوب ، فهو آخذ وهو مسبوق ، وربما رمى بهذه اللفظة البشعة : لفظه (السرقة) » (٢) .

وفى بحث عن (حركات التجديد فى الشعر العباسى) لعبدالقادر القط ، يتعرض المؤلف لأشهر محاولتين للتجديد فى ذلك العصر ، وهما : دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام .

وفى تعرضه لحقيقة التجديد فى شعر أبى نواس يذكر أن النقاد عدواً للدور الذى قام به خصومة واعية بين الجديد والقديم ... ويقول : إن من يقرأ سخرية أبى نواس من وقوف الشعراء على الأطلال يخيل إليه أن الشعراء إلى عصره كانوا لا يزالون يبدأون قصائدهم بتلك الصور التقليدية المعروفة فى الشعر الجاهلى ، والواقع أن تلك

(١) شكرى عياد ، المرجع السابق ص ٢٤٨ .

(٢) شكرى عياد ، المرجع السابق ص ٢٣٤ .

وجاء أبو تمام فرأى النقاد في شعره شيئا جديدا يخالف مقومات الشعر العربي من قبله ولم يكونوا يناقشونه في ذاته بل كانوا يوازنون بينه وبين شاعر آخر يمثل عندهم القيم الفنية للشعر القديم ، أو عمود الشعر على حد تعبيرهم حينذاك ... لذلك اتخذت الخصومة حول أبي تمام بحق طبيعة المعركة بين القديم والجديد .. على أن شعر البحري هو الآخر لم يكن يمثل تماما مقومات الشعر العربي القديم ، بل كان يمثل كل ما طرأ على الشعر العربي من تطور حتى العصر العباسي ، ولم يكن الخلاف بينه وبين شعر أبي تمام إلا خلافا في الدرجة لا في الكيف ، (١) ، ويؤكد هذا ما أثير حول تلمذته لأبي تمام ، فهو دليل على إحساس الناس بالتشابه بين الشاعرين ... ومعنى ذلك أن شعر البحري لم يكن تقيضا لشعر أبي تمام ، كما يمكن أن يفهم من تلك الخصومة التي دارت حولهما ، وإنما رأى أنصار البحري في شعره شيئا من الاعتدال النسبي في الاتجاه الحديث فتشبهوا به واتخذوه رمزا لعمود الشعر في محاولة يائسة للوقوف أمام التيار الجديد الذي كان قد بلغ أوج تطوره عند أبي تمام ، (٢) .

وقد ساعدت ظروف كثيرة على أن تنتهي محاولة التجديد كما تمثلت عند أبي تمام إلى الإغراق في الصنعة اللفظية وتوليد المعاني والابتعاد عن الحياة والنفس البشرية والطبيعة ، وظلت القصيدة العربية على حالها في بنائها وشكلها (٣) . وكما لم تُسفر حركة أبي نواس عن تجديد جوهري في شكل القصيدة العربية أو بنائها القديم جاء تجديد أبي تمام محدوداً في داخل ذلك الإطار التقليدي (٤) .

وعرض محمد مصطفى هدارة في (مشكلة السرقات في النقد العربي) لموضوع الخصومة بين القدماء والمحدثين ، كأحد الموضوعات المتصلة بمشكلة السرقات ، وأشار إلى انقسام النقاد والأدباء إلى فريقين أحدهما يدافع عن القديم ويتعصب له والآخر يدافع عن الحديث ويتعصب له .

(١) عبد القادر القط ، المرجع السابق ص ٤١٩ .

(٢) عبد القادر القط ، المرجع السابق ص ٤٢٠ .

(٣) عبد القادر القط ، المرجع السابق ص ٤٥٥ .

(٤) عبد القادر القط ، المرجع السابق ص ٤٢٠ .

فلقد جاء الإسلام، وكان لانتشاره في مختلف أقطار الأرض أثر عميق في تغيير أحوال العرب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما كان له أعمق الأثر أيضا في تطور حالتهم الفكرية، «على أن هذا التطور الفكري كان متباطئا في سيره، إذ كان العرب... لا يزالون مرتبطين بأجداد وطنهم وتراث أجدادهم وأهم منافسهم أشعارهم، فظلت تجري على سنتها القديم... اللهم إلا اتساع الموضوعات التي تقتضيها الحياة الجديدة من سياسية واجتماعية ودينية. أما نظام القصيدة وأسلوبها وعمود الشعر فقد ظل أولئك جميعا شيئا مقدسا ينبغي الحفاظ عليه، ولعل ذلك يرجع إلى أن العصر الأموي كان عصر الجمع والتدوين لآثار السلف، فكانت هذه الأشعار هي المثل الأعلى بالنسبة للعرب الذين كانوا ما يزالون يتعصبون لعروبتهم وماضيهم»، ويستشهد بما يروي عن أبي عمرو بن العلاء من قوله إنه لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية لما فضل عليه أحدا، ويقول هدارة «كأن يوما واحدا من أيام الجاهلية يعدل سنوات يحياها المتأخر عنها» (١).

على أن الوضع مالم يثبت أن تغير بزوال ملك الأمويين وقيام العباسيين، فوجد من العوامل ما هيا للشعر العربي تطورا جديدا، كان لا بد أن يساير هذا التطور الاجتماعي والاجتماعي، «على أن كثيرا من أفراد المجتمع لا يعترفون بالواقع فيحاولون التكيف مع بيئتهم الجديدة، بل إنهم يفضلون الانطواء في عالمهم يجترونها ما لديهم من زاد فكري، محاولين إيقاف هؤلاء المتطورين في عداء مسافر وصدام عنيف... وهذا ما حدث تماما في المجتمع العربي في فترة نقلته من القديم إلى الجديد في عهد الدولة العباسية، فقد وجد فريقان يختلفان حول الشعر العربي: فريق يتشبث بالماضي... ويحارب التطور الجديد، ويتمثل هذا الفريق في رواة الشعر وعلمائه، والفريق الآخر ينزع إلى التجديد ليتكيف مع الحياة الجديدة، ويتمثل في بعض الشعراء الذين كانت عندهم الشجاعة الكافية للثورة على القديم والاصطدام بالرواة، وهم الفئة المهيمنة إذ ذاك على أذواق الناس وفهمهم لطبيعة الشعر».

(١) محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد العربي من ٢٠٨، ٢٠٩.

ويدلُّ هُدَّارةٌ على رفض الرواةِ وعلماءِ الشِّعرِ أو لكِّ الشِّعرِ الحديثِ ، بأنهم كانوا الأيروونه ويحاولون الانتقاصَ منه ما أمكن ، ويذكر قصة استحسان ابن الأعرابي لأرجوزة لأبي تمام على أنها لشاعر من هُدَّيل ثم رجوعه في حكمه حين علم أنها لأبي تمام ، وقول ابن الأعرابي أيضاً عن أشعار المحدثين ما معناه إن روعتها تزول بمرور الوقت على عكس أشعار القدماء التي تزداد روعةً بمرور الزمان (١) .

أما عن الأسس التي استند إليها ذلك الرفض للشعر المحدث فيرى أن عمود الشعر ونهج القصيدة هما السبب في تحامل الرواة على المحدثين من الشعراء لخروجهم عليهما ، فإسحق الموصلي لا يعدُّ أبانواس شيئاً لأنه (ليس على طريق الشعراء) وابن الأعرابي يسمي شعراً لأبي تمام فيصيح : (إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل) (٢) ويقول في موضع آخر : « يمكننا أن نحصر عناصر الخصومة الحقيقية بين القدماء والمحدثين في اختلافهم على عمود الشعر ونهج القصيدة ، وفي الإيمان بفكرة استنفاد القدماء للمعاني ، فأغلب ما في الخصومة كان دائراً حول تجديد المحدثين لمعاني القدماء ، وذلك عن طريق وضعها في صورة جديدة ، مادامت المعاني قد استأثرت بها القدماء ولا بد للمحدثين من التوارد عليها » (٣) .

فهو يرى أن قضية اللفظ والمعنى كانت من بين دواعي الخصومة بين القدماء والمحدثين ، فالمحافظون على القديم يتمسكون بالمعنى تمسكهم بعمود الشعر ونهج القصيدة ، والمحدثون يقرون بتناولهم لمعاني الأقدمين ، ولكنهم يأخذون في تحويلها بالصياغة الجديدة ... فيتصرون بذلك للفظ على المعنى ، أو ينتصرون للصورة الشعرية بمعنى آخر (٤) .

ويوجز الباحثُ رأيه في أسس تلك الخصومة فيسجل أنها « كانت قائمة على أساس تأثير الرواة المتحفظين الذين ناصروا القديم للمحافظة على كياناتهم كرواة

(١) هُدَّارة ، المرجع السابق ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) هُدَّارة ، المرجع السابق ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٣) هُدَّارة ، المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٤) هُدَّارة ، المرجع السابق ص ٢١٤ .

للشعر القديم يتكسبون بزوايته ، أما الشعر الحديث فهو ليس عندهم بضاعة مزجاة ، لهذا كانوا يتعصبون عليه ، كما أن هذه الخصومة كانت قائمة على أساس عمود الشعر ونهج القصيدة ، وفيهما يكمن مظهر المحافظة على القديم وعدم الخروج عليه ، وكذلك كانت قائمة على أساس قضية اللفظ والمعنى ، فأنصار القديم يسفهون المحدثين لأن معانيهم مأخوذة من الأقدمين وليس فيها أى جديد ، وكان توسعهم في هذا البحث أساس مشكلة السرقات ، إذ حاول أنصار القديم أن يجعلوا من هذه السرقات إغارات حقيقية لا ينسب الفضل فيها للمتبع ، (١) .

-
- (١) هدارة ، المرجع السابق ص ٢١٥ ، ويجب أن نلاحظ أن القائلين بفكرة تعصب النقد القديم ضد شعر المحدثين وحركات التجديد فيه لا يقتصررون على المجموعة التي عرضنا لها ، والتي ركزنا فيها على أبرز مناطق التعرض للفكرة ، أعنى الكتب التي لمست - مباشرة - موضوع النقد القديم. على أن كثيرين غير هؤلاء قد ذهبوا إلى نفس الرأي ، وإن يكن بتفصيل أقل ، منهم :
- * ترتون A . S , Tritton في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة (شعر) حيث يذكر ان البعض قد اعتقدوا - بحقيقة القدم وحدها - أن شعراء ما قبل الإسلام يعلون جميع الآخرين .
 - * زكى مبارك في " الموازنة بين الشعراء " .
 - * شوقي ضيف في (البلاغة : تطور وتاريخ) و (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) . و (النقد) .

(٢)

تحليل ومناقشة

يتلخّص رأى نكلسن في أن متقدّمى اللغويين والرواة قد حكموا في تقييم الشعر مقياساً زمنياً أساسه أن التقدّم في الزمن دليل على التفوق الشعري بينما يدل التأخر الزمني على الانحطاط وأن الحدّ الفاصل هو ظهور الإسلام، وهو يشير في تعليقاته إلى عبارة صدرت عن أحد اللغويين ممن اشتهروا في النصف الأول من القرن الثاني، وهو أبو عمرو بن العلاء، وهي تلك العبارة التي تدل على إعجابه بالشاعر الأموي الأخطل حين أعلن أنه ما كان ليقدّم أحداً على الأخطل لو كان قد أدرك من الجاهلية يوماً واحداً (١).

وهو يحمل ذلك الموقف الذي تصوّره من جانب أولئك النقاد مسؤولية ما يبدو من عدم مسأيرة الشعر العربي للثورة التي أحدثها الإسلام والأفكار التي جاء بها، حيث كان من المتوقع أن تحدث في القرن الثاني ثورة ماثلة في الفن الشعري، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

وإذا كان يجعل من ابن قتيبة أول ناقد يسوّى بين الحديث والقديم، ويقبل الشعر على أساس ما فيه من ميزات لا على أساس عصره، أو كما صرح في موضع آخر، بأنه هو الذي حث على أن يقيم المحدثون على أساس جمالي وليس على أسس تاريخية أو لغوية (٢)، فإن هذا لا يعني أكثر من أنه يلحق تهمة الرفض للحديث بكل نقاد القرن الثاني والقرن الثالث قبل ابن قتيبة، وهي تهمة لا تستقيم مع ما يروى عن قبول أولئك النقاد لكل ما هو جديد.

ورغم أن نكلسن قد فهم - فيما نعتقد - حقيقة موقف ابن قتيبة، فلم يصفه

Nicholson (R .A .) A Literary History of the Arabs , P . 242 . (١)

Nicholson , Ibid , P . 288 . (٢)

بالرجعية كما فعل البعض ، فإنه يسير في حدود التصور القديم لموقف النحاة واللغويين والرواة قبل ابن قتيبة من الشعر الحديث ، وهو التصور الذي لانرى له أساسا يعتمد عليه.

أما طه حسين فإن حاصل ما ذكره في مسألة القديم والحديث في الأدب العربي هو :

١ - أن ميدان الخصومة كان في الشعر ، وأنها دارت حول اللفظ والمعنى ولم تتجاوزهما.

٢ - أن مقدار التجديد الذي تحقق نتيجة لتلك الخصومة كان ضئيلا بالقياس إلى التطور الواسع المدى الذي شمل الحياة العربية في العصر العباسي .

٣ - وحين يحاول تحليل تلك الظاهرة ، يذكر عددا من الأسباب يرى أن أهمها هو عدم معرفة الأمة العربية لشيء من الآداب الأجنبية ، كما يذكر منها حرص الأمة العربية على سننها القديمة ، ثم ما تتمتع به الآداب العربية القديمة من جاذبية وخلابة . لكن ما يلفت النظر في عناصر تحليله للظاهرة التي أشار إليها - ظاهرة عدم مسابرة التجديد في الأدب للتجديد في الحياة المادية عموما - ما ذكره من تعرض الشعراء الذين كانوا يحاولون التجديد ، لسخط الأئمة والعلماء من رجال الدين واضطهادهم ، لأن أولئك الأئمة كانوا يحكم منزلتهم الدينية واللغوية مضطرين للاحتفاظ بقواعد اللغة والفاظها وأساليبها أيضا .

وواضح أن طه حسين يربط بين ما كانت تلقاه مظاهر التهتك وإعلان الإلحاد والطعن على الدين من مقاومة وبين ما تصوره من مقاومة التجديد ، فهو يرى أن مقاومة العبث بالدين مقاومة للتجديد . ولسنا نرى هذا الرأي ، كما أننا لانرى ضرورة توافر شرط الخروج على الدين في كل من يريد أن يكون مجددا ، وبالتالي لانرى فيما ذكره من ضرب بشار حتى الموت وحبس أبي نواس وما كان سيلقاه من الهلاك على يد المأمون ، لانرى في تلك الوقائع مقاومة لروح الجديد ، وتعصبا للقديم ، فهجاء بشار للمهدى واستهائته بالدين أمور معروفة استحق من أجلها مصيره . وتعريض أبي نواس بالمأمون وهجاؤه له هو الذي كان سيلحقه بنفس مصير بشار ، وبالتالي فلا داعي للربط

بين أمور هي أشد ما تكون تباعداً ، أعني الضرب على أيدي الما جنين ومقاومة التجديد في الشعر .

وهو نفسه قد عدل عن هذا الرأي حين ذكر أن عدداً من أئمة الدين والمحدثين قد رووا عن أبي نواس ، وأن أبا نواس قد روى عن عددٍ منهم ، وأبو نواس - فيما يرى طه حسين وما نوافق عليه - يصور خيراً تصوير الحياة العباسية بلهوها وجدها أيضاً ، وإذا كان ممثلاً للحياة اللاهية ، وزعيم الدعاة إلى الجديد محل ثقة واحترام من المحدثين وعلماء الدين - على ما كان منه في شعره - فلا يجب القول بأن رجال الدين هاجموا الجديد عنده . ونحن نذكر ما يروى عن كثير من رجال الدين الورعين في التنوية بشعر أبي نواس ، خاصة في الغزل والخمر .

ثم هو نفسه يعدل عن هذا القول مرة ثانية ، بل عن رأيه في ضيق مجال التجديد وانحصاره حين يقرر أنه بانقضاء القرن الأول للهجرة ظهر انتصار الجديد وأخذ القديم ينهزم أمامه مما أدى إلى تغير حس العرب وشعورهم وبالتالي تغير لسان الحسن والشعور وهو الأدب نثراً وشعراً .

ومع ذلك تظل الفكرة السابقة مسيطرة عليه - فكرة وجود أشخاص قاوموا الجديد - رددها - كما رأينا - حين ذكر مقاومة الأئمة وعلماء الدين لكل ما هو جديد ، وهو يرددها مرة ثانية حين يقرر وجود من سخطوا على أبي نواس ودعوته إلى تجديد ديباجة القصيدة ونبيذ الأطلال والانصراف إلى القول في الخمر ، فقد رأى أن هناك من سخطوا عليه لأنهم تصوروا في دعوته ازدياداً للعرب ، ويذكر في هذا الصدد أن الرشيد حبس أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب .

ولانظن ذلك كله إلا من أجل الصورة العامة التي غلبت على الدارسين المحدثين من غلبة التعصب للقديم لقدمه ورفض الحديث لحداثته على نقاد ذلك العصر ، مع أن طه حسين نفسه يصرح بأن التطور في اللغة كان واقعا على كل حال . وأن الناس كانوا خاضعين له راضين عنه ، كذلك يصرح بـ « أن أبا نواس كان أشد الناس إلحاحاً في تغيير الأسلوب الشعري وتجديد اللفظ والمعنى ولكنه لم يكن وحده مغير الأسلوب الشعري ولا مجدد اللفظ والمعنى وإنما كان الشعراء المعاصرون له - سواء

منهم أنصاره وخصومه - يغيرون الأسلوب الشعري ويجددون اللفظ والمعنى أيضا ، وكان منهم من يعترف بهذا التغيير ومنهم من ينكر هذا التغيير ويتكلف الفرار منه ، (١) . وهكذا يرى طه حسين أن البيئة من حول الشاعر الثائر كانت معترفةً بالجديد - بقبولها له - وإن لم تعترف به عن طريق الإعلان . ومع ذلك يصبر على القول بأن هناك من هاجموا الجديد ومن قاوموا الدعوة إليه .

فإذا فطن إلى أن كثيرين من علماء اللغة والرواة والأدباء قد أشادوا بأبي نواس واحترفوا له بالتفوق والإحسان ، أي قبلوا الشاعر المحدث ولم يرفضوا تجديده ، نراه يرجع أن أولئك المفضلين لم يعلموا لماذا كانوا يؤثرون أبا نواس !

كذلك يلاحظ أن طه حسين يوسع دائرة الصراع بين القديم والحديث بحيث تشمل - عنده - كل الآراء التي صدرت في المفاضلة بين شاعر وآخر ، فهو يدخل في ذلك الصراع ما ذكره من صراع بين أنصار البحترى وأبي تمام وأنصار مسلم وأبي نواس وما دار من صراع حول المتنبي وأبي تمام . ومن الواجب أن نعلم أن المنافسة بين أولئك الشعراء أو الحوار بين أنصارهم لم ينف عنهم جميعا شعراء محدثون . وليس في الإمكان أن نصيب تعصب الحاتمي في القرن الرابع لأبي تمام ضد المتنبي بأنه كان صراعا بين القديم والحديث ، فمن ناحية كان أبو تمام أقدم زمنا من المتنبي ، ومع ذلك كان تفضيل الحاتمي لأبي تمام قائما على قدرته الابتكارية وتفوقه في الاختراع والإبداع (٢) .

وهكذا لا يغيب التصور القديم لموقف اللغويين والرواة ، ومن يضيفهم إليهم من علماء الدين عن ذهن طه حسين ، على الرغم من توافر كثير من الأدلة والشواهد على عدم دقة هذا التصور ، وعلى الرغم من تنبيهه في مواضع كثيرة إلى احتفاء الرواة واللغويين والعلماء بأبي نواس وأيضا بالرغم من تأكيده - أكثر من مرة - قبول المجتمع

(١) حديث الأربعاء ٢ / ٩٦ .

(٢) يراجع في موقف الحاتمي : حلية المحاضرة ١ / ٢٢١ ، وتراجع : (الرسالة الموضحة) للحاتمي أيضا في انتصار الحاتمي لأبي تمام والبحترى ضد المتنبي ص ١٠٦ وما بعدها ، والصفحات ١٥٦ - ١٩٤ كلها في التنويه بأبي تمام والبحترى أيضا وتفضيلهما على المتنبي .

العباسي كله بما فيه العلماء وطبقات المثقفين، لتكل ما هو جديد. فإننا نراه يصف مجموعة النقاد والأدباء الذين نوهوا بأبي نواس وقدرُوا افنه بأنهم لم يكونوا يعلمون السبب في تفضيلهم للشاعر الشاعر، وهو تفسير غريب يمثل - في رأينا - ذروة الهرب من مواجهة الحقائق، ويثير من الأسئلة أكثر مما يقدم من الحلول.

ويمكن تلخيص رأى طه إبراهيم فيما يأتي :

١- تأكيد دور قدامى النقاد في تدعيم قواعد التقدير إبان مرحلة النشأة والاستواء.

٢- أنهم كانوا يفضلون الشعر القديم - ويشمل الجاهلي والإسلامي - على الشعر الحديث الذي يبدأ منذ عصر بشار تقريبا.

٣- أن ذلك التفضيل للشعر القديم والرفض للشعر الحديث كان أساسه التقدم الزمني في تفضيل القديم، والتأخر الزمني في الغض من الشعر الحديث، وهو يستغل في ذلك بعض عبارات القدماء حين وصف أبا عمرو بن العلاء بأنه كان يقيم الموازنة على أساس العصر لا على الشعر.

٤- يضيف إلى ذلك الأساس أساسا آخر هو استناد ذلك التفضيل إلى أسباب لغوية لا إلى أسباب فنية.

ومن اليسير جدا من واقع عرضنا السابق لرأى المؤلف، أن نقول إنه يحتمل اللغويين مسئولية رفض الشعر المحدث والحض على تيار الأتباعية أو السير على منوال القديم، ماداموا لا يفضلون إلا القديم - في القرن الثاني - ولا يقبلون من الحديث إلا ما كان قريبا في جملته من ذوق القدماء - في القرن الثالث. وهذا استنتاج منطقي، فاللغويون يرفضون الحديث على أساس زمني، ولقد حرم الشعر منذ عصر بشار. هذه الميزة - ميزة التقدم الزمني - فلم يعد في مقدور الشعراء الرجوع بأنفسهم إلى الماضي. كما أن لغويي القرن الثالث لا يقبلون من المحدثين إلا ما كان متمشيا مع الذوق القديم، وعلى هذا الأساس قبل لغوي كالمبرد (ت ٢٨٥) شاعرا مثل البُحترى، وفضله على أبي تمام، فإذا أراد محدث أن يفوز بالقبول فعليه أن يقول على منوال القدماء. ولا شك في النتيجة التي يمكن ترتيبها على ذلك الموقف، وهي تحميلهم

مسئولية ما يقال عن الشعر من شيوع الجري وراء القديم ، وعدم السير في طريق التجديد .

وهكذا يظل كثير من الأسئلة لا يستطيع أن يجيب عنها مثل هذا التصوير للموقف . منها مثلا : -

أ - إذا كان تفضيل اللغويين للشعر القديم قائما على أخص زمني ، فلماذا رفض أولئك اللغويون الاحتجاج بأشعار البعض ممن تمتعوا بصفة التقدم الزمني ؟

ب - إن المؤلف يعتبر دعوة أبي نواس إلى تجديد دياجة القصيدة وإحلال الحديث عن الخمر محل الحديث عن الأطلال يعتبر تلك الدعوة « الثورة الوحيدة على أصول الفن الشعري في كل عصور الأدب العربي » (١) ، ولا شك أن ثورة هذه صفتها كانت تستدعي من اللغويين - أعداء الجديد - موقفا يتسم بالشدّة والصلابة وعنف المقاومة أكثر مما استدعاه أسلوب شاعر مثل أبي تمام ، مادامت درجة الجدة والثورية في دعوة أبي نواس أكبر منها في مذهب أبي تمام ، ومادام تشدد اللغويين ضد الشعر الحديث يتناسب طردياً مع درجة التجديد في هذا الشعر ، ويقول تاريخ النقد العربي إن الحركة النقدية حول أبي تمام كانت أقوى وأعنف بكثير مما دار حول دعوة أبي نواس - إن صح أنها تعرضت لنقد - وأيا كانت الأسباب التي دعت اللغويين إلى مهاجمة الشعر الحديث أو رفضه ، فإن المؤلف لا يقدم لنا تفسيراً لتلك الظاهرة .

ج - يكتفى المؤلف بموقف المتعجب من تفضيل لغوي كالأصمعي للشاعر بشار بن برد على معاصره مروان بن أبي حفصة : تقول الروايات إن الأصمعي كان يفضل بشاراً على مروان ، مع أن الأخير كان أقرب إلى طريق القدماء من بشار ، بل يذكرون من مبررات تفضيل الأصمعي لبشار تجديد بشار وعدم سيره على مذهب الأوائل . وهنا يكتفى صاحب (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) بموقف المتعجب ، فالأصمعي لغوي « وقد يكون ذلك غريباً من لغوي كالأصمعي ، إذا عرفنا أن اللغويين جميعاً كانوا يتعصبون للقدماء على المحدثين ، ولمن هم على طريقة القدماء ،

(١) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١١١ .

وإذا عرفنا أن الأصمعي نفسه من الذين بعُدت بهم العصبية في ذلك ، (١) ، ولو كان الأمر مجرد تفضيل للقديم أو لمن يسير في طريق القديم ، لفضل الأصمعي مروان على بشار ، أما فضل الأخير فلا بد من تفسير ، ولم يعط المؤلف تفسيراً ونحن من جانبنا سنؤرض تفسيرنا لذلك الموقف إلى ما بعد استكمال عرض آراء المحدثين في هذا الموضوع ومناقشتها ، وحسبنا أن نسجل - مؤقتاً - ملاحظتنا من أن التصور القديم لموقف قدامى النقاد من الشعر الحديث لا يعطى تفسيراً ولا يقدم حلاً لكثير من المشاكل على نحو ما رأينا الآن .

ولاشك أن عنوان الدراسة التي قام بها أحمد أمين عن (جنابة الأدب الجاهلي على الأدب العربي) يشير مقدماً إلى رأيه في الموضوع ، وهو يؤكد على هذه النقاط :

- ١ - استمرار الشعر الأموي والشعر العباسي على نفس النمط الجاهلي .
- ٢ - أن السبب في هذا هو إعجاب أنصار القديم بالأدب الجاهلي والتعصب له ومهاجمتهم للشعر الحديث ، وانتهاء النزاع بينهم وبين أنصار الحديث بتغلب أنصار القديم وسيادة النمط الجاهلي في الشعر العربي .
- ٣ - أن أنصار القديم كان يتزعمهم اللغويون أمثال أبي عمرو بن العلاء والأصمعي وابن الأعرابي .
- ٤ - أن من عوامل انتصار الدعاة للقديم سلطانتهم في قصور الحكام وصبغهم دعوتهم بصبغة دينية مستمدة من الاعتماد في تفسير القرآن وشرح مفرداته على الشعر الجاهلي .
- ٥ - كانت دعوة ابن قتيبة إلى عدم الخروج على النهج التقليدي للقصيدة ذروة انتصار القديم ، وقد أدى انتصار تلك الدعوة إلى استمرار الشاعر العربي في القول في نفس الموضوعات القديمة مع المحافظة على الخصائص الشكلية أيضاً .

ولقد ناقش المؤلف موقف ابن قتيبة هذا في الجزء الثاني من كتابه (النقد الأدبي) ورد إليه الفضل الأول في تسخيف الرأي الذي يقدم القديم لقدمه ويرفض الحديث

(١) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ١٠٢ .

لحدثه ، وجعله من مؤيدى نظرية الأحرار ، ووصف دعوته إلى التسوية بين شعر
المحدثين وشعر القدماء - فى القبول - بأنها « نظرة صادقة ربما سبقت زمانها » ثم
وصفه بالرجعية بسبب دعوته إلى عدم الخروج على النهج التقليدى للقصيدة
المدحية (١) .

فهل كان ابن قتيبة - حقا - متحرراً رجعياً ، أو رجعياً متحرراً ؟ وهل يجب
للحكم عليه أن يقتصر على بضعة سطور فى مقدمة واحد من كتبه ؟ وإذا قد عرض
من النصوص ما يدل على رجعية تفكيره ، ثم عرض ما يدل على تحرر التفكير ، فما هى
الوسيلة لتجديد موقفه الفكرى ؟ ولاشك أن هذا هو نفس الموقف - بصورة أخرى -
الذى واجهه طه إبراهيم حين وجد الأصمعى - اللغوى المناصر للقديم فى رأيه -
يفضل بشارا ، الشاعر المحدث المجدد ، ولقد اكتفى طه إبراهيم بتسجيل تعجبه من
موقف الأصمعى ، على حين رجح أحمد أمين صفة على أخرى ، أعنى صفة الرجعية
فى تفكير ابن قتيبة على صفة التحرر ، ومع ذلك فكلاهما يعطى نموذجاً للمشاكل التى
يمكن أن تترتب على ذلك التصور القديم ، وإن كان كل منهما أيضاً لم يحاول البحث
عن تفسير لما وقع بين يديه من تناقض فى ذلك التصور ، ولاشك أن ذلك كله من جراء
سيطرة الفكرة الشائعة عن تعصب قدامى النقاد ضد الشعر الحديث ، مما جعل
الدارسين يتغافلون عما يخالف هذه الفكرة .

ويتلخص رأى مندور فى هذه المسألة فيما يأتى :-

١ - وجود فريق من مقدمى اللغويين النقاد قاوم الشعر الحديث وفضل عليه الشعر
القديم وتعصب له على أساس زمنى ولغوى .

٢ - أن الشعر العربى فى القرنين الثانى والثالث جرت فيه محاولتان للتجديد :
إحدهما دعوة أبى نواس ، والأخرى مذهب أبى تمام ، وقامت الأولى أساساً على
تجديد ديباجة القصيدة ، وقامت الثانية على التجديد فى الصياغة ، وإن أخذت
المحاولة الأولى - هى أيضاً - بنصيب من تجديد الصياغة .

٣ - أن المحاولة الأولى لم تتعرض لهجوم أنصار القديم بينما تعرضت الثانية لذلك الهجوم ودارت حولها الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث .

٤ - أن السبب في عدم قيام خصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث حول دعوة أبي نواس يعود إلى طبيعة الدعوة نفسها ، فلم تكن من العمق والاستناد إلى الأسباب الفنية الحقيقية وإخلاص صاحبها لها واستمراره فيها إلى النهاية ، بالدرجة التي تكفى لإثارة الخصومة حولها من جانب أنصار القديم .

وهكذا يقف قدامى النقاد كما صورهم مندور - شأن غيره من الدارسين المحدثين - في موقف المتهمين برفض الشعر الحديث والتعصب للقديم لأنه عدتهم في الاستشهاد اللغوي ، والاحتجاج لفهم ألفاظ القرآن الكريم ، وتعظيم التهمة الموجهة إليهم حين نضيف إليها ما سجله مندور أيضا من أن قبولهم القديم ورفضهم للجديد قد امتد أثره إلى الشعر ، فكان من نتائجه محاولة الشعراء أن يحاكوا الشعر القديم لا في أسلوبه فحسب ، بل في بنائه الفني . ويؤكد مندور أن أولئك النقاد قد رفضوا الشعر الحديث لجرد حدائته كما أنهم قبلوا القديم لجرد قدمه ، ويسرد عددا من الروايات التي تؤيد وجهة نظره عن أبي عمرو بن العلاء وابن الأعرابي الذي اشتهر بأنه كان يهاجم أبا تمام ، والروايات منقولة عن الصولي الذي اشتهر هو الآخر بالتعصب لأبي تمام مما يجعلها محل شك ، ولكن المؤلف لا يرى داعيا للشك فيها ، لأنها - على حد تعبيره - « تتمشى مع كل ما ورد عن اللغويين من تحزبهم للقديم لقدمه ورفضهم الحديث لحدائته » ، ويقرر مندور أن ذلك التعصب للقديم من جانب اللغويين كأبي عمرو وابن الأعرابي لا يقوم على أسباب فنية من صدق الإحساس أو جودة العبارة وإنما كان لجرد السبق الزمني .

على أنه قد عادَ فوصف الخصومة بين أنصار القديم - ويمثلهم أنصار البحري ، وبين المحدثين - ويمثلهم أنصار أبي تمام - بأنها خصومة على أساس فني ، ونحن نعلم أن كثيرين من خصوم أبي تمام كانوا ممن سُموا بأنصار الذوق القديم ، أو - بعبارة أدق - كانوا من مفضلي الذوق القديم في الصياغة ، وهم من اللغويين الذين يتشبهون إلى مدرسة أبي عمرو بن العلاء (في تفضيل القديم) كابن الأعرابي ، أو من لغويين أحدث عهدا ، ولكنهم جميعا يشتركون في الميل إلى الذوق القديم في الصياغة . وهنا

يمكن أن يثار عدد من الأسئلة :

١ - إذا كان قدماء اللغويين ، ويشملون في تصوير مندور أفرادا عاشوا إلى انقضاء الثلث الأول من القرن الثالث ، كابن الأعرابي ، قد رفضوا الشعر الحديث على أسس غير فنية - كما يقول مندور - فكيف تحولت خصومتهم ، أو خصومة تلاميذهم لشعر أبي تمام - المثل الأعلى للشعر الحديث - إلى خصومة فنية ؟ .

٢ - أن الادعاء بأن قدماء النقاد إنما فضلوا من شعر المحدثين ما اقتصر فقط على مجارة القديم يتنافى مع تفضيل رجل كالأصمعي لشاعر من رواد المحدثين كبشار على شاعر من طراز القدماء مثل مروان على أساس مخالفة الأول لأساليب القدماء .

وهكذا يفتح القول بأن اللغويين قد رفضوا الشعر الحديث مجرد تأخره ، وقبلوا الشعر القديم مجرد قدمه ، الباب لثغرات كثيرة يتسع فيها تناقض الباحث مع نفسه حين يصرح من ناحية بأن تعصب اللغويين القدماء للقديم لم يكن على أسس فنية مستشهدا بكلام لابن الأعرابي بالذات في الطعن على شعر أبي تمام ثم يصرح من ناحية أخرى بأن الخصومة حول شعر أبي تمام كانت ذات طبيعة فنية وأنها احتدمت في القرن الرابع واتخذت شكل النزاع بين أنصار القديم وأنصار الحديث .

ومع علمنا بأن أعظم المؤلفات حول مذهب أبي تمام قد دون في القرن الرابع يجب أن نذكر أن المواد التي اعتمدت عليها - أو الجزء الأكبر منها - كان من صنع القرن الثالث ، وشارك في كثير منه ذلك الفريق من اللغويين الذين وُصفوا برفض الشعر الحديث لأسباب غير فنية (١) .

والواقع أن كلام مندور يبلو في غاية الاضطراب ، فهو يرتب على الخصائص

(١) من المناسب هنا أن نذكر أن المعركة حول أبي تمام تختلف في إطارها الزمني عن تلك التي دارت حول المتنبي من حيث إن المعركة الأخيرة قد نشأت في القرن الرابع - عصر المتنبي - فعلا ، أما تلك التي دارت حول أبي تمام فمع أن الأمدى هو الذي جمع مادتها في القرن الرابع فإن معظم هذه المادة كان موجوداً بالفعل منذ أوائل القرن الثالث .

التي جعلها من سمات دعوة أبي نواس ومذهبه عدم قيام خصومة أو حركة نقدية حوله على نحو الحركة النقدية والخصومة التي قامت حول أبي تمام، ومعنى ذلك أنه يسلم ضمنا بعدد من الخصائص التي أسم بها مذهب أبي تمام استحق بها أن تقوم حوله حركة نقدية وخصومة بين القدماء والمحدثين، وهي خصائص ينبغي لها أن تناقض خصائص مذهب أبي نواس، ما دامت قد أدت إلى نتيجة مخالفة. فإذا كانت دعوة أبي نواس «لم تكن من الناحية الفنية ضرورة حتمية» فهذا يعني أن مذهب أبي تمام كان فيه من الناحية الفنية ما يجعله ضرورة حتمية، وإذا كان أبو نواس «لم يدع إلى نوع جديد من الشعر»، فينبغي أن يكون أبو تمام قد دعا إلى نوع جديد من الشعر. وإذا كان أبو نواس «قد دعا إلى الحديث في موضوعات لا تستطيع أن تحرك نفوس الجميع»، فينبغي أن يكون أبو تمام قد دعا إلى الحديث في موضوعات تستطيع أن تحرك نفوس الجميع، وإذا كان معظم الأغراض التي طرقها أبو نواس قد سبقه العرب إليها، فينبغي أن يكون العرب لم يسبقوا أبا تمام إلى معظم الأغراض التي طرقها. أما عن شعوية أبي نواس فنحن مطمئنون إلى خلو أبي تمام منها، «والشعوية - فيما يرى البعض - كانت سببا للهجوم على أبي نواس»، وهكذا تكتمل العناصر التي لا بد - وفقا للكلام مندور - أنها قد توافرت في مذهب أبي تمام حتى انفراد بقيام الخصومة حوله.

لكنه لا يسوق ما كنا نتوقه، أو ما ينبغي أن نتوقه - وفقا لحديثه عن خصائص مذهب أبي نواس - من سمات أدت إلى قيام الحركة النقدية حول أبي تمام، وأدى انعدامها في مذهب أبي نواس إلى عدم قيام حركة مماثلة حوله.

والغريب أن مندورا يضيف نفس الخاصة التي جعلها عماد مذهب أبي تمام والتي كانت - في رأيه - سبب قيام الخصومة حوله.. خاصة البديع والصيغة الجديدة، يضيفها إلى أبي نواس أيضا، «فأبو نواس.. لم يدع إلى التمسك بالصيغة القديمة كما فعل شنييه في محاولاته لتجديد الشعر الغنائي في فرنسا، حين دعا إلى قول الأفكار الجديدة في صياغة قديمة، بل قصد إلى التجديد في المعنى والتجديد في العبارة على السواء»، وما نحن أولاء نرى ابن المعتز - كما يقول - يرد إليه تنمية الاتجاه نحو مذهب البديع الذي انتهى إلى أبي تمام.

وهكذا لا نستطيع الوقوف على حقيقة كل من المذهبيين ، حين نكتفى بكلام مندور وحين نقارن أقواله في الأماكن المختلفة ، بعضها ببعض ، وتبقى الأسباب التي ساقها تعليلاً لعدم قيام خصومة حول مذهب أبي نواس غير مقنعة بالمرّة بل غير واضحة ، فإذا كان البديع والصياغة الجديدة هما سبب الحركة النقدية حول أبي تمام ، فإن مندورا يقرر أن نفس الشيء كان موجوداً عند أبي نواس - وإن يكن بدرجة أقل - وإذا كان أبو نواس لم يدع إلى نوع جديد من الشعر ، وكان قد سبق إلى معظم الأغراض التي طرقها فإن أبا تمام - وبعبارة مندور - لم يكذب بجدد شيئاً في موضوعات الشعر ، وإذا كان أبو نواس قد حافظ على الهيكل القديم للقصيدة فلقد كان أبو تمام أكثر محافظة . ومع ذلك قامت حركة نقدية وخصومة وهجوم على أحد الرجلين ، وقيل ما أتى به الآخر ، في إعجاب .

وهكذا تمثل دراسة مندور للمشكلة - كما نرى - حلقة من حلقات التصور القديم لموقف متقدمي النقاد من الشعر الحديث وهو التصور الذي يزيد في غموض الموقف وإقامة المشاكل .

ويسائر إبراهيم سلامة نفس الاتجاه في تصور موقف اللغويين ورواة الشعر والنحاة على أنه موقف التفضيل للقديم وهو يرى أن ما سماه (بالدعوة إلى شعر الأوائل) وإلى طريقتهم كان رد فعل ضد الحدائث ، وقد وقع رد الفعل ذلك وأثر تأثيره بالرجعة إلى الموراء .

ومن ثم يرى أن الشعراء كانوا يجارون - مضطرين أو متعمدين - الرواة وعلماء اللغة الذين يعتزون بالقديم ، في السير على أسلوب القدماء بالطبع .

ونحن على يقين من أن هذا التصور للموقف والذي يرى في هجوم أنصار البحتري على أبي تمام رد فعل ضد الحدائث لن يستطيع - على الأقل - وضع تفسير لما جاء على لسان أنصار البحتري من اتهام أبي تمام بالتشبه بالقدماء ومحاولة القول على نمط أهل البادية ، وافتخارهم بأن شاعرهم - البدوي في نشأته - استطاع أن يتحضر ، وأن ينجح في محاولته التحضر .

أما شكري عياد فإنه تعقب موقف الرواة واللغويين من الشعر احدث على

النحو التالي :-

- ١ - لاحظ أن ابن سلام وفريق العلماء الذين روى عنهم أهملوا النظر في الشعر الحديث واقتصروا - كما في طبقات ابن سلام - على رواية الشعر الجاهلي والإسلامي، وأن ذلك السلوك من جانبهم كان مرتبطاً بالمهمة اللغوية والنحوية التي كان يضطلع بها ذلك الفريق .
 - ٢ - ألمح إلى أن إغفالهم للشعر الحديث - أعنى روايته - يعود إلى أنه كان نتاج عصر اضطربت فيه اللغة وشاع اللحن .
 - ٣ - يقرر أن النقاد من أنصار القديم عندما قبلوا رواية الشعر الحديث أزموه منهج القصيدة القديمة وذلك عند ابن قتيبة .
 - ٤ - يقرر - على الأساس السابق - أن القانون الذي أقره النقد العربي الخالص هو ضرورة اتباع القدماء .
 - ٥ - يرى أن « سلطان الشعر القديم » الذي فرضه النقاد كان من العوامل التي أزكت بحث مسألة اللفظ والمعنى .
 - ٦ - أن مسألة اللفظ والمعنى ذاتها أزكاها النزاع حول أبي تمام والبحتري ، حيث كان خروج أبي تمام على بعض ما هو مألوف في الشعر سبباً في هجوم أنصار القديم عليه ، حيث ألحوا في قيمة اللفظ والسبك .
 - ٧ - يقرر وقوع النقد العربي في تناقض خطير أساسه مطالبة الشعراء بالتقليد والابتكار في آن واحد ، وذلك مفهوم من مهاجمتهم لكل ما هو جديد وأيضاً من مهاجمتهم لأدنى صور الأخذ أو « السرقة » التي لم يكن منها مفر أمام إلزامهم الشعراء باتباع القديم .
- ويشير عرض الموقف على هذا النحو عديداً من الأسئلة . ولاشك أنها ملاحظة قيمة تلك التي بدأ بها أستاذنا من الربط بين إهمال النظر في الشعر المحدث من جانب الرواة وعلماء اللغة وبين شيوخ اللحن واضطراب اللغة في ذلك العصر الذي نشأ فيه الشعراء المحدثون .

وإذا كانت العلة في إهمال رواية ذلك الشعر واضحة، وهي عدم صلاحيته للاستشهاد النحوي واللغوي وهو ما يفهم منه أن رفض الشعر الحديث كان مقصوداً على هذا المجال، أي أنه كان مرفوضاً في موطن محدد من موطن الاستخدام، فإننا - بالتالي - لانرى في رواية ابن قتيبة لشعر المحدثين (تسامحاً) كما يقول أستاذنا، فإن صفة التسامح إنما يوصف بها من قبل شيئاً رفضه غيره، وهو نفسه يقرر أن ابن سلام وفريق العلماء الذين روى عنهم إنما ركزوا على رواية الشعر الجاهلي والإسلامي لأنه المادة الصالحة لحاجتهم في الاحتجاج اللغوي والنحوي وهي حاجة لا يصلح للوفاء بها الشعر الحديث، معنى هذا أن رواية ابن قتيبة للشعر الحديث لم تكن رجوعاً عن شيء تمسك به العلماء قبله.... ولم تكن (تسامحاً) فيما كانوا متشددين فيه، وذلك على أساس اعترافنا بأن اقتصارهم على رواية الشعر القديم كان سبباً صلاحية ذلك الشعر - دون غيره - للاستشهاد اللغوي.

كذلك فإن ما يقال عن إلزام الشعراء المحدثين بمنهج القصيدة القديمة - وهو أخص خصائص الشعر الجاهلي - مسألة تحتاج إلى نظر، فهذا الإلزام - إلى جانب انصبابه على قصيدة المدح لاغير، وإلى جانب ما ساقوه من مبررات صناعية في فن يقوم، في تصورهم، على الصناعية والشكليات أصلاً - إلى جانب كل ذلك، فإن هذا الإلزام لا وجود له إلا في عبارة ابن قتيبة التي ساقها في مقدمة (الشعر والشعراء) وباستثناء هذه العبارة - التي لأنحس لها أثراً على الإطلاق في ترجمته للشعراء ووجوه النقد التي أخذها عليهم، خاصة في ترجمته لأبي نواس، زعيم الخروج على منهج القصيدة التقليدي - باستثناء تلك العبارة، لا نجد ما يفيد تمسكهم أو حتى تنبهم لهذا الإلزام.

وهكذا يظل لدينا عدد من النقاط التي تحتاج إلى التوضيح:

١ - التحول في موقف ابن قتيبة (العالم اللغوي المناصر للقديم) إلى رواية الشعر الحديث، بعد أن رفضه سابقوه.

٢ - السبب في توقف ابن قتيبة عن فرض منهج القصيدة التقليدي على الشعراء المحدثين، ولماذا لم يوجه النقد - من هذه الزاوية - إلى أبي نواس وغيره ممن خرجوا على ذلك المنهج.

٣ - مسألة التناقض الذي وقع فيه النقد العربي الخالص ، ونحن نعلم أنهم سجلوا السرقات ورصدوها ، ونرى في هذا الموقف من جانبهم أسلوباً في السعي نحو الابتكار والتجديد حيث لم يرضوا للشاعر أن يكون آخذاً من غيره ، خصوصاً حين قصروا الاتهام بالسرقة على الحالة التي يأخذ فيها الشاعر ما ابتدعه سواه ، أي أن مواطن السرقة عند الشاعر كانت هي مواطن الابتكار عند مصدره . فهل وقع النقد العربي حقاً في تناقض من ذلك النوع ؟ وإذا حدث فما تعليله ؟ إننا لانستطيع المرور على هذه المشكلة دون تعليل .

٤ - هل كان مهاجمو أبي تمام من أنصار القديم حقاً ؟ إننا نقرأ نعيهم على أبي تمام تشبيهاً بالبدو ، ومحاولة الاقتداء بالقدماء ، فهل هاجمه أنصار البحري كمدافعين عن قديم البحري ضد جديد أبي تمام ؟ هناك من يرون أن البحري كان أكثر انفكاً من القديم من أبي تمام . وبالتالي تهتز صورة الحوار بين أنصار الشعراء كما اعتدنا أن نستقبلها ، فليست - فيما يبدو - صورة نزاع بين قدماء ومحدثين ، خاصة أن معيار التقدم والتأخر الزمانيين غير موجود في هذه الحالة .

٥ - أخيراً نجدنا بحاجة إلى معرفة موقف أنصار القديم وبالذات الذين فرضوا منهج القصيدة القديمة ، من أبي نواس صاحب إحدى دعوات التجديد في الشعر العربي خاصة في منهج القصيدة ، فماذا كان موقف النقاد منه ؟

ولا يشير أستاذنا إلى ذلك الموقف - نظر الطبيعة بحسه - ولكننا نتساءل : هل هاجم النقاد أبا نواس ، وهو ما لا يوجد عليه دليل ، أو لم يهاجموه ، ويكون معنى ذلك أنهم قبلوا مذهبه في تجديد دياجة القصيدة ؟ وفي هذه الحالة يصبح السؤال : لماذا لم يهاجموه ماداموا يهاجمون كل جديد ؟

ثم إذا كانوا لم يهاجموه - وهو الذي صرح بالثورة - فلماذا هوجم أبو تمام ؟
و حين هوجم أبو تمام هل صدر الهجوم تحت شعار أنه مجدد ؟ فإن هوجم على أنه مجدد فلماذا لم يهاجم أبو نواس ؟ .

وهكذا ندور وندور فلا نجد فيما قيل عن تعصب أوائل النقاد ضد الشعر المحدث إجابة لكثير من الأسئلة الحيوية .

وأثار عبد القادر القط في بحثه للمسألة عددا من النقاط ، منها :

١ - أن الشعراء في عصر أبي نواس كانوا قد تخلصوا إلى حد كبير من المطالع التقليدية .

٢ - يرى - بناءً على الرأي السابق - أن سخريّة أبي نواس من المطالع التقليدية لا تعبر عن ثورة على القيم الشعرية ، وإنما هي دفاع عن سلوك خلقي لا يرضى عنه كثير من معاصريه .

٣ - أن تجديد أبي نواس - بالتالي - كان تجديداً في إطار محدود .

٤ - أن عدم ثورة أنصار القديم ضده يعود إلى عدم إحساسهم بخروجه عن مقومات الشعر المعروفة .

٥ - أن الخصومة بين الجديد والقديم قد تمثلت - فعلا - في المعركة حول أبي تمام والبحترى .

٦ - أنه على الرغم من ذلك لا يعدُّ البحترى ، من حيث صفة الحدائث ، نقيضاً لأبي تمام ، إذ كان هو الآخر شاعراً حديثاً ، وقد أحس القدماء بالتشابه بين الشعارين .

٧ - أن الفرق بينهما - على هذا الأساس - هو فرق في الدرجة لا في النوع .

٨ - أن تجديد أبي تمام هو الآخر - شأن تجديد أبي نواس - كان داخل إطار محدود وأنه قام على الصنعة اللفظية والتعقيد وتوليد المعانى الذى كان يؤدي إلى غموض العبارة وسوء التأليف .

ويتفق القط - في بعض النواحي - مع طه حسين ، مثل القول بأن تيار التجديد كان عاما ولم يقتصر على أبي نواس . ولكن القط يرتب على هذا إسقاط صفة الدعوة الفنية إلى التجديد عن حركة أبي نواس ووصفها بأنها كانت مجرد دعوة إلى نوع من السلوك الخلقى الذى لم يكن يرضى عنه كثير من معاصريه . ولورحنا نبحت عن

أولئك المعاصرين لأبي نواس والذين لم يرضوا عن سلوكه في معاقرة الخمر والإخلاد إلى حياة اللهو ، لما وجدنا لهم أثرا تقريرا ابتداء من الخليفة إلى أكثر رجال الدين تزمتا إلى رجل الشارع ، وما يروى عن عقاب الخلفاء لأبي نواس على وصف الخمر أو شربها ليس إلا ضربا من الرغبة في الظهور أمام الرعية بمظهر الحزم والوقار . وإذا لم يوجد من يعارض أبا نواس في سلوكه ، أى إذا انعدم الدافع إلى إعلان أبي نواس لمذهبه في الخمر ودفاعه عنه كَلَوْنٍ من السلوك ، في هذه الحالة يتنفي ما وصف به القط دعوة أبي نواس من أنها كانت دعوة إلى لون من السلوك الخلقى ، ولم يبق إلا أن نلبسها ثوبا فنيا .

ومن ناحية أخرى لا نوافق على القول بأن السبب في عدم مهاجمة أنصار القديم لدعوة أبي نواس أنها لم تحو تجديدا حقيقيا ، وهو رأى زده مندور من قبل ، فمن الثابت أن النقاد القدامى أحسوا بأن أبا نواس قد ابتدع شيئا - أو دعا إلى شيء - ولكنهم لم يستنكروه .

وتشير محاولة تبين حقيقة ما أتى به أبو تمام - وهو ما كان عرضة للهجوم - مشكلة أخرى ، فلقد ذهب عبد القادر القط في بعض المواضع إلى أن الخلاف بين أبي تمام ومن سبقوه من الشعراء لا ينحصر في توسعه في البديع ، بقدر ما كان خلافا في كيفية الاستخدام لألوان البديع ، ولقد وصف مذهب أبي تمام - أو أسلوبه - في موضع آخر بأنه (كيفية جديدة في النظم) .

وكل ذلك يدل على أن الخلاف بين أسلوب أبي تمام وغيره من الأساليب خلاف في الكيف لا في الدرجة فحسب . لكن القط في سبيل التليل على حداثة البحترى ، راح يجمع كل ما يؤيد التشابه بين الشعارين ، كتلمذة البحترى على أبي تمام وأخذ منه ... الخ ، ثم قرر - مخالفا لما قرره في مواضع أخرى - أن الاختلاف بين الشعارين كان في الدرجة لا في الكيف . والواقع أنه لو كان كذلك لما كان يمكن أن يؤدي إلى خصومة على نحو ما حدث ، خاصة أن أنصار الشعارين حذفوا - كما سنرى - مسألة استخدام البديع - حتى مع الإسراف فيه - من دواعي الخصومة ، وأيضا حذفوا مسألة التجديد ، وإنما أخذوا على أبي تمام سوء الاستخدام للغة ، وهو وإن كان نتيجة للإفراط في البديع فإن هناك من أفرطوا في البديع دون أن يسيئوا إلى

اللغة إساعة أبي تمام ، وبالتالي لم يتعرضوا للهجوم .

ثم إن ما يقوله من أن البحترى كان معتدلاً نسبياً في الاتجاه الحديث على عكس أبي تمام الذي كان مندفعاً في ذلك الاتجاه ، هذا الكلام غير واضح ، فهل المقصود بالاتجاه الحديث تيارُ البديع ؟ إن كان ذلك هو المقصود فإن البحترى فعلاً كان معتدلاً في استخدامه ، لكننا نعلم أن مجرد الاندفاع في استخدام البديع لم يكن ليسبب ثورة ضد أبي تمام . ، وإن كان المقصود بالاتجاه الحديث المعنى الواسع للحدائثة الذي يرمى إلى تعبير الشاعر عن روح عصره ، أعنى الحدائثة التي تظهر في روح الشعر كله لا من هذه الكلمة أو تلك ، إذا كان هذا هو المقصود فقد كان البحترى - في هذه الناحية - أقرب إلى الحدائثة من أبي تمام . وبالتالي تظل أسباب الخصومة حول أبي تمام غير معروفة إذا اعتمدنا على تصوير القط لها .

ويبقى بعد ذلك كله السبب الذي من أجله لم يُهاجم أبو نواس ، والسبب الذي من أجله هُوجِم أبو تمام ، إذا كان تجديد كل منهما تجديداً بسيطاً محصوراً بإطار محدود ، وكذلك السبب الذي من أجله لم يُهاجم البحترى - وهو الشاعر المحدث الذي لم يكن أقل حدائثة من أبي تمام .

ولا شك أن محمد مصطفى هدارة في كتابه (مشكلة السرقات في النقد العربي) مقتنع تمام الاقتناع برفض اللغويين والرواة في القرنين الثاني والثالث - وهم يمثلون نقاد تلك الفترة ، أو على الأقل فريقاً منهم - للشعر الحديث ، وهجومهم على أصحابه وعلى الأخص من يحاول منهم الإخلال بالنظام القديم للقصيدة العربية ، والواقع أنه في مثل هذه النقطة تكمن الخطورة ، وذلك حين يقرر المؤلف أن رفض اللغويين للشعر الحديث كان مبنياً على أساس فني مثل عمود الشعر ومثل قضية اللفظ والمعنى ، ومع أننا لا نؤيد رأى المؤلف فيما ذهب إليه من رفض أولئك النقاد للشعر الحديث عامة ، فإننا نسجل أن كلامه يبدو منطقياً بالنسبة لكلام مندور الذي جعل رفض الرواة واللغويين للشعر الحديث مجرد تعصب لا يقوم على أساس فني ، ثم رتب على ذلك الرفض نتيجة ذات طابع فني هي محاولة الشعراء إرضاء تلك الطائفة من النقاد بالجرى في ركاب الشعر القديم في أسلوبه وبنائه الفني .

و حين نأتى إلى مناقشة المؤلف فيما ذهب إليه من وجود « فريق يتشبهت بالماضى بكل ماله من قوة ويحارب التطور الجديد ، ويمثل . . . فى رواة الشعر وعلمائه » يجب أن نتساءل : هل وجد ذلك الفريق حقا ؟ وإذا كان الميدان الطبيعى للتطور هو الشعر الحديث فهل وجد من رفض الشعر الحديث على أسس فنية بحتة ؟ وإذا وجد من يفضل أسلوبا على أسلوب آخر كأسلوب أبى تمام فهل كان التفضيل والرفض على أساس زمنى ؟

تدل جميع الشواهد على أن مثل ذلك الفريق لم يوجد .

ونعود إلى موضوعنا محاولين أن نناقش الأسس التى أقام عليها هدارة رفض الرواة والعلماء للشعر الحديث ، وتشبههم بالقديم ودفاعهم عنه ، فنجده يعدد أسسا ثلاثة :

الأول : هو موقف الرواة الذين كان يعينهم التكسب بحفظ الشعر القديم ، ولا شك أن الشعر الحديث لا يدخل فى نطاق عملهم ، إذ إن مكاتبتهم تقوم على حفظ ما لا يتيسر للجميع معرفته ، فهؤلاء كانوا من أنصار القديم والظعن على الحديث .

الثانى : هو خروج المحدثين على عمود الشعر ونهج القصيدة ، وقد كان ذلك الخروج سببا فى الهجوم على الشعر الحديث ، خاصة ما اتضح فيه بشدة الخروج على ذلك العمود وذلك النهج ، ووفقا لهذا الأساس علل هدارة ما ظنه من وجود ثورة ضده أبى نواس بسبب دعوته إلى تغيير مقدمة القصيدة كما علل أيضا الخصومة ضد أبى تمام (١) .

الثالث : قضية اللفظ والمعنى ، ويذهب المؤلف إلى أن أنصار القديم كانوا يتشبهون بتفوق القدماء فى المعانى ، وسبقهم إليها إلى حد القول - أحيانا - بأنهم قد استنفدوها وأنه ليس أمام المحدثين سوى أتباعهم فيها ، ولا فضل لهم فى هذا الاتباع .

على أن هناك أساسا خطيرا أشار إليه المؤلف أيضا عند حديثه عن البدايات الأولى لتطور الشعر العربى فى العصر الأموى ، حين علل ببطء ذلك التطور قائلا :

« لعل ذلك يرجع إلى أن العصر الأموي كان عصر الجمع والتدوين لآثار السلف ، فكانت هذه الأشعار هي المثل الأعلى بالنسبة للعرب الذين كانوا ما يزالون يتعصبون لعروبيتهم وماضيهم » (١) ، وهو في هذا يلتقى مع أحمد أمين في تصويره لما اعتقده من (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) وكذلك مع طه حسين حين قرر أن من أسباب عدم مسايرة التطور في ميدان الأدب للتطور في الحياة المادية في العصر الأموي ، ما تمتع به الآداب العربية القديمة من خلافة ، ثم حرص الأمة العربية على سننها القديمة وتراثها الموروث .

ربما كان من بين أسباب الجمع لتلك الأشعار إحساس بقيمتها الفنية ، ومع ذلك فمن الثابت أن الجمع استهدف الأشعار التي تصلح شواهداً وأمثلة على صحة ألفاظ القرآن والحديث وهنا ينبغي التفرقة بين هدفين لجمع الشعر :

الأول : هدف لغوي جمعت له الأشعار القديمة لأنها تصلح لذلك الهدف ،

والثاني : هدف فني لا يجمع له من الشعر إلا ما توافرت فيه صفات فنية معينة ، ويبدو أنهم في سبيل تحقيق الهدف اللغوي لم يهتموا كثيراً بالجمال الفني في الشعر الذي جمعوه . ونحن إنما نؤكد هذه النقطة لكي ننفي عن حركة الجمع للشعر القديم أية صفة من صفات التعصب ضد الشعر الحديث كفن لذاته وبالتالي نبزوها من مسئولية ما يبدو في الشعر العربي وكأنه نتيجة لدعوة محافظة من جانب النقاد .

ومن الملاحظ أن هذه الأسس تنقصها الدقة في كثير من الأحيان ، وأن بعضها تنقصه صفة الأطراد بينما البعض الآخر يتسم بالتعميم الذي لا يراعي الفروق الدقيقة بين نظرة اللغويين والرواة إلى الشعر القديم كمادة للاستشهاد الذي لا يصلح له سواه ، ونظرتهم إليه كأثار فنية قد تصل إلى درجة الامتياز ، أو تقع دونها أو قد يتفوق عليها من الآثار ما هو أحدث منها عهداً . ثم إن الرواة أنفسهم سرعان ما دونوا الشعر الحديث ورووه أيضاً ، هذا فضلاً عن أننا لا نجد - كما قلت - الروايات الكافية التي تؤكد وجود هذا العامل .

(١) مشكلة السرقات في النقد العربي ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

أما عن خروج المحدثين على عمود الشعر ونهج القصيدة وأن ذلك الخروج كان سببا في تحامل النقاد واللغويين ضد المحدثين ، فإن هذا القول يثير عددا من التساؤلات حين نذكر أن أحدا لم يتفوه بكلمة واحدة في تسفيه دعوة أبي نواس إلى الخروج على نهج القصيدة ، ولقد شاركه مسلم بن الوليد في ذلك الخروج ، كما شاركه شعراء آخرون سابقون عليه - وإن كانت مشاركة في التطبيق لا في الإعلان - ومع ذلك لم يتعرضوا لأي لون من الهجوم بسبب هذا الخروج على النهج التقليدي للقصيدة العربية

من هنا يمكننا أن نقرر عدم وجود ثورة ضد أبي نواس وهي ثورة قال هدارة بوجودها بناء على ما ظنّه من خروج أبي نواس على عمود الشعر ، وعلى ما ظنّه أيضا من وجود من هاجموا الخروج على الديباجة التقليدية للقصيدة . وسوف نناقش حقيقة دعوة أبي نواس ، ومدى خروجه على نمط الشعر التقليدي ، وحقيقة موقف النقاد وعلماء الشعر منه والفرق بين دعوته وبين مذهب أبي تمام الذي كان خروجه على عمود الشعر فعلا سببا للجدل حوله ، وحسبنا أن نقرر أن سيطرة التصور القديم على تفكير الباحث دفعه إلى تعميم القول بوجود الهجوم من جانب علماء الشعر ضد كل ما هو حديث دون أن يراعي الفروق الجوهرية بين أشهر محاولتين من محاولات التجديد في الشعر العربي ، وهما دعوة أبي نواس ومذهب أبي تمام ، إلى الحد الذي يفهم منه أن كلاً من المحاولتين صورة من الأخرى وأن أسباب الهجوم عليهما واحدة .

أما الأساس الثالث من أسس تعصب علماء الشعر للقديم ، فهو قضية اللفظ والمعنى وأن أنصار القديم كانوا يسنهون المحدثين لأن معانيهم مأخوذة من الأقدمين ، وليس فيها أي جديد ، بينما راح أنصار الحديث يتصرون للفظ على المعنى ويقرون بتناول معاني القدماء وتحويرها بالصياغة الجديدة ، وكباحث في مشكلة السرقات يريد الربط بينها وبين موضوعات أخرى في النقد والأدب . . . يحاول أن يربط بين بحث قضية اللفظ والمعنى وبين مشكلة السرقات ويرى أن توسع النقاد في دراسة قضية اللفظ والمعنى كان أساس تلك المشكلة (١) .

والواقع أن قضية السرقات لا تعدو أن تكون صورة من بحث الملكية الأدبية أو الأصالة (١)، وهي قد تتصل بقضية اللفظ والمعنى، لكن مما لا شك فيه أن الخلاف لم يكن على النحو الذي صورته هدارة، أعني قوله بتعصب أنصار القديم للمعنى وتعصب أنصار الحديث للفظ، ولو أن الأمر كان على نحو ما يصور، لأصبحت الجهة منفكة كما يقول طه إبراهيم - مستخدما اصطلاح المناطقة - أعني لم يكن ليوجد النزاع بينهما، ذلك أن سبق القدماء إلى كثير من المعاني لم يكن محل اعتراض من أنصار الحديث وبالمثل لم تكن قدرة المحدثين على اختراع المعاني محل إنكار ممن سموا بأنصار القديم، بل إن من سموا بأنصار القديم - كما يمثلهم أنصار البحتری - يقرون بتناول البحتری (الشاعر التقليدي) لمعاني أبي تمام دون أن يجدوا في ذلك غضاضة، باختصار لم تكن مسألة المعاني هي نقطة النزاع بل كان الأسلوب الجديد الذي لا يخلو من التواء وتقرع عند أبي تمام هو محل الهجوم من جانب كثير من النقاد.

ونحن نؤكد هذه النقطة لأن القول الشائع بأن أنصار القديم كانوا يفضلون المعنى ويتهمون المحدثين بأنهم عالة على معاني القدماء التي تكاد أن تكون قد استنفدت وأن المحدثين كانوا يناصرون اللفظ، مثل هذا القول الشائع كثيرا ما يترتب عليه اتهام من سموا بأنصار القديم بمسئوليتهم عن كثير من مظاهر المحافظة والتقليد - أو ما يبدو أنه كذلك - في الشعر العربي، فيقال مثلا: إن قولهم باستنفاد القدماء للمعاني مسئول عن ترديد المحدثين لهذه المعاني دون أن يحاولوا الابتكار، ما دام قد أشيع أن المعاني قد استنفدت ولم يعد أمل في اكتشاف المزيد منها، إلى غير هذه من التهم.

وهكذا، ووفقا لتصوير هدارة لموقف قلبي اللغويين والرواة من الشعر المحدث ومن حركات التجديد في الشعر العربي، يظل هناك كثير من الأسئلة بلا إجابة، ذلك أن ما أورده من الأدلة على وجود هجوم ضد أبي نواس ليس كافيا، بل من المؤكد أنه لم تقم ضده ولا حوله خصومة أو نزاع كما حدث حول أبي تمام. وإذا صح ذلك

أصبح عليه أن يبين السببَ في عدم الهجوم على أبي نواس في الوقت الذي اشتعلت فيه الخصومة حول أبي تمام، ثم ما الفرقُ بين هاتين الحركتين في التجديد، حين نرى إحداهما تُهاجمُ بينما الأخرى تحظى بالقبول؟ .

وإذا كان أبو تمام قد تعرض للهجوم، فهل كان مهاجموه من أنصار القديم حقاً وبالتالي يكون هدف الهجوم عليه هو ما أتى به من جديد؟

ثم - وهذا عودٌ إلى الوراثة قليلاً - ما الدليل على تعصب الرواة والعلماء الأوائل على الشعر المحدث؟ كلماتُ لأبي عمرو بن العلاء أو كلماتُ لابن الأعرابي أو إسحاق الموصلي؟ هناك روايات تفوق من حيث العدد والقيمة أضعافاً ما أورده الباحثون المحدثون تدل على احتفال أولئك القوم بالشعر المحدث وبالتالي لا تصبح للنصوص التي أوردها في التدليل على تعصبهم قيمةٌ كبيرة لأن هناك نصوصاً تنقضها، وذلك من شأنه أن يجعل تلك النصوص التي اعتمدوا عليها، وكذلك الآراء التي بنوها على أساسها مدعاةً لكثير من المشاكل .

Handwritten text at the top of the page, possibly a header or introductory paragraph.

Second line of handwritten text.

Third line of handwritten text.

Fourth line of handwritten text.

Fifth line of handwritten text.

الباب الثاني
بين مشكلات التصور وصورة الواقع

(١)

مشاكل يفرضها القول بتعصب النقد العربي ضد شعر المحدثين

مقدمة :

سبق أن أشرتُ إلى عدد من المشاكل التي يُثيرها القولُ بتعصب قدامى النقادِ ضدَّ شعر المحدثين في العصر العباسي ، وضدَّ أيِّ محاولة للتجديد فيه ، وذلك في أثناء التمهيد للبحثِ وخلالَ عرضي لتناولِ الدارسين المحدثين لهذا الموضوع ، ولكنَّ المشاكلَ التي ذكرتها كانت - غالباً - مشاكلَ خاصةً بكلِّ دارسٍ على حدة ، مشاكلٌ نتجت عن تصوُّره ، وعن طبيعة بحثه للمشكلة : على سبيل المثال تناقُضُ طه حسين في قوله بمعارضة رجال الدين والعلماء لكل ما هو جديدٌ ثم قوله بعد ذلك : إنهم كانوا من أشدَّ الناس إعجاباً بأبي نواس - رأس الجديد - وتنويهاً به وثناءً عليه ؛ أو قول مندور إن أنصارَ القديم هاجموا خروجَ أبي تمام على عمود الشعر الذي كان يعنى الصياغة ، ثم قوله إنهم لم يهاجموا أبا نواس ، مع اعترافه بأن ذلك الشاعر قد جدَّد ، هو الآخر في الصياغة .

كما كان من المشاكل التي أُشيرَ إليها ما يقوم على اختلاف هؤلاء الباحثين بعضهم مع بعضهم الآخر في أمور معينة ، كالاختلاف في موقف النقاد من دعوة أبي نواس ، وفي قيمة تلك الدعوة .

على أن مثلَ هذه المشاكل تُعدُّ مشاكلَ جزئية ، مصدرها الوقوفُ عند جوانبٍ معينةٍ من الصورة دون بقية الجوانب ، أو وقوفُ كلِّ باحثٍ عند جانبٍ معينٍ منها بحيث يرى غيرَ ما يراه الآخر ، لكنها جميعاً تُعدُّ - كما قلت - مشاكلَ جزئيةً إذا قيسَت بالمشاكل التي نحاولُ الآن عرضها ، والتي نرى فيها مشاكلَ عامَّةً ، لا يستطيع القولُ بفكرة التعصب - في جملته وتفصيله - أن يقدم الحلَّ المقنعةً

لها، وهذا هو الفرق بينها وبين ما سبق عرضه من المشاكل ، وهذا هو السبب فيما نراه من حاجة المسألة برمتها إلى النظر من جديد .

المشكلة الأولى :

وتنحصر فيما يروى عن أولئك النقاد (المتعصبين) من نصوص يُشيدون فيها بالشعراء المحدثين ويفضّلونهم على القدماء أحيانا كثيرة ، وأساسُ المشكلة أننا نصبح أمام نصوص متضاربة إذ يكون لدينا - كما فهم الدارسون المحدثون - نصوص يفضّ فيها أولئك النقاد من الشعر الحديث والشعراء المحدثين ، وكذلك نصوص أخرى تناقض - بالطبع - ما تحمله النصوص الأولى من أحكام .

لقد حفظ الدارسون المحدثون قول الأصمعي إن استاذَه أبا عمرو بن العلاء لم يكن يحتجُّ بشعر الإسلاميين ، وأنه سماهم (مُحدثين) أو (مولدين) وأعلن أنه لهذا السبب - أى لتأخر زمنهم - لا يروى شعرهم ، وكذلك حفظوا قصة رجوع الأصمعي عن استحسانه لبيتين من شعر إسحاق الموصلي بعد علم الأصمعي بأنهما لإسحاق ، وقصة تمزيق ابن الأعرابي لإحدى أراجيز أبي تمام حين علم أنها له ، بعد أن كان قد أمر بكتابتها على أنها لشاعر قديم ، ... إلى آخر هذه الأخبار المُبتسرة حيناً والمشوشة حيناً والمعدولة عن وجوهها أحيانا .

غير أننا نجد في مقابل هذه الأخبار نصوصاً كثيرة تنقضها ، وتدلّ على أن موقف أولئك النقاد لم يكن - في حقيقته - موقف التعصب والرفض لكل ما هو جديد ، ويصدق هذا القول بالنسبة للنقاد العرب جميعا ، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لأكثرهم تعرضا لتهمة التعصب ، وأعنى أبا عمرو بن العلاء والأصمعي وابن الأعرابي وإسحاق الموصلي (١) .

(١) يراجع في تفضيل أبي عمرو للإسلاميين وتنويهه بهم : الشعر والشعراء / ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٥٢٦ ، الأغاني / ٣١٠ ، ٣١٢ ، الموشح / ٦٤ ، ١٧١ ، الحلية / ١٤ ، العمدة / ١٨١ ، ٢٤٨ ، وفي تنويهه ببشار - كشاعر حديث - الأغاني / ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، وحلية المحاضرة / ٩٣ ، ٩٤ ، العمدة / ٢١٨ .

وفي إعجاب الأصمعي بالإسلاميين ، وانتصاره لهم إذا أصابوا على الجاهليين : الشعر والشعراء / ٥٧٢ ، حلية المحاضرة / ٥٧ ، ٥٨ ، العمدة / ٤٦ ، نضرة الإغريض / ١٥٦ ، ١٥٧ . أما تنويهه بالمحدثين من مخضرمي النواتين ومن العباسيين ، فيراجع فيه : الشعر =

وهنا يصبح القولُ بفكرة التعصب مثيراً للمشاكل وليس عاملاً علي حلّها ، والأمر لا يقف عند حدّ الكلام النظري وإنما يتعداه إلى المواجهة الفعلية مع المشكلة في كتابات الدارسين المحدثين .. يقول طه إبراهيم :

« كانت هناك خصومةٌ عنيفة بين القديم والحديث ، بين المذهبين الشرعيين اللذين توطنوا وتحدّدا ، وأصبح لكل منهما أتباع وأشياع .. ومن الأمثلة في هذا الصدد اختلافُ النقاد في بشار ومروان ، فكلاهما من مخضرمي الدولتين ، من طبقة واحدة ، ولكنهما متفاوتان في المذهب ، فمروان محافظٌ على القديم وبشارٌ حضريٌ مجددٌ ، صاحبُ بديع ، فأيهما أشعر ... ؟ كان الأصمعي يقدمُ بشاراً على مروان ، وقد يكون ذلك خريباً من لغوي كأصمعي إذا عرفنا أن اللغويين جميعاً كانوا يتعصبون للقدماء على المحدثين ولمن هم على طريقة القدماء ، وإذا عرفنا أن الأصمعي نفسه من الذين بعدت بهم العصبية في ذلك ، ومهما يكن من شيء ، فقد كان الأصمعي يقدمُ بشاراً ، ويذكر من بواعث هذا التقديم تجديده ، وأنه لم يذلل لمذهب الأوائل ، وأنه واسع البديع ، (١) .

وهكذا يكتفى طه إبراهيم بالتعجب من تفضيل الأصمعي (اللغوي المتعصب) لبشار - أحد رواد الجديد - على مروان - أحد المتمسكين بالأسلوب القديم .

وفي هذا التعجب نفسه تكمن المشكلة التي تمثل في التناقض بين ما أشيع عن ذلك الفريق من النقاد من معاداتهم للشعر المحدث ولحركات التجديد فيه ، وبين نصوص من النوع

= والشعراء ٧٢٩/٢ ، طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٠ ، ٢١٥ - ٢١٧ ، الأغاني ١٤٧/٣ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ٢١٤ ، ١١/٤ ، ٤٠ ، ٣٧٣ ، ٢٦٣/٥ ، ٢٧٧ ، ٢٥٦ ، ٣٥٥/٨ .

وفي موقف ابن الأعرابي من المحدثين يراجع : أخبار أبي نواس لأبي هفان المهزومي ص ١٤١ (ملحق) ، الأغاني ١٤/٤ ، ١٥ ، ٣٩٦ ، ٢٧٤/٥ ، ٣٣٢ ، ٣٦٢/٨ ، ٨٩/١٠ ، حلية المحاضرة

١ / ٦٤ ، ١٩٢ ، العمدة ٢٣٢/١ ، ١٤٠/٢ ، أخبار أبي نواس لابن منظور ١٥٨/١ . ويراجع في موقف إسحاق الموصلي من المحدثين : الأغاني ٥٦/٣ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ .

(١) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ١٠٣ والخبر المشار إليه في تفضيل الأصمعي لبشار في الموشح ص ٢٥١ .

الذي وقف أمامه طه إبراهيم ، وكذلك بين ما أشيع عنهم من الخوض على أتباع القديم ، وبين ما نعرفه من مهاجمتهم لأدنى صور هذا الأتباع ، وهذا ما دفع باحثنا جليلا إلى القول بأن :

« النقد العربي الخالص قد وضع الشعراء والنقاد جميعا في مأزق ، فالشاعر المحدث ملزم بأن يجارى القدماء في أوصافهم وتشبيهاتهم ، لا يستحسن إلا ما استحسنا ، ولا يذم إلا ما ذموا ، ولا يشبه إلا على طريقتهم ولا يستعير إلا على أساليبهم ، فإن وافق الشاعر المحدث بعد ذلك شاعرا مقدما في معنى أو أسلوب ، فهو آخذ وهو مسبوق ، وربما رمى بهذه اللفظة البشعة ، لفظة (السرقة) » (١) .

تلك صورة المشكلة في عرض اثنين من الدارسين المدققين لها ، اكتفى أحدهما أمامها بالتعجب ، لأنه لم يلحظها ، واعترف بها الآخر وسجلها ، ثم لانجد بعد ذلك محاولة للتفسير .

المشكلة الثانية :

وهي تنبع من الزعم بأن أولئك النقاد حكموا عامل الزمن في الحكم على الشعر ، ففضلوا الأقدم دائما ، ومعروف أن هذا الزعم يستند إلى تصريحات تحمل هذا المعنى كتمنى أبى عمرو بن العلاء إدراك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ، وتصريح ابن الأعرابي بأن القديم أحب إليه .. إلخ ، وليس ذلك - في ظاهره - إلا تعصبا للقديم لقدمه بالطبع ، غير أن هذا الزعم نفسه لا يثبت أن يشير مشكلة بصورها تصريح القاضي الجرجاني بأن :

« من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين .. وقد بعدت بهم العصبية في ذلك إلى تناول بعض المتقدمين : زعم الأصمعي أن العرب لا تروى شعر أبى ذؤاد وعدي بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية ، وكيف يكون ذلك ، وهذا معاوية يفضل عديا على جماعة الشعراء ، وهذا الحطيفة يسأل : من أشعر الناس ؟ فيقول : الذي يقول ، وأنشد لأبى ذؤاد :

(١) شكوى عياد ، (كتاب أرسطو طاليس في الشعر) ٢٣٤ .

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ .: قَدُّ مَنْ قَدَّ رُزْمَتُهُ الْإِعْدَامُ ،

(ثلاثة أبيات) (١)

هذه صورة المشكلة الجديدة في ذهن رجل كالقاضي الجرجاني فهو يرى أن (تحامل) الرواة على الشعراء المحدثين قد امتد إلى متقدمي الشعراء أيضا ، وهو لا يرى في عدم رواية شعر عدى وأبي ذؤاد أكثر من صورة من صور التعصب الذي تصوره موجودا أساسا ضد شعر المحدثين ، ثم امتد إلى القدماء مبالغة وإمعانا . والواقع أنه كان يوسعه أن يدلل على رأيه في (التعصب) برفض الرواة واللغويين لشعراء آخرين في الجاهلية والإسلام ، وهناك على الأقل ثلاثة شعراء هم أمية بن أبي الصلت ، وهو جاهلي ، والطرماس بن حكيم والكميت بن زيد ، وهما إسلاميان ، لم يستشهد اللغويون بأشعارهم ، بل رفضوها كما رفضوا شعر عدى وأبي ذؤاد ، وهذا من شأنه أن يوسع ويدعم دعوى الجرجاني ، ولكنه من ناحية أخرى يزيد من عوص المشكلة التي تقع بين ما يقال عن تحكيم أولئك النقاد لعامل الزمن في الشعر ، وبين ما وقف عنده القاضي الجرجاني وملتصوره إخلالا بذلك المقياس من مقاييس الحكم ، كما تقع أيضا بين النص على رفض أشعار تلك المجموعة من الجاهليين والإسلاميين وبين ما عرّفه المصادر من إعجاب نفس المفريق من النقاد بأشعار أولئك الشعراء .

المشكلة الثالثة :

وهي تتعلق بصورة النقد العربي ككل ، ويمدى وتوقيت قبوله للجديد ، ونحن نعرف أن الاندفاع نحو قبول التجديد والخط عليه في المؤلفات النقدية كان شديدا - على الأقل - ابتداء من القرن الرابع ، فقد تحدث قدامة عن (الإغراب والطرفة) كما عقد الحاتمي بابا للمعاني العقم (وهي الأبيكار المبتدعة) ، وكذلك عقد بابا آخر تحدث فيه عن (السابق والمصلى) من الشعراء ، وبالمثل فسر معنى (الإخلاء) بأنه الخلو من المعاني المبتكرة ، أما ابن رشيقي فقد عقد هو الآخر فصلا في (المخترع والبديع) وما لبث (الاختراع) أو (سلامة الاختراع من الاتباع) أن أصبح مبحثا من مباحث البديع في المؤلفات المتأخرة ، ونحن نعرف أن مذهب الجري وراء الابتكار هو الذي انتصر في

النهاية - بل منذ البداية - وإذا كان أبو تمام بمذهبه قد اعتُبرَ في نظر الأمدى قمةً الجرى وراء الإبداع والإغراب فإنه - في الحقيقة - يعدُّ نقطة البداية بالقياس إلى ما حدث بعد ذلك (١).

ومن ناحية أخرى يقف النقد العربي - حتى نهاية القرن الثالث على الأقل - في نظر القائلين بتعصبه ضد الجديد موقف المتهم، إذ يرون أن متقدمي النحاة واللغويين والرواة كانوا يعادون الجديد، وأنهم لم يقبلوا من شعر المحدثين إلا ما سار في ركاب القديم، كان ذلك موقفهم في القرن الثاني، وهو موقفهم في القرن الثالث حين ظل اللغويون في ذلك القرن عند نفس الموقف (٢)، وإذا كان النقاد في القرن الثاني قد هاجموا دعوة أبي نواس وأحبطوها فيما يرى هدارة (٣)، فإن تلاميذهم في القرن الثالث هم الذين وقفوا يقاومون بشدة الجديد الذي أتى به أبو تمام حين اشتعلت الخصومة بين القدماء والمحدثين حول ذلك الشاعر (٤)، الذي كان خصومه - كما يقول شكري عياد - هم أنصار القديم، وقد تمكنوا من فرض سلطان الشعر القديم « شيئاً فشيئاً، فمن منهج القصيدة إلى المعاني إلى التشبيهات نفسها» (٥).

هناك إذن مرحلتان في تاريخ هذا النقد، إحداهما ممعنة في رفض الجديد والأخرى ممعنة في قبوله، وهو ما يبدو النقد العربي معه في صورة قافزة - ولا أقول متناقضة - وهي صورة ليس لها ما يبررها، إذ لا تتفق مع النتيجة التي آل إليها ما صورَّ على أنه صراع بين قدماء ومحدثين حيث كانت الغلبة في النهاية لأنصار الحديث، ولو صحَّ وجود محاولات لإحباط كل ما هو جديد.. ولو صحَّ أن تلك المحاولات كانت على نحو ما يتصورُّ

(١) - Elkott (A.) Arab Conception of Poetry as Illustrated in kitab Al - Muwazanah, p . 18 .

وراجع العمدة ٦٣/٢ والنخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٣ .

(٢) تاريخ النقد الألبى عند العرب ١١٦، ١١٧ .

(٣) هدارة، مشكلة السرقات ٢١٢ .

(٤) مندور، النقد المنهجي ٦٩ .

(٥) شكري عياد، (كتاب أرسطوطاليس في الشعر) ٢٤٨ .

الدارسون المحدثون من العُنف .. وأنها انتصرت فعلاً لما كان في الإمكان أن تأتي النتيجة على النحو الذي جاءت عليه ، أعني انتصار الجديد واستمراره ، ووجود حركة تشجعه وتزدرى أي نزعة إلى التقليد .

فمن غير الطبيعي أن يسود هذا الاحتفال بالابتكار والتجديد على امتداد عصور النقد والبلاغة العربيين في الوقت الذي يتسم فيه مؤسسو هذين العلمين بالرجعية وعدم تقبل أي جديد ، فضلاً عن رفض الشعر - حتى الجيد منه - لمجرد تأخره الزمني .

والواقع أن تصور مجرى حركة النقد العربي على هذا الأساس يظهر تناقض هذه الحركة من جانبين : الأول تناقضها ذاتياً مع نفسها في وقت واحد حين طالب ذلك النقد بالتجديد وحث على التقليد في نفس الوقت ، والثاني تناقض مراحلها المختلفة بعضها مع بعض ، أو على الأقل عدم اتساقها ، وأعني مرحلة رفض الجديد والمرحلة الأخرى التالية حين أصبح يطالب بالجديد .

وقد لا تكون هناك استحالة نظرية في المسألة ، لكن الواقع كان غير ذلك ، إذ بين التسبُّع الدقيق لسير حركة ذلك النقد أنه أفسح المجال لعدد غير من الشعراء الذين تمسكوا بالتجديد - حتى وإن سلكوا فيه طريقاً خاطئاً - ولعدد من النقاد قرروا قبول ذلك الجديد وأشادوا به ، حدث ذلك في مراحل المبكرة - وهو ما لا يقبل به أصحاب القول بالتعصب - كما حدث فيما أعقب تلك من فترات .

المشكلة الرابعة :

تثيرها مسألة تعليل الاتجاه نحو الجديد والتخلص من سيطرة القديم في ذلك النقد - بعد القرنين الثاني والثالث ، وتحمل هذه المشكلة - كسالتها - لونا من ألوان الاتهام للنقد العربي ، إلى جانب أنها أثار من آثار الصورة القديمة التي تنفي عن العرب أي محاولة للتجديد أو القبول للجديد ، فإن وجدت شيئا من ذلك فلا بد من اللجوء إلى تعليل أجنبي عن التفكير العربي .

من هنا نرى في محاولات التعليل التي قام بها البعض تأكيداً لنفس الفكرة القديمة عن النقد العربي ، أعني أنه النقد الذي لا يقبل الجديد ، فإن قبله - وهنا تأتي الحاجة إلى التعليل - فلا بد من عامل خارجي عنه يعلّل ذلك التحول ، وهذا هو ما ذهب إليه شكري عياد ، لقد

ألف قدامة بن جعفر - متأثراً بأرسطو - كتابه (نقد الشعر) وكان في ذلك مبشراً بتخلص البلاغة المعاصرة من سلطان الأقدمين، إذ كان على الأقل يقيس القدماء والمحدثين بمقياس واحد، فلا يجعل أحد الفريقين تابعا والآخر متبوعا، ولا يجعل فضيلة المتأخرين هي الجرى في مضمار المتقدمين في معانيهم وأساليبهم، فالمعاني قد تُعرف بالفلسفة خيرا مما تُعرف بالشعر القديم، والأساليب - وإن التُمنست نماذجها المختارة من الشعر المأثور - قد يُهدى إلى معرفة مواطن الحُسن فيها بالنظر العقلي، فيصبح الشاعر وفي يده عُدَّة الإتيان، ويصبح الناقد وفي يده معيار الجودة (١). وعلى هذا فإنه:

... ليس بمستغرب أن تلتقي حركة إخضاع النقد للتأثير اليوناني بمحاولة للعديد في الشعر العربي فيؤلف قدامة كتابا في (الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام) كما ألف الأمدى من بعد كتاب (الموازنة) منتصرا للبحثى وممثلا ذوق (المدرسة العربية) في نقد الشعر (٢).

وهكذا ينفر قدامة - أو ممثل التأثير اليوناني - ببداية الدعوة إلى وحدة المقياس بالنسبة للقدماء والمحدثين، ومن مظاهر ذلك قيامه بالدفاع عن أبي تمام الشاعر المجدد، أمام ابن المعتز، وكان ذلك إيذانا بالاعتراف بالجديد، وإفساح المجال له والحد من غلواء أنصار القديم، وهو بهذه الصورة يمثل نقطة التحول في التفكير النقدي عند العرب: التحول بين اتجاهين: اتجاه قدامى النقاد في القرنين الثاني والثالث، ومن سار على منوالهم في القرن الرابع ممن ناصروا القديم، واتجاه آخر بدأه قدامة، ويعتد بالجديد ويضعه على قدم المساواة مع القديم، ويقبل الجيد من الفريقين.

ويمثل هذا الرأي نتيجة منطقية للمقدمة التي تُقررُ معاداة النقد العربي الخالص للجديد، وبالتالي فمن الطبيعي حين نمد الجديد يصبح محلا للقبول والتقدير أن نبحت عن علة بعيدة عن الوطن التقليدي للتعصب ضد الجديد - وهو بيئة النقد العربي الخالص - وهذه قضية سليمة من ناحية الشكل، غير أن المقدمة ذاتها محل للنظر وبالتالي تصبح النتيجة كذلك.

(١) المرجع السابق ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق ٢٣٥.

فمن نذكر ما أعلنه ابن قتيبة - من قبل - من وجوب التسوية بين القديم والجديد والحكم على كل منهما على أساس صفات الجودة في الشعر لا على أساس الزمن ، كما يذكر لابن قتيبة أيضا أنه لم يمسك على الإطلاق بما أعلنه من وجوب سير المحدث على خطى القديم (١) .

ولم يكن إهمال ابن سلام - أو إغفاله - لرواية الشعر المحدث في (طبقات الشعراء) إلا استجابة للمهمة اللغوية التي كان يضطلع بها - إلى جانب مهمة النقد - ذلك الفريق من متقدمي اللغويين والنحاة ، إلى الحد الذي نكاد نرى عنده أن مبحث الانتحال في ذاته والذي عني به ابن سلام ، كان يهدف - ضمن ما يهدف - إلى الاطمئنان إلى سلامة الشواهد اللغوية والنحوية التي يحتاجها ذلك الفريق في الاحتجاج اللغوي والنحوي (٢) .

ومن الطريف في هذا الصدد أن نجد من الباحثين من يقول بتأثير فريق اللغويين وأصحاب مذهب الطبع من النقاد - وهم الذين أتهموا بالتوقف في صلب القديم - بأرسطو في كتاب (الخطابة) وقد عد البهيتي من هؤلاء ابن الأعرابي وتعمل على الخطب والآمدي والقاضي الجرجاني وغيرهم (٣) .

وربما استغلَّت هذه الفكرة في تأييد وتوسيع القول بوجود الأثر اليوناني ، إلا أن أي تفكير من هذا القبيل لا بد له ، حتما ، من تضمين مقدمة أساسية عمادها تأييد رأينا في أن عقلية من سُموا بأنصار القديم ومن سُموا بأنصار الحديث كانت من طبيعة واحدة .

وقبل أن نترك هذه النقطة لا يفوتنا أن نسجل أن تعليل الاتجاه إلى قبول الجديد في النقد العربي بدخول الفكر الأجنبي إلى العقلية العربية على يد رجل مثل قدامة ، يلتقي مع بعض المحاولات الأخرى في تاريخ الأدب العربي وهي محاولات ترد ما يسدو عند بعض شعراء العربية من سمات معينة تدل على تفوقهم وعلى دقة إحساسهم وميلهم إلى

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٦/١ ، ص ٧٠ .

(٢) راجع طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥ حيث يقرر أن في الشعر الكثير من المقتل الموضوع الذي لا حجة في عربيته ، والهدف اللغوي من وراء رواية الشعر واضح كما يبدو من المقدمة الهامة

للكتاب والتي عدد فيها بعض أوائل اللغويين والنحاة وطبقاتهم ، راجع أيضا ص ١٢ - ٢١ .

(٣) نجيب البهيتي ، أبو تمام الطائي : حياته وشعره ، ص ١٩٣ ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٤٥ .

الابتداع ، تردُّ هذه السمات عند محاولة تعليلها إلى الأصل الأجنبي لأصحابها. ومن ذلك محاولة طه حسين في رد ما امتاز به أبو تمام من تجديد المعاني وكلفه بوصف الطبيعة والميل إلى المعاني (الفلسفية) إلى أصله الأعجمي وإلى استمداده وتأثره بالآداب اليونانية ، بحيث أصبح هو ومن كان علي شاكلته من الأصل الأعجمي والتعرض للشقافة الأجنبية، أصبحوا يستمدون وحي قرائحهم من الأدب اليوناني إما مباشرة بالأخذ عن الأصول اليونانية أو من طريق غير مباشر بالاطلاع على ما نقل إلى اللغة العربية من التأليف اليونانية المختلفة (١) .

وكذلك حاول العقاد مع ابن الرومي ، فهو يرى أن كل الخصائص والسمات المتفردة التي امتاز بها ابن الرومي يمكن أن يستمد تعليلها من ذلك الاسم الذي اشتهر به الشاعر والذي يحمل نسبه إلى الروم ، ثم راح يؤكد وجود خصائص (العبقرية اليونانية) في شعره (٢) .

ويبدو أن كلاً من طه حسين والعقاد - بصورة من الصور - لم يثبت عند رأيه ، أما طه حسين فإننا نشير إلى ما ذكره في حديث الأربعاء من ضالة الآثار اليونانية في ميدان الأدب - بل الآثار الأجنبية عامة - التي تُرجمت إلى العربية والتي كان من أسبابها عدم معرفة العرب لشيء من الآداب الأجنبية ، « ومن هنا لم يكن أمام الشعراء مثال أدبي جديد يحتذونه ويسعون في تقليده ومحاكاته فظلوا على ما كانوا عليه يرددون ما ألفوا من الشعر القديم بأوزانه وقوافيه وبألفاظه ومعانيه » (٣) . ونحن نضع ذلك جنباً إلى جنب مع ما سبق نقله من بحثه الذي ألقى في بعض مؤتمرات المستشرقين من أن عبقرية أبي تمام أو خصائص شاعريته الفريدة تعود - إلى جانب الجنس الأعجمي - إلى الاطلاع المباشر أو غير المباشر على الآداب اليونانية . أما العقاد فإنه عاد - في دراسته الخاصة عن ابن الرومي - فعرف (العبقرية اليونانية) بأن

(١) طه حسين ، تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبدالقاهر ، ص ٩ .

(٢) انظر مقدمة العقاد لديوان ابن الرومي ، بتحقيق كامل كيلاني ص : د ، وراجع (حركات التجديد في الشعر العباسي) ص ٤٢٩ .

(٣) طه حسين ، حديث الأربعاء ٢ / ١٢ .

المقصودَ بها المعنى المفهوم بين قرآء الآداب من هذه الكلمة ، إذ هي تُطلق على سِمَاتٍ معينة في الفنّ دون أن تعني دائماً الانتماء إلى الأصل اليوناني (١) .

وقد رد عبدالقادر القط على مثل هذه التعليقات رداً مقنعاً (٢) .

تلك هي المشاكل العامة التي يمكن أن تعترض طريق ما أسميناه بالتصور القديم لموقف قدامي النقاد - رواةً ولغوياً - من شعر المحدثين ، ونسارع إلى القول بأنها مشاكلٌ صُوريّةٌ ، بمعنى أنها لم تقع فعلاً ، ذلك أن موقف أولئك النقاد كان - في حقيقته - على خلاف ما تصوّره الدارسون المحدثون ، وهذا ما تكشف عنه صورة فعلية لذلك الموقف من واقع النصوص التي تمثل في حقيقتها مشكلةً أخرى في مواجهة التصور القديم .

(١) عباس العقاد ، ابن الرومي : حياته من شعره ، ص ٢٠١ .

(٢) راجع (حركات التجديد في الشعر العباسي) للقط ٤٢٩ ، وراجع لنفس المؤلف Arab Concep-

(٢)

صورة الموقف من واقع النصوص

قلنا فيما مضى إن الاعتقاد السائد لدى الدارسين المحدثين بمعادة النقاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين لشعر المحدثين في العصر العباسي قد بُنى على عددٍ قليل جداً من النصوص التي فهمت على غير وجوهها في كثير من الأحيان ، وإن تصحيح الصورة كان يقضى بأن تُستقرأ كل النصوص ذات الصلة بهذه القضية .
وقد حان الوقت لإيراد عدد من هذه النصوص يصور حقيقة موقفهم من ذلك الشعر .

ولنبداً بأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٩ هـ) ، ولقد اشتهر عن هذا الرجل :

١ - أنه كان يعتبرُ الإسلاميين من طبقةٍ جرير والفرزدق مولدين ويسمّوهم محدثين .

٢ - أنه لم يستشهد بيتٍ واحدٍ إسلامي .

٣ - أنه كان يخصّ الجاهليين بكل التقدير والشاعرية ، ولا يرى في المولدين إلا كل سمات الانحطاط ، وأنه حين أعجب بشاعر كالأخطل تمنى لو أن ذلك الشاعر أدرك من الجاهلية يوماً واحداً إذ كان يكون في إمكانه - حينئذ - أن يروى شعره ولا يفضل عليه أحداً .

على أن ذلك الشاعر - الأخطل - وطبقته - ممن كانوا محدثين في رأى أبي عمرو - قد نالوا من ثناء الرجل وتقديره لشاعريتهم ، وروايته لشعرهم بل والرواية عنهم الشيء الكثير ، ونحن إنما نعتد بموقف ذلك الرجل من أولئك الشعراء الإسلاميين لما قيل عنه من أنه لم يحتج بيتٍ واحدٍ إسلامي ، وأنه لم يكن يروى أشعار المحدثين ابتداءً من الإسلاميين . « قال إسحاق : وحدثني الأصمعي أن أبا عمرو أنشد بيت شعر

فاستجاده وقال : لو كان للأخطل ما زاد ، (١) ، وعن الأصمعي «أنشد أبو حية النميري يوماً أبا عمرو :

يَا لَمَعَدُ وَيَا لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ . : . وَيَا لَغَائِبِهِمْ يَوْمًا وَمَنْ شَهِدًا

كأنه معجب بهذا البيت ، فجعل أبو عمرو يقول له : إنك لتعجب بنفسك كأنك الأخطل (٢) .

و « قال رجل لأبي عمرو : يا عجباً للأخطل ! نصراني كافر يهجو المسلمين ! فقال أبو عمرو : بالكعب ، لقد كان الأخطل يجيء وعليه جبة خز ، وحرز خز في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ، ذهب تنفض لحيته خمر حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن » (٣) . وقال ابن النطاح : « حدثني عبد الله بن روبة بن العجاج قال : كان أبو عمرو يفضل الأخطل » (٤) ، ويقول أبو عبيدة : « كان أبو عمرو يشبه الأخطل بالنابغة لصحة شعره » (٥) .

ولانستطيع أن نفهم من النصوص السابقة أن أبا عمرو كان يرفض النظر في شعر الأخطل - المحدث - أو يرفض روايته وتقييمه ، ذلك أن أبا عمرو نفسه روى ، وسمع ، وأملى عليه وقرأ عليه شعرٌ محدث آخر - أخذت من الأخطل - هو جرير ، الذي كان يشبهه بالأعشى على نحو تشبيهه الأخطل بالنابغة .

يقول أبو عبيدة : « كان أبو عمرو يشبه جريراً بالأعشى ، والفرزدق بزُهَيْرِ والأخطل بالنابغة » (٦) ومن الأخبار ذات الدلالة أن أبا عمرو كان يروي أخبار جرير وشعره ، فالأصمعي يحدث عن أبي عمرو : « قال : لما بلغ عبد الملك قول جرير :

(١) الأغانى ٨ / ٢٨٥ .

(٢) الأغانى ٨ / ٢٩٠ .

(٣) الأغانى ٨ / ٢٩٩ .

(٤) الأغانى ٨ / ٢٨٧ .

(٥) الأغانى ٨ / ٢٨٦ .

(٦) الأغانى ٨ / ٥ ، والخبر في الشعر والشعراء ٤٣٧ / ١ ، وفيه يقول أبو عمرو عن جرير والأعشى «هما

بازيآن يصيدان ما بين العنديلين إلى الكركي » .

هذا ابن عمي في دمشق خليفة .: لو شئتُ ساقكمُ إلى قطينا

قال : مازاد ابنُ المِراغةِ علي أن جعلني شُرطياً (١) ، كذلك يروي أبو عمرو خبر تعريض جرير لأبيه بشعر الفرزدق فيه (٢) وأهم من هذا كله أنه كان يجلس إلى جرير وهو يملي شعره ، وينشده ، فيروي الأصمعي : قال أخبرنا أبو عمرو بن العلاء قال : جلس جرير .. يملي علي رجل قوله :

ودع أمانة حان منك رحيلُ .: إن الوداع لمن تحب قليلُ

فمروا عليه بجزاة ، فقطع الإنشاد وجعل يكي ... قال أبو عمرو : فقلت له : فعلام تقذفُ المحصنات منذ كذا وكذا ؟ فقال : إنهم يدأونني ثم لا أعفو (٣) ، ويحكى الأصمعي أنه قرأ علي خلف الأحمر شعر جرير ، فتوقف عند بعض عباراته ، فقال الأصمعي « هكذا قرأته علي أبي عمرو بن العلاء ، قال (يعني خلفاً) صدقت ، وكذا قال جرير ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع » (٤) . فضلاً على ذلك فإن أبا عمرو كان يقوم بدور الراوية لما يدلي به جرير من أحكام نقدية ، يقول الرياشي : « حدثنا الأصمعي عن أبي عمرو قال : سئل جرير أي الثلاثة أشعر ؟ فقال : أما الفرزدق فيتكلف مني مالا يطيقه ، وأما الأخطل فأشدنا اجترأ وأرمانا للغرض ، وأما أنا فمدينه الشعر » (٥) ، كما يروي عنه حكماً نقدياً خاصاً بندي الرمة « قال أبو عمرو بن العلاء : قال جرير : لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته :

* ما بال عينك منها الماء ينسكب *

(١) الأغانى ٦٠/٨

(٢) الأغانى ٥١/٨ .

(٣) الأغانى ٥١/٨ والخبر في ابن قتيبة (الشعر والشعراء) ٤٢٨/١ وينظر : العقد الفريد ٣ /

١٨٢ ، ٢٨٢ / ٥ في أخبار مماثلة عن جرير يرويها أبو عمرو ، وينظر كذلك : حلية المحاضرة

. ١٧٧ / ١

(٤) العدة لابن رشيقي ٢٤٨/٢ .

(٥) الأغانى ٧٣/٨

كان أشعر الناس ، (١) ولاشك أن أبا عمرو هو ناقل الوصف الشائع لشعر ذى الرمة من أنه (نقطة عروس وأبعار ظباء) عن جرير ، فأكثر الروايات تنسب هذا الحكم إلى جرير ، أما رواته فإنه مروى عن أبي عبيدة أكثر من مرة ، كما تولى الأصمعي شرحه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن سلام يسند هذا الحكم إلى أبي عمرو ، مع تواتر نقله عن جرير ، أدركنا أن أبا عمرو هو الحلقة المفقودة في سلسلة الرواة بين جرير وبين الطبقة التالية من الرواة مثل الأصمعي وأبي عبيدة (٢) .

كذلك كان موقف أبي عمرو من الفرزدق ، فقد كان يقيم شعره ، ويقول إنه يشبه من شعراء الجاهلية بزهير (٣) . كما كان يروى عنه أحكامه النقدية ، فهو يروى عنه قوله عن النابغة الجعدي (إنه صاحب حلقتان ، يكون عنده مطرف بألف وخمار بواف) هذا بينما يقوم الأصمعي - تلميذ أبي عمرو - بشرح عبارة الفرزدق (٤) .

ولم تقف رواية أبي عمرو بن العلاء لشعر (المحدثين) عند الطبقة الأولى من الإسلاميين وإنما كان يروى شعر ذى الرمة أيضا ، يقول ابن قتيبة «ومما صحف فيه من شعره (يعنى شعر ذى الرمة) قوله :

بَرَاهُنْ تَفْوِيزِي إِذَا الْآلُ أُرْقَلَتْ . . . به الشمس إزرا الحزورات الفوالك

رواه أبو عمرو (أرقلت) وقال الأصمعي : إنما هو (أرقلت) ومعناه أسبغت وغطت (٥) و «دخل ذو الرمة على بلال بن أبي بردة .. فأنشد بلال ..» يرى الخمس تعديا ... فقال ذو الرمة : (يرى الخمس تعديا) ، وإنما (الخمس) للإبل ، وإنما هو خمص البطون ، فمحك بلال .. وقال : هكذا أنشدنيها رواة طيئ .. فدخل أبو عمرو بن العلاء ، فقال له بلال : كيف تشدهما ؟ (يعنى البيتين) وعرف أبو عمرو الذى به ، فقال : كلا الوجهين : فقال : أتأخذون عن ذى الرمة ؟ قال : إنه لفصيح ،

(١) الموشح للمرزيبانى ص ١٧٢ .

(٢) الموشح ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٤٨/١ .

(٤) الموشح ص ٦٤ .

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٢١/١ .

وإنا لنأخذ عنه بتمريرى . وخرجا من عنده ، فقال ذو الرمة لأبى عمرو : والله لولا أنى أعلمك حطبت فى حبله وقلت فى هواه لهجوتك هجاء لا يقعد إليك معه اثنان» (١) . ولنا أن نتصور مدلول هذا التهديد من جانب الشاعر ، الذى يتسمى إلى طبقة (المحدثين) - فيما يروى عن أبى عمرو .

ونجد فى حلية المحاضرة أن أبا عمرو كان يمثل للأبيات المحكمة القوافى من شعر ذى الرمة ، وأنه اختار من شعره أظرف بيت وهو قوله :

وتهجره إلا اختلاسا بطرفها . : . وكم من محب خشية العين هاجر (٢)

كذلك جاء فى حلية المحاضرة فى حديث لأبى عمرو مع الفرزدق ، أن العالم اللغوى الناقد كان يبدى إعجاباً شديداً باستعارة ذى الرمة فى قوله :

أقامت به حتى ذوى العود فى الثرى . : . ولف الثرى فى ملاءته الفجر

وفى خبر (الحلية) استطراد له دلالاته ، فالفرزدق يصحح الرواية لأبى عمرو ، ويقول إن الأصل (حتى ذوى العود والثرى) . ويقول ابن رشيق فى (العمدة) « كان أبو عمرو بن العلاء لا يرى أن لأحد مثل هذه العبارة ، ويقول : ألا ترى كيف صير له ملاءة ولا ملاءة له ، وإنما استعار له هذه اللفظة » (٣) .

وروى الأصمعى عن أبى عمرو أنه قال : أغزل بيت قاله العرب قول عمر بن

أبى ربيعة :

فتضاحكن وقد قلن لها . : . حسن فى كل عين من تود

هذا بينما كان الأصمعى يخالفه فى هذا الاختيار ويرى أن أغزل بيت هو قول

امرئ القيس :

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٤٨٤ .

(٢) (حلية المحاضرة) للحاتمي ١ / ٣٧١ ، وانظر ١ / ٣٣٨ ، والبيت مما اختاره ابن قتيبة مما

يستحسن من شعر ذى الرمة ، الشعر والشعراء ١ / ٥٢٠ .

(٣) حلية المحاضرة للحاتمي ١ / ١٣٦ ، والعمدة لابن رشيق ١ / ٢٦٩ .

وما ذرقت عينك إلا لتضربني .: بسهميك في أعشار قلبٍ مُقتل (١) .

كذلك كان أبو عمرو يروى أن عمر بن أبي ربيعة وفضالة بن شريك الأسدي وابن الرقيات ممن يحتج بشعرهم ، وذلك على خلاف ما يروى عنه : فمما نقله الأصمعي عنه في (فحولة الشعراء) قال [الكلام لأبي حاتم ناقل الحديث عن الأصمعي] : وعمر بن أبي ربيعة مولد وهو حجة ، سمعت أبا عمرو بن العلاء يحتج في النحو بشعره ، ويقول : هو حجة وفضالة بن شريك الأسدي وابن الرقيات .. هؤلاء مولدون وشعرهم حجة (٢) ، كما نراه يعجب بشعر عدي ابن الرقاع العاملي ، قال محمد بن عباد بن موسى : « كنت عند أبي عمرو أعرض - أو يعرض عليه رجلٌ بحضرتي - من شعر عدي بن الرقاع ، وقرأت - أو قرأ - هذه الأبيات (ثلاثة أبيات) فقال أبو عمرو : أحسن والله (٣) وقال عمرو بن أبي عمرو : « كنت عند أبي ورجلٌ يقرأ عليه شعر عدي بن الرقاع ، فلما قرأ عليه القصيدة التي يقول فيها :

لولا الحياء وأن رأسي قد عسا .: فيه المشيب ، لزرت أم القاسم

قال أبي : أحسن والله عدي بن الرقاع (٤) .

ويورد الحاتمي في (حلية المحاضرة) عدداً من الأبيات المشتملة على ذلك النوع من التشبيهات الذي أطلق عليه (التشبيهات العقم) ، وهي التي لم يسبق صاحبها إليها ولم يلحق فيها لُحوقاً حسناً - وهي مما اختاره أبو عمرو ، ويونس وخلف ، ونجد أن الاختيار لا يقتصر على شعراء الجاهلية وإنما يمتد ليشمل الإسلاميين ومتأخري الإسلاميين أيضاً ، فاختروا عدي بن الرقاع قوله في قرن الظبي :

تُرْجِي أَغْنُ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ .: قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مَدَادَهَا

(١) الخبر في (الحلية) ١ / ٢٧١ باختلاف بسيط ، وفي العدة ٢ / ١٢٠ .

(٢) فحولة الشعراء للأصمعي ص ٢٢ .

(٣) الاغانى ٩ / ٣١٠ .

(٤) الاغانى ٩ / ٣١٢ .

كما اختاروا للرأعي قوله يصف إنساناً جعد الرأس :
جَدلاً أَسْكَ كَأَنَّ فَرَّوَةَ رَأْسِهِ . : . بُدِرَتْ فَأَنْبَتَ جَانِبَاهَا فُلْفُلاً

وقول الطرماح في صفة الظليم :

مَجْتَابٌ سَمَلَةٌ بُرْجِدٍ لِسْرَاتِهِ . : . قَدْرًا وَأَسْلَمَ مَا سِوَاهُ الْبُرْجِدُ

وقول ذي الرمة :

وَلَيْلٌ كَجَلْبَابِ الْعُرُوسِ اذْرَعَتْهُ . : . بِأَرْبَعَةٍ وَالشَّخْصُ فِي الْعَيْنِ وَاحِدٌ (١)

وفي الأغاني خبر آخر له دلالة : « قال معاذ بن العلاء أخو أبي عمرو بن العلاء : كان أبو عمرو إذا لم يحج استبضعني الحروف أسأل عنها الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة الشاعر (٥) وآتبه بجوابها ، قال : تقدمت عليه سنة من السنين وقد ولأه عبد الملك بن مروان مكة ، فلما رأني قال : يامعاذ هات ما معك من بضائع أبي عمرو ، فجعلت أعجب من اهتمامه بذلك وهو أمير » (٢) .

لاشك في أننا نضيع وقتنا حين نُورد الشواهد على اهتمام بعض اللغويين بالشعر الإسلامي وتذوقهم له ، واتخاذ موقف منه على أساس حكم نقدي ، فهذا الاهتمام أمر مسلم به بين جميع اللغويين والنحاة نقادا وغير نقاد ، إذ قبل الجميع الاحتجاج والاستشهاد بذلك الشعر ، ولكن هذا الوقت تظل له قيمته حين يكون الحديث عن أبي عمرو بن العلاء بالذات ، لأن ما يروى عنه خلاف ما يروى عن غيره في هذه الناحية . فوفقا لما تصوّره الروايات - القليلة جدا والبعيدة الأثر في نفس الوقت - كان ذلك

(١) النص في الحلية بإسناده ممن ١٧٨ / ١ ، ونص الخبر عن الأصمعي « قال : أجمع أبو عمرو بن

العلاء وخلف الأحمر ويونس - وهؤلاء أهل العلم بالشعر - أن التشبيهات العقم ، التي انفرد بها

أصحابها ولم يشركهم فيها غيرهم ممن تقدم ولأمن تأخر ، أبيات معدودات ... قول عنترة ..

وقول عدى بن الرقاع ... وقول الراعي ... وقول بشر ابن أبي خازم .. وقول الطرماح ... وقول

ذو الرمة والخبر في العمدة ٢٩٦ / ١ بدون إسناد .

* الحارث هذا أحد شعراء قريش الغزاليين وكان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة (الأغاني ٣ / ٢١٢) .

(٢) الأغاني ٣ / ٢١٢ .

الرجل يرفض الاحتجاج بشعر الإسلاميين وروايته ، إذ عدّهم - ابتداءً من طبقة جرير والفرزدق - مولّدين ، وكان أيضاً يرى أن العصر الذهبي للشعر العربي قد انقضى بانقضاء الجاهلية ، التي سبق شعراؤها إلى كل شعر حسن ، فلم يتركوا للمولّدين سوى كل نفاية رديئة ، وها نحن أولاء نراه ، يروي شعر الإسلاميين وأخبار الشعراء ويجلس إليهم ليكتب عنهم ويروي عنهم أحكامهم النقدية ويحتج بشعرهم ويصرح بذلك ، بل يرسل إلى بعضهم يستفتيه في اللغة .

ولم يقف استحسان أبي عمرو وتذوقه للشعر الحديث عند طبقة الإسلاميين ، وإنما يمتد إلى من بعدهم ، وبالذات إلى بشار بن برد زعيم المحدثين ، ففي (حلية المحاضرة) يحكى أبو عبيدة عن أبي عمرو رأيه في أحسن الابتداءات في العصور المختلفة ، فيورد لامرئ القيس قوله : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومئزّل) وقوله : (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي) على أنهما أحسن الابتداءات في الجاهلية ، كما يورد قول القطامي : (إنا محيوك فاسلم أيها الطلل) على أنه أحسن ابتداء للإسلاميين ، ثم يورد قول بشار : (أباي طلل بالجزع أن يتكلّم) كأحسن ابتداء صنعته محدث (١) . وحدثنا عبد الرحمن بن أخي الأصمعي قال حدثني عمي قتال : أخبرنا أبو عمرو بن العلاء قال : رأيت بشار المرعث يرثي بنية له وهو يقول :

يا بنت من لم يك يهوى بنتاً . : ما كنت إلا خمسة أو ستاً

حتى حللت في الحشا وحتى . : فتت قلبي من جوى فانفتا (٢) .

وفي خير عن قنبر بن الهرز الباهلي : (قال الأصمعي : لقي أبو عمرو بن العلاء بعض الرواة فقال له : يا أبا عمرو من أبدع الناس بيتاً ؟ قال : الذي يقول :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم . : ونفني عنى الكرى طيف ألم

(١) الخبر بإسناده في الحلية ١ / ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ويدون إسناد في العمدة ١ / ٢١٨ ، وفي الأغاني برواية عن علي بن يحيى المنجم يقول : سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون .. يراجع :

الأغاني ١٤٨/٣ .

(٢) الأغاني ٢٢٩/٣ .

رَوْحِي عَنِّي قَلِيلًا وَعَلَّمَنِي .: أَنَّنِي يَا عَبْدُ مَنِ لَحْمٍ وَدَمٍ

قال : فمن أمدحُ الناسُ بيتا ؟ قال الذي يقول :

لمستُ بكفِّي كفهُ أبتغي الغِنَى .: ولم أدرِ أنَّ الجُودَ من كفه يُعدي

فلا أنا منه ما أصاب ذُوو الغنى .: أصبتُ وأعداني فأتلفت ما عندي

قال : فمن أهجى الناسُ ؟ قال الذي يقول :

رأيتُ السُّهَيلينِ استوىَ الجُودُ فيهما .: على بعدِ ذا من ذاك في حكم حاكم

سُهَيل بنِ عثمانِ يجودُ بماله .: كما جادَ بالوَجعِ سُهَيلُ بنُ سالمِ

قال : وهذه الأبيات كلها لبشار ، (١) .

هذا عن موقف أبي عمرو بن العلاء - روايته وإملائه ودرسه - لا لشعر

الإسلاميين فحسب ، وإنما لشعر المحدثين من المحدثين أيضا .

ويشارك خلف الأحمر (ت ١٨٠) أستاذه في الاهتمام بالشعر الإسلامي ،

ففي حلية المحاضرة نراه يذكر بيتا لجرير على أنه من أحكم ما سيرته العرب من

الأمثال (٢) ، كما يشارك بالرأي والرواية في اختيار عددٍ من التشبيهات لم يسبق

الإسلاميون إليها ، وسبق أن رأينا أن الأصمعي كان يقرأ شعر جرير على أبي عمرو

وعلى خلف ، الذي نراه يكون إحدى حلقات الرواية لشعر جرير ولبعض الأحكام

النقدية المروية عنه .

لكن ذلك كله ليس بغيتنا ، فلم يرتفع صوت خلف برفض الشعر الإسلامي

كما فعل أبو عمرو - أو كما قيل عنه - من هنا يجب التركيز على موقفه من المحدثين .

يحكي خلاد الأرقط قال : جاءنا مروان بن أبي حفصة إلى حلقة يونس ، فأخذ بيد

خلف الأحمر فأقامه وأخذ خلف بيدي قمعنا ... فقال مروان لخلف : نشدتك الله

يا أبا محرز إلا نصحتني في شعري فإن الناس يخذعون في أشعارهم ، وأنشده قوله :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خَيَالَهَا .: يِيضَاءُ تَخْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلَالَهَا

(١) الاغانى ٣ / ١٥٠ ، ١٥١ .

(٢) حلية المحاضرة ١ / ٢٥٥ .

فقال له : أنت أشعر من الأعشى في قوله : (رَحَلَتْ سُمَيَّةٌ غُدُوَّةً أُجْمَالَهَا) ، فقال له مروان : أتبلغ بي الأعشى هكذا ؟ ولا كُلُّ ذَا اِقْتَالَ وَيَحْكُ ، إنَّ الأعشى قال في قصيدته هذه :

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطَحَالَهَا .

والطَّحَالُ ما دَخَلَ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَفْسَدَهُ ، وَأَنْتَ قَصِيدَتِكَ سَلِيمَةٌ كُلُّهَا ، (١) .
ويقول الأصمعي : « كُنْتُ أَشْهَدُ خَلْفَ بْنِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ ، وَخَلْفًا الْأَحْمَرَ يَأْتِيَانِ بِشَارًا وَيُسَلِّمَانِ عَلَيْهِ بِغَايَةِ التَّعْظِيمِ ثُمَّ يَقُولَانِ : يَا أَبَا مُعَاذٍ مَا أَحْدَثْتَ ؟ فَيُخْبِرُهُمَا وَيُنْشِدُهُمَا وَيَسْأَلَانِهِ وَيَكْتَبَانِ عَنْهُ مَتَوَاضِعِينَ لَهُ حَتَّى يَأْتِيَ وَقْتُ الظُّهْرِ ثُمَّ يَنْصَرِفَانِ عَنْهُ ، ثُمَّ يَرَوِي قِصَّةَ سُؤْلِهِمَا لِبِشَارٍ عَنْ قَصِيدَتِهِ فِي سَلَمِ بْنِ قَتَيْبَةَ « قَالَا بَلَّغْنَا أَنْكَ أَكْثَرَ فِيهَا مِنَ الْغَرِيبِ ، فَقَالَ : نَعَمْ ، بَلَّغْنِي أَنْ سَلَمًا يَتَبَاَصَرُ بِالْغَرِيبِ فَأُحْبَبْتُ أَنْ أُرَدَّ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْرِفُهُ ، قَالَا فَانْشِدْنَاهَا ، فَانْشِدْنَاهُمَا :

بَكَرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ . . . إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

حَتَّى فَرِغَ مِنْهَا ، فَقَالَ لَهُ خَلْفٌ : لَوْ قُلْتَ يَا أَبَا مُعَاذٍ مَكَانَ (إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ) : (بَكَرًا فَالنَّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ) كَانَ أَحْسَنَ ؟ فَقَالَ بِشَارٌ : بَيْنَهُمَا أَعْرَابِيَّةٌ وَحَشِيَّةٌ ، فَقُلْتَ : (إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ) كَمَا يَقُولُ الْأَعْرَابُ الْبَدَوِيُّونَ ، وَلَوْ قُلْتَ (بَكَرًا فَالنَّجَاحُ) كَانَ هَذَا مِنْ كَلَامِ الْمُؤَلَّدِينَ وَلَا يَشْبَهُ ذَلِكَ الْكَلَامَ وَلَا يَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْقَصِيدَةِ ، فَقَامَ خَلْفٌ فَقَبِلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ (٢) .

ويقول خلف : « كُنْتُ أَسْمَعُ بِبِشَارٍ قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ ، فَذَكَرُوهُ لِي يَوْمًا ، وَذَكَرُوا آيَاتِهِ وَسُرْعَةَ جَوَابِهِ وَجُودَةَ شِعْرِهِ ، فَاسْتَنْشِدْتُهُمْ شَيْعًا مِنْ شِعْرِهِ فَأَنْشَدُونِي شَيْعًا لَمْ يَكُنْ بِالْمَحْمُودِ عِنْدِي ، فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا تَبِينُهُ وَلَا تُطَاطِفُنِي مِنْهُ ، ثُمَّ يَحْكِي لِي كَيْفَ صَادَقَتْ ذَهَابَهُ سَاعَةَ غَضَبٍ مِنْ بِشَارٍ ، إِذْ اغْتَابَهُ الْبَعْضُ عِنْدَ الْأَمِيرِ فَقَالَ شِعْرًا يَهْجُوهُ ، قَالَ خَلْفٌ : « فَارْتَعَدْتُ وَاللَّهِ فَرَائِصِي وَأَقْشَعَرَّ جِلْدِي ، وَعَظَّمْتُ فِي عَيْنِي جَدًّا » (٣) .

(١) الاغانى ١٠ / ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الاغانى ٣ / ١٩٠ .

(٣) الاغانى ٣ / ١٩١ .

ولا يَنخُلُ يُونُسُ بنُ حَبِيبِ البَصْرِيِّ (ت ١٨٣) بتفضيل مروان بن أبي حفصة في قصيدته التي مطلعها (طرتك زائرة فحى خيالها) على الأعشى في قصيدته (رحلت سمية غدوة أجمالها) في خبر يشبه ذلك الخبر المروى عن خلف الأحمر، وفيه يقول يونس لمروان: «يا هذا اذهب فأظهر هذا الشعر، فأنت والله فيه أشعر من الأعشى في قوله: (رَحَلَتْ سَمِيَّةُ)..... إلخ (١).

ذلك هو تفضيل خلف ويونس لمروان بن أبي حفصة الذي وصفه الأصمعي بأنه «كان مولدا ولم يكن له علم باللغة» (٢). ومما له دلالة على تهافت مقياس التفضيل على أساس الزمن، ذلك الخبر الذي حكاه أبو عبيدة عن يونس، فقد «جاء رجل إلى يونس فقال له: من أشعر الثلاثة؟ قال: الأخطل. قلنا من الثلاثة؟ قال: أى ثلاثة ذكروا فهو أشعرهم» (٣).

ويتابع أبو عمرو الشيباني الكوفي (ت ٢٠٦) نفس الاتجاه في الاهتمام بشعر المحدثين، ومن أشهر أولئك المحدثين أبو نواس الذي حظى بقدر قليل من اهتمام الرجل وتقديره، فقد كان أبو عمرو يقول: «لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفق لاحتججنا بشعره لأنه مُحْكَمُ القول» (٤)، وجاء في أخبار أبي نواس لابن منظور: «كان أبو عمرو الشيباني يقول: أشعر الناس في وصف الخمر ثلاثة: الأعشى والأخطل وأبو نواس» (٥).

ولاشك أن هذا التقدير من أبي عمرو الشيباني لشعر أبي نواس يجب أن يحتل مكانا بارزا، فهو يمثل شهادة من رجل ينتمى إلى مدرسة الكوفة في حق رجل يدين بتعليمه لأساتذة المدرسة المنافسة، مدرسة البصرة، من هنا كان صدور مثل هذه الشهادة من أبي عمرو بمثابة إعلان عن الإعجاب الشديد الذي يقود إلى الحكم لصالح المنافس.

ويحكون عن الشاعر ابن منذر أنه كان يتوسل إلى أبي عبيدة معمر بن

(١) الاغانى ٨٢/١٠.

(٢) الموشح ٢٥١.

(٣) الاغانى ٢٨٣/٨، وليس للخبر عندنا أكثر من الدلالة على سقوط معيار الزمن في الحكم.

(٤) ابن المعتز، طبقات الشعراء ص ٢٠٢.

(٥) ابن منظور، أخبار أبي نواس ٥٨/١.

المثنى، أحد أعضاء المدرسة البصرية (١١٠-٢٠٧ أو ٢١٣) لكى يحكم بالعدل بين شعره وشعر الجاهليين كعدى بن زيد، وهذا هو دليل الاتهام ضد أبي عبيدة، غير أننا نجد نصوصاً أخرى توضح حقيقة موقف الرجل، فإلى جانب اهتمامه بالشعراء الإسلاميين من طبقة جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة وهو ما يتضح من روايته لأخبار جرير ومن ناقضوه (١)، وكذلك روايته لرأى الفرزدق فى شعره وشعر صاحبه (٢) ودراسته لاحتجاجات أنصار كل من الشعراء الإسلاميين (٣) وروايته للنقد الذى وجهه جرير لشعر ذى الرمة (٤)، وكذلك ما نراه من إirاده مثلاً للتخلص الحسَن من شعر ذى الرمة (٥)، إلى جانب ذلك نجد هذه الأخبار عن موقف أبي عبيدة من الشعراء المحدثين: حكى التوزى قال: سألت أبا عبيدة عن اليوم الثانى من النحر، ماذا كانت العرب تُسميه قال: «ليس عندى من ذلك علم، فلقيت ابن مناذر بمكة فأخبرته بذلك فعجب وقال: أيسقطُ هذا عن مثل أبي عبيدة؟ هي أربعة أيام متواليات كلها على الرء... فحدثته - يعنى أبا عبيدة - فكتبه عن ابن مناذر» (٦). هذا ويرى أبو عبيدة أن بشارا والسيد الحميرى هما أشعر المحدثين، ففي الأغاني: «حدثنا أبو حاتم قال: سمعت أبا عبيدة يقول: أشعر المحدثين السيد الحميرى وبشار» (٧).

كذلك يفيد خبر آخر أن أبا عبيدة كان يروى شعر السيد ويستحسنه ففي الأغاني: «.. حدثنا عمر بن شبة قال: أتيت أبا عبيدة معمر بن المثنى يوماً وعنده رجل من بنى هاشم يقرأ عليه كتاباً، فلما رآنى أطبقه، فقال له أبو عبيدة: إن أبا زيد ليس ممن يحتشم منه، فأقرأ، فأخذ الكتاب وجعل يقرؤه فإذا هو شعر السيد. فجعل أبو عبيدة يعجب منه ويستحسنه، قال أبو زيد وكان أبو عبيدة يرويه» (٨).

(١) الأغاني ٦٨/٨.

(٢) الأغاني ١١/٨، ١٢.

(٣) الأغاني ٥/٨.

(٤) الأغاني ٥٤/٨.

(٥) حلية المحاضرة ١/٢١٨.

(٦) الأغاني ٢٧/١٧، ٢٨.

(٧) الأغاني ٢٣٢/٧.

(٨) الأغاني ٢٣٦/٧.

وفي خبر آخر « أخبرني ابن دريد قال : سئل أبو عبيدة من أشعر المولدين ؟ قال السيد وبشار » (١) ، ثم هو يروي عن بشار قوله : « لي اثنا عشر ألف بيت عين ، فقيل له هذا مالم يكن يدعيه أحد قط سواك ، فقال : لي اثنا عشرة ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين » ومن هنا كان تفضيل أبي عبيدة بشاراً على مروان ، قال أبو حاتم : « قلت لأبي عبيدة : أمروان عندك أشعر أم بشار ؟ فقال : حكم بشار لنفسه بالاستظهار أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ، ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام هذا العدد ، ما أحسبهم برزوا في مثلها ، ومروان أمدح للملوك » (٢) .

ويتحدثون عن ميمية لبشار قالها في هجاء المنصور ثم حولها إلى هجاء أبي مسلم ، قال أبو عثمان المازني : « سمعت أبا عبيدة يقول : ميمية بشار هذه أحب إلي من ميميتي جرير والفرزدق » (٣) وفي الأغاني ما يدل على أن أبا عبيدة كان يروي شعر بشار ويحقيقه : « .. حدثنا أبو غسان دماذ عن أبي عبيدة أن بشاراً أنشده :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً . . . صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه

... قال : وأنشدتها شبيل بن عزرة الضبعي ، فقال : هذا للمتلمس ، فأخبرت بذلك بشاراً ، قال : كذب والله شبيل ، لقد مدحت ابن هيرة بهذه القصيدة وأعطاني عليها أربعين ألفاً » (٤) .

وأبو عبيدة ذلك المعجب بشعر بشار المتسبع له ، يوضح الفرق بين غزل بشار وغزل الطليقة الإسلامية من الغزلين مثل جميل وكثير ، ويترك أنه في هذا الفرق يكمن السبب في متع المهدي لبشار من ذكر النساء « ... حدثنا أبو غسان دماذ قال : سألت أبا عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهدي بشاراً عن ذكر النساء ، قال : كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره .. فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي ، وأنشد المهدي ما مدحه به ، نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب ،

(١) نفس الجزء والصفحة .

(٢) الأغاني ٣/١٤٤ .

(٣) الأغاني ٣/١٥٨ .

(٤) الأغاني ٣/١٩٨ .

وكان المهدي من أشد الناس غيرة، قال : فقلت له : ما أحسبُ شعرَ هذا أبلغ في هذه المعاني من شعر كثيرٍ وجميلٍ وعروة بن حزامٍ وقيس بن ذريحٍ وتلك الطبقة ، فقال : ليس كل من يسمع تلك الأشعار يعرف المراد منها ، وبشار يقارب النساء حتى لا يخفى عليهن ما يقول وما يريد ، وأى حرة حصان تسمع قول بشار ، فلا يؤثر في قلبها ، فكيف بالمرأة الغزلة والفتاة التي لا هم لها إلا الرجال ، ثم أنشد قوله :

قد لآمني في خليلتي عمرٌ . . واللوم في غير كنهه ضجراً

(حوالي عشرين بيتاً)

ثم قال له : بمثل هذا الشعر تميل القلوبُ ويلين الصعبُ ، (١) .

إلى جانب ذلك يبدو أبو عبيدة ناقداً معجباً ببشار تتبع كل أخباره وبدايات قوله للشعر ، « .. حدثنا عمر بن شبة قال : قال أبو عبيدة : قال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ثم بلغ الحلم وهو مخشى معرفة لسانه : قال : وكان بشار يقول : هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرنى ولو أجابنى لكنت أشعر الناس » (٢) .

ويمتد تفضيل أبي عبيدة إلى شاعر أحدث وأكثر ثورية وإثارة للنقاد من بشار ، ذلك هو أبو نواس ، ففي الموشح : « أن أبا عبيدة قال : - وذكر أبا نواس - هو بمنزلة بانٍ كملت آتته ، ونقص بناؤه وكان ينبغي أن يكون بتأوه أجوداً » (٣) . لكن هذا التصريح الذي يبدو فيه عدم الرضا إلى حد ما عن أسلوب أبي نواس لا يمنع أبا عبيدة من إنزاله منزلته التي يستحقها بين معاصريه قال أبو عبيدة نصر بن المثنى « كان أبو نواس للمحدثين كما مرى القيس للمتقدمين » (٤) وفي أخبار أبي نواس لابن منظور : « كان أبو عبيدة يقول ذهبت اليمن بجدا الشعر وهوله ، امرؤ القيس بجده ، وأبو نواس بهزله . وكان يقول : ذهبت اليمن بجيد الشعر في قديمه وحديثه ، امرؤ القيس في الأوائل وأبو نواس في المحدثين . وكان يقول : شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس

(١) الأغانى ١٨٣/٣ ، ١٨٤ .

(٢) الأغانى ١٤٣/٣ .

(٣) الموشح ص ٢٦٣ .

(٤) نزهة الألباء ص ٤٩ وخزانة الأدب للبغدادى ٢٣٨/١ .

وحسان بن ثابت وأبو نواس ، وقال أبو عبيدة أيضا : أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين ، نتج لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في فنونه (١) .

وهو لا يتردد في تفضيل المولدين - متى استحقوا ذلك - على الجاهليين والإسلاميين ، « قال المازني : سمعت رجلاً يقرأ على أبي عبيدة معمر بن المثنى شعر بشار ، فمرت قصيدته الميمية التي أولها :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم . : . ولا سالم عما قليل بسالم

فقال له : هاتها ، فهي أوزن من ميميتي جرير والفرزدق ، ولقصيدة مروان بن أبي حفصة أجود من قصيدة الأعشى ، ولقصيدة أبي نواس خير من قصيدة امرئ القيس التي أولها :

رُبَّ رامٍ من بني ثعلب . : . مخرج كفيه من ستره ،

وجاء بعقب الخبر أن قصيدة أبي نواس المقصودة هي التي أولها :

أيها المتشاب من عفره . : . لست من ليلى ولا سمره (٢)

ولا ينكر أبو زيد الأنصاري (ت ١٤ / ٢٠٥) - أحد تلاميذ أبي عمرو

ابن العلاء ، إعجابه ببيت لبشار يعرضه عليه أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥) ، ففي الأغاني « .. حدثنا أبو حاتم قال : كان بشار كثير الولوع بديسم العنزي ، وكان صديقاله ، وهو مع ذلك يكثر هجاءه فقال فيه :

أديسم يا ابن الذئب من نسل زارع . : . أتروي هجائي سادراً غير مقصير

قال أبو حاتم : فأنشدت أبا زيد هذا البيت وسألته ما يقول فيه ، فقال : لمن هذا الشعر؟ فقلت لبشار ، يقوله في ديسم العنزي ، فقال : قاتله الله ، ما أعلمه بكلام العرب (٣) ، ولا يقلل من دلالة هذا الخبر أن يقال إن سر إعجاب أبي زيد بالبيت هو ما يبدو فيه من

(١) ابن منظور ، أخبار أبي نواس ١/٥١ ، ٥٢ .

(٢) اله صدر السابق ١/١٥٧ - ١٥٩ .

(٣) الأغاني ٣/١٥٢ .

متانة لغة بشار أو ما يبدو فيه من علمه بالفريب ، فمع افتراض صحة هذا القول تظلّ للخبر دلالة التي تكمن في استماع البيت والإعجاب به وتبيين موطن الإعجاب فيه ، وهي روح تخالف المدعى من سياسة (وضع الأصابع في الآذان) عند إنشاد شعر المحدثين .

هذا ويتعدى اهتمام أبي زيد بشعر المحدثين إلى تناول شعر بعضهم جملة ومقارنته بشعر غيره من المحدثين أيضا « قال الكرائي : قال أبو حاتم : وقلت لأبي زيد أيما أشعر بشار أم مروان ؟ فقال : بشار أشعر ومروان أكفر ، قال أبو حاتم : وسألت أبا زيد مرة أخرى عنهما فقال : مروان أجد وبشار أهزل ، فحدثت الأصمعي بذلك فقال : بشار يصلح للجِدِّ والهزل ، ومروان لا يصلح إلا لأحدهما » (١) .

ومن أشهر رواة الشعر ونقاده اللغويين الذين اتهموا بالتعصب على الشعر الحديث إلى حد الرجوع في الحكم بالاستحسان على شعر معين لمجرد العلم بأنه لمحدث ، أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب الأصمعي (ت ٢١٧ / ٥) من أعلام المدرسة البصرية وأحد التلاميذ البارزين لأبي عمرو بن العلاء ، كان هذا الرجل أحد ثلاثة أشير إليهم بإصبع الاتهام بسبب ما أشيع عن تعصبهم ضد الشعر المحدث ، وهم : أستاذه أبو عمرو والأصمعي نفسه وعالم كوفي هو ابن الأعرابي .

قلت إن الاعتداد بالروايات التي تبين إعجاب ذلك الفريق من العلماء بالشعراء الإسلاميين ليس له معنى كبير إلا في حالة رجل مثل أبي عمرو بن العلاء ، بسبب ما أشيع عنه من رفضه للشعر المحدث ، حتى في العصر الإسلامي الذي عدّ شعراءه محدثين ومولدين أيضا ، على أن شيئا من المنطق لا يزال يؤيد هذه الروايات ، أو إيرادنا لها - بعبارة أدق - لأننا في معرض المخالفة لرأى يرى أن تفضيل أولئك القوم للشعر كان على أساس الزمن ، على أساس القِدَم والحداثة في ذاتهما ، من هنا تكون الروايات العديدة عن دراستهم ، وتذوقهم للشعر الإسلامي وتفضيل شعرائه ، والمقارنة بينهم وبين الجاهليين ، لا بقصد الغرض منهم ، هذه الروايات تصبح ذات قيمة في هذا الصدد بالذات ، على أن بعض هذه الروايات تتزايد قيمتها حين تنقل إلينا تفضيل بعض

أولئك الإسلاميين على شعراء الجاهلية ، وأساس القيمة هنا هو أن مثل هذا الاعتراف يفند القول بوجود ذلك المقياس المزعوم القائم على أساس الزمن والذي اتهم أولئك العلماء بتحكيمة في الشعر .

من ذلك ما سبق أن أُشير إليه من تفضيل الأصمعي لبيت الطرماح في وصف الثور :

ييدُو وتضمرة البلاد كأنه .: سيفٌ على شرفٍ يُسلُّ ويُغمدُ

على بيت النابغة في الثور أيضا :

« من وحشٍ وجرةٍ موشى أكارعه » (البيت) .

وكذلك تفضيله لبيت النَميرى (١) :

فلو كنتُ بالعنقاءِ أو بأسومها .: لخلتكَ - إلا أن تصدَّ - ترانى

على بيت النابغة :

« فإنك كالليل الذي هو مُدركى » (البيت) .

وبالمثل تفضيله لبيت عدي بن الرقاع :

وسنانُ أقصدُهُ النعاسُ فرنقتُ .: فى عينه سنّةٌ وليس بنائِم

على بيت النابغة :

« نظرتُ إليك بحاجةٍ لم تقضها » (البيت) (٢) .

ومن هذه النصوص ما تتزايد قيمته بدرجةٍ تفوق كل ما سبق ، لأنها تتعلق بتفضيل شعراء من أعلن الأصمعي نفسه أنهم ليسوا محل ثقةٍ في الاحتجاج بهم ، كالطرماح مثلا الذي فضله الأصمعي على النابغة ، ولعلنا نذكر ما جاء في الأغاني من أن أبا عبيدة والأصمعي كانا يقولان عن بيتين للطرماح إنه أشعر الناس فيهما (٣) .

(١) النَميرى صاحب البيت المشار إليه هنا هو : محمد بن عبدالله بن نمير بن خرشة بن ربيعة .. شاعر

غزل مولد ومنشؤه بالطائف ، من شعراء الدولة الأموية ، والبيت يقوله للحجاج ، ونصه فى الأغاني :

فلو كانت العنقاء منك تطير بي .: لخلتكَ - إلا أن تصد - ترانى (الأغاني ٢٠٠/٦) .

(٢) النص كاملا فى حلية المحاضرة ١ / ١٧٢ ، ١٧٣ ، وفى نضرة الإغريض ص ١٠٨ .

(٣) الأغاني ٩٥/٦ .

ونترك ما يروى عن الأصمعي من تفضيل للإسلاميين على الجاهليين ، محطما مقياس الزمن المزعوم ، لنرى موقفه من المحدثين عموما ، وبالذات تلك الطائفة التي عرفت بالمولدين ، والذين جمعوا إلى الحدائث عدم خلوص نسبتهم إلى العرب . وفي هذا الصدد نسمع ما يروى عنه من أنه كان يختم الشعراء الذين يحتج بهم بالشاعر إبراهيم بن هرمة (٩٠ - ١٥٠ هـ) ففي الأغاني : « كان الأصمعي يقول : ختم الشعراء بابن هرمة والحكم الخضرى وابن ميادة وطفيّل الكِنَانِي ومكين العذري » (١) ، وفي الأغاني أيضا عن عبدالرحمن بن أخي الأصمعي عن عمه قال : الحكم الخضرى وابن ميادة ورؤبة وابن هرمة وطفيّل الكِنَانِي ومكين العذري كانوا على ساقاة الشعراء وتقدمهم ابن هرمة بقوله :

لا أمتع العوذ بالفِصال ولا . . . أتباع الأقرية الأجل

« قال عبدالرحمن : وكان عمي معجبا بهذا البيت مستحسنا له ، وكان كثيرا ما يقول : أما ترون كيف قال ! والله لو قال هذا حاتم لما زاد ولكان كثيرا » (٢) .

وليس الأمر مجرد استحسان بيت أو قصيدة ، فالأصمعي يروى شعر ابن هرمة ويراجع هذا الشعر على روايته ، ففي خبر ينقله أبو الفرج عن يحيى بن علي بإسناده يصل إلى عامر بن صالح : « أنشدني عامر بن صالح قصيدة لابن هرمة نحواً من أربعين بيتا .. ولم أجد هذه القصيدة في شعر ابن هرمة » ثم يقول أبو الفرج : ووجدتها في رواية الأصمعي ويعقوب بن السكيت اثني عشر بيتا » (٣) .

ذلك عن ابن هرمة ، وهو من مخضرمي اللواتين ، وقد جعله خاتمة الشعراء ، لكنه ما لبث أن ختمهم بشاعر آخر أحدث عهدا من ابن هرمة ، ذلك هو بشار بن برد (ت ١٦٨) ففي الأغاني : كان الأصمعي يقول : بشار خاتمة الشعراء ، والله لو لا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٤) ، لذلك لانعجب أن نرى الأصمعي يتسبع أخبار بشار ومناسبات شعره يرويها ويسجلها ، وهو مصدر عدد غير قليل من أخبار بشار في

(١) الأغاني ٤ / ٣٧٣ والخبر في ٥ / ٢٦٤ أيضا .

(٢) الأغاني ٥ / ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، والخبر في الشعر والشعراء ٧٢٩/٢٠ وطبقات ابن المعتز ص ٢٠ .

(٣) الأغاني ٤ / ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٤) الأغاني ٣ / ١٤٣ ، ٢٥٠ حيث يتكرر الخبر .

الأغاني، وكذلك أخبار بعض المناسبات التي قال فيها شعره، من هذا قصة عشقة لعبدة وما قال فيها من شعر، ورواية بعض هذا الشعر (١) بل إنه يتبع أوليات شعره، أو بالأحرى أوليات اشتهاره بالشعر، وكيف صار يهابه الناس بالبصرة منذ سن مبكرة (٢) ويروي قصة وفادته على ابن هبيرة ومدحه له بقصيدته التي منها:

يخاف المنايا أن ترحلتُ صاحبي . . كأن المنايا في المقام تناسبه

وكيف وصله بعشرة آلاف درهم فكانت أول عطية سنية أعطيها بشار، ورفعت من ذكره (٣).

وهو يعجب بشعره ويتبع صداه في نفوس الناس وأثره ومدى إعجابهم به «قال الأصمعي: قلت لبشار: يا أبا معاذ إن الناس يعجبون من أبياتك في المشورة (يعني أبياته في ميميته التي مدح بها أبا جعفر) فقال لي: يا أبا سعيد إن المشاور بين صواب يفوز بشمرته أو خطأ يشارك في مكروهه، فقلت له: أنت والله في قولك هذا أشعر منك في شعرك» (٤)، كما يعلن عن إعجابه بقدرته على التشبيه مع أن ظروفه المعروفة كانت تمنعه من رؤية الأشياء، لكنه كما يقول الأصمعي «كان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله» (٥).

ولاشك أن ذلك الإعجاب بشعر بشار والتنويه به كان نتيجة دراسة واستقصاء بنى العالم الكبير على أساسهما رأيه في زعيم الشعراء المحدثين، يقول أبو حاتم: «كان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه»، ويقول: «كان مطبوعا لا يكلف طبعه شيئا متعلّرا، لا كمن يقول البيت ويحككه أياما، وكان يشبه بشارا بالأعشى والنابغة الذبياني، ويشبه مروان بزهير والحطيئة، ويقول: هو متكلف» (٦)، ومما تجب الإشارة إليه أن تشبيه هذا الشاعر المحدث أو ذاك بشاعر أو أكثر من شعراء

(١) الأغاني ٢٣٧/٣، ٢٤٢/٦.

(٢) الأغاني ١٤٤/٣.

(٣) الأغاني ٢٣٦/٣، ٢٣٧.

(٤) الأغاني: ١٥٨/٣ ويتكرر الخبر في ٢١٤/٣.

(٥) الأغاني ١٤٢/٣.

(٦) الأغاني ١٤٩/٣.

الجاهلية أو المخضرمين لم يكن يعنى أنهم يفضلون من المحدثين من يسير على النهج القديم ويجارى القدماء فى كل شىء - كما هو الشائع لدى الدارسين المحدثين - فهذا الفهم لا يستقيم مع تعليل الأصمعى لتفضيله بشاراً على شاعر آخر من معاصريه هو مروان بن أبى حفصة (ت ١٨٢) جاء فى الأغانى «... حدثنى الرياشى قال: سئل الأصمعى عن بشار ومروان أيهما أشعر، فقال: بشار، فسئل عن السبب فى ذلك فقال: لأن مروان سلك طريقاً أكثر من يسلكه فلم يلحق من تقدمه وشركه فيه من كان فى عصره، وبشار سلك طريقاً لم يسلكه وأحسن فيه وتفرد به، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزراً وأوسع بديعاً، ومروان لم يتجاوز مذاهب الأوائل» (١).

ولا يقتصر اهتمام الأصمعى على زعيم الشعراء المحدثين، وإنما يمتد إلى غيره ممن هم أحدث عهداً من بشار، فالسيد الحميرى (١٠٥ - ١٧٣) ذلك الشاعر الذى سلك طريقاً خاصاً فى توجيه شعره إلى خدمة معتقده الدينى، يحظى بإعجاب الأصمعى، ويروى التوزى أن الأصمعى استنشد من شعر السيد، قال: «فأنشدته قصيدة ثم أخرى وهو يستزيدنى ثم قال: قبّحه الله، ما أسلكه لطريق الفحول، لولا مذهبه، ولولا ما فى شعره ما قدمت عليه أحداً من طبقته» (٢). ويروى التوزى الخبر بصورة أخرى، ولعلها فى مناسبة مختلفة، قال: «قال لى الأصمعى: أحب أن تأتيني بشىء من شعر هذا الحميرى - فَعَلَ اللهُ بِهِ وَفَعَلَ - فأتيته بشىء منه فقرأه فقال: قاتله الله!، ما أطبعه وأسلكه لسبيل الشعراء، والله لولا ما فى شعره من سب السلف لما تقدمه من طبقتة أحد» (٣).

وينال العباس بن الأحنف (ت ١٨٨) قدراً ملحوظاً من تقدير الأصمعى وإعجابه، حكى الرياشى: «قيل للأصمعى - أو قلت - ما أحسن ما تحفظ للمحدثين؟ قال: قول العباس بن الأحنف:

لو كنت عاتبة لسكن روعتى . . . أملى رضاك، وزرت غير مراقب

(١) الاغانى ١٤٧/٣ .

(٢) الاغانى ٢٣٢/٧ .

(٣) الاغانى ١٣٦/٧ .

لكن مَلَيْتِ فلم تكن لي حيلةً .: صدُّ المَلُولِ خِلافُ صدِّ العَاتِبِ (١)

ويحكى أبو حاتم عن الأصمعي أنه أنشد للعباس بن الأحنف :

أناذنون لصبّ في زيارتكُم .: فعندكم شهواتُ السَّمْعِ والبَصَرِ

لا يُضمِرُ السَّوءَ إن طالَ الجلوسُ به .: عَفُّ الضميرِ ولكن فاسقُ النظرِ

« فقال الأصمعي : ما زال هذا الفتى يُدخِلُ يدهُ في جرابه فلا يُخرجُ شيئاً، حتى

أخرَجَ هذا، ومن أدمن طلبَ شيءٍ ظفِرَ ببعضه » (٢) . ذلك عن العباس بن الأحنف

الذي يعدُّ من الوجهة التقليدية بعيداً جداً عن طريق الأوائِل (٣) .

ولقد استحوذ أبو نواس (ت ١٩٩) على كثير من إعجاب الأصمعي

وتقديره، ولعلَّ في تلك القصة التي ذكرها ابن المعتز في (طبقات الشعراء) ما يدلُّ

على مكانة الشاعر الثائر في نظر الناقد المتحرِّر، وتبدأ القصة بمنادمة الأصمعي للفضل

بن يحيى البرمكي، وأن الأصمعي أنشد - على سبيل الاستشهاد على ما تفعله الخمرُ

بشاربها - بيتاً لأبي نواس في الخمر (٤) ثم ينشد القطعة بأكملها بناءً على طلب الفضل،

ثم يقول الأصمعي عن أبي نواس مخاطباً الفضل : « إنه مع ذلك بمكان من الأدب،

ولقد جالسته في مجالس كثيرة قد ضمت ذوى فنون من الأدباء والعلماء، فما تجاروا

في شيء من فنونهم إلا جارا هم فيه، ثم برز عليهم، وهو من الشعر بالمحل الذي قد

علمته، أليس هو القائل :

(١) الأغانى ٨ / ٣٥٤ .

(٢) الأغانى ٨ / ٣٥٦ .

(٣) راجع مناظرة بين يحيى بن علي المنجم وبين المتفقه الموصلي في المفاضلة بين العباس بن الأحنف

والعتابي، حيث يذكر يحيى بن علي من أسباب تفضيل العباس : استقلاله بفن واحد وإجانبته فيه،

وهذا خلاف للنظرة الشائعة التي تعتدُّ بكثرة فنون الشعر . الموشح ص ٢٩٣ .

(٤) ابن المعتز، طبقات الشعراء ص ٢١٥، والبيت هو :

إذا ما أتت نونَ اللّٰهية من الفتى .: دَعَا هَمَّةً من صدره بِرَحِيلِ

وهو من قطعة أولها :

وخيمة ناطورٍ برأسٍ منيفة .: تهم يدا من رأمها بِزَيْلِ

وراجع أيضاً ص ٢١٦ من طبقات ابن المعتز .

ذَكَرْتُمْ مِنَ التَّرْحَالِ يَوْمًا فَعَمْنَا .: فَلَوْ قَدْ فَعَلْتُمْ صَبَّحَ الْمَوْتُ بَعْضَنَا »

ثم يندفع فينشد القصيدة كلها ، وهي في مدح الفضل ، ومقدمتها ألصق بالمقدمات الجديدة ، تقوم على الغزل ، وترفض الرحلة على الإبل ، وتنص على السير فوق النعال . ومن يقرأ ما قرره ابن قتيبة عن شروط المقدمة التقليدية - والتي لم يتمسك بها ابن قتيبة نفسه - يعلم أي خروج صريح على التقاليد اشتملت عليه مقدمة القصيدة التي تمثل بها الأصمعي ، وما كان ليفعل ، بل ما كان ليحفظها أو ليروى شيئا من شعره لو كان موقفه من المحدثين على نحو ما يصوره الدارسون في القرن العشرين .

وفي (حلية المحاضرة) في رواية محمد بن يحيى عن محمد بن زكريا الغلابي عن أبي العيناء عن الأصمعي أن أحسن بيت تخالغ به شاعر هو لأبي نواس ، وهو يورد له مقطوعة يدعو فيها إلى ترك الجد والانصراف إلى التبتل ، ويذكر الأصمعي أن أحدا لم يسبقه إلى معناه (١) .

ولم يسلك أبو العتاهية (ت ٢٦١) طريق الفحول من الشعراء ، وابتعد بقدر الإمكان عن القعقعة بالألفاظ ، ورأى أن يقول من الشعر ما كان سهلا مناسبا لروح العصر ، ولم يتسبب هذا الأسلوب عند أبي العتاهية في وضعه خارج دائرة اهتمام الأصمعي ، إذ نرى الأخير يستحسن شعره ويصفه وصفاً ينطبق على الشعر المثالي في تقديره ، ففي الأغاني « .. حدثنا الرياشي قال : سمعت الأصمعي يستحسن قول أبي العتاهية :

أنت ما استغنيت عن صا .: حيك الدهر أخوه

فإذا احتججت إليه .: ساعة مجك فوه (٢)

ونقرأ في الأغاني وصفاً لشعر أبي العتاهية على لسان الأصمعي « .. حدثنا مزيد الهاشمي عن السدري قال : سمعت الأصمعي يقول : شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجواهر والذهب والتراب والحزف والنوى ، (٣) ، وينبغي أن نفهم هذا

(١) حلية المحاضرة ١ / ٤٤٠ .

(٢) الأغاني : ١١ / ٤ .

(٣) الأغاني ٤٠ / ٤ .

الحكم في إطار عصره وفي إطار فكرة الأصمعي عن الشعر المثالي - أو أحسن الشعر - في رأيه، وحاصل وصف الأصمعي لشعر أبي العتاهية أنه كان يرى في هذا التفاوت دليلاً على عدم التكلف، وهذا هو ما يمكن فهمه حين نذكر أن الأصمعي كان يعجبه شعر النابغة الجعدى الذى وُصِفَ بأنه (فيه مطرف بالآف وخمار بواف) يقول ابن سلام: «كان الأصمعي يمدحه بهذا وينسبه إلى قلة التكلف» (١)، من هنا كان لنا أن نفهم هذا النص على أنه ليس من قبيل الاستهجان لشعر أبي العتاهية، بل على العكس من هذا فهو يدل على إيمان الأصمعي بشاعرية أبي العتاهية حين يصف شعره بوصف ينطبق على المثل الأعلى للشعر في نظره.

وفي الأغاني، في خبر يصل إلى الرياشي قال: «سمعت الأصمعي يقول: قال هذا الباهلي محمد بن حازم في وصف الشيب شيباً حسناً، فقال له أبو محمد الباهلي: تعنى قوله:

كفأك بالشيب ذنباً عند غانية .: وبالشباب شيباً أيها الرجل

فقال: إياه عنيت، فقال له الباهلي: ما سمعت لأحد من المحدثين أحسن منه» (٢). ومن أشهر من يُرمون بتهمة التعصب ضد الشعر الحديث والشعراء المحدثين أبو عبدالله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي (١٥٠ - ٢٣١) وهو ينتمى إلى المدرسة الكوفية في اللغة والنحو.

وتقوم التهمة المنسوبة إلى ابن الأعرابي على أساس موقفه من شاعرين عباسيين نقلت بعض الأخبار عن طعنه عليهما، هما أبو نواس وأبو تمام، كما تقوم على تصريح ينسب إليه يدل على أنه كان يضع الشعر المحدث - عموماً - في مرتبة أدنى من مرتبة الشعر القديم.

وكما قلت، فإن مثل هذه النصوص - على قلتها - ليست قاطعة الدلالة فيما أريد الاستشهاد بها عليه، فهي تتسم بالعموم، بل والتناقض في كثير من الأحيان، ومن هنا كانت أهمية اللجوء إلى المواقف المباشرة التي وقفها أولئك العلماء من الشعراء

(١) ابن سلام الجُمحى، طبقات الشعراء ص ١٠٥.

(٢) الأغاني ١٤/١١٠، ١١١.

المحدثين .

ونجد في الأغاني ٤ .. حدثنا أبو العباس الأحول عن ابن الأعرابي أنه كان يقول : ختم الشعراء بابن هرمة (١) ، على أننا نجد ، تارة أخرى ، يختتم الشعراء بشاعر آخر أحدث من ابن هرمة ، ذلك هو مروان بن أبي حفصة (ت ١٨٢) ، ففى الأغاني خبر عن أحمد بن الحارث الخراز يقول فيه : « كان ابن الأعرابي يهتم به الشعراء (يعنى بمروان) وما دون لأحد بعده شعرا » (٢) . وللخبر نفسه بقية تفيد أن ابن الأعرابي كان يقدر ذلك الشاعر تقديرا غير قليل ، يقول الخراز : « حدثنا ابن الأعرابي أن مروان بن أبي حفصة أخبره أنه وفد على معن بن زائدة فأنشده قوله :

بُنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللَّقَاءِ كَأَنَّهُمْ . : . أَسْوَدٌ لَهَا فِي بَطْنِ خَفَّانٍ أَشْبَلُ

قال : فأمر لى بصلة سنية وخلع على وحملنى وزودنى . قال : ثم قال لنا ابن الأعرابي : « لو أعطاه كل ما يملك لما وفاه حقه » (٣) .

ويستمر ابن الأعرابي مبدياً استحسانه لشعر معاصريه ، فنسمع منه ثناء على شعر العباس بن الأحنف (١٨٨) ، ففى خبر ينتهي إلى محمد بن عبدالله التميمي قال : كنا فى مجلس ابن الأعرابي إذ أقبل رجل من ولد سعيد بن سالم كان يلزم ابن الأعرابي .. فقال له : ما أنحرك عني .. قال : كنت مع مخارق عند بعض بنى الرشيد فوهب له مائة ألف درهم على صوت غناه به ، فاستكثر ذلك ابن الأعرابي واستهاله وعجب منه ، وقال : ما هو ؟ قال : غناه بشعر عباس بن الأحنف :

بَكَتْ عَيْنِي لِأَنْوَاعٍ . : . مِنَ الْحَزْنِ وَلَوْ جَاعَ

وَأَتَى كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَ . : . سِدْكُمْ يَحْطِي بِي السَّاعَى

فقال ابن الأعرابي : أما الغناء فما أدري ما هو ، ولكن هذا والله كلام قريب مليح (٤) .

(١) الاغانى ٤ / ٣٩٦ .

(٢) الاغانى ١٠ / ٩٠ .

(٣) الاغانى ١٠ / ٨٩ . ٩٠ .

(٤) الاغانى ٨ / ٣٦٢ .

ويصلي المرزبانى - في الموشح - حديثه عن مأخذ العلماء على الشعراء المحدثين بخبرين عن ابن الأعرابي يقول فى أحدهما : « إنما أشعار هؤلاء المحدثين - مثل أبى نواس وغيره - مثل الریحان يشم يوما ويلوى فيرمى به » ، وفى الثانى بين كيف ناظر رجل ابن الأعرابي فى شعر أبى نواس ، وسأله : « أما هذا من أحسن الشعر ؟ فقال ابن الأعرابي : بلى ، ولكن القديم أحب إلى » (١) .

وكما قلت ، فإن مثل هذه التصريحات الصادرة عن رجل تقوم مكانته العلمية على حفظ ورواية مالا يحفظه أو يرويه غيره لا يجب أن تستأثر بانتباهنا أكثر من اللازم ، ففى حلية المحاضرة للحاتمي فى خبر عن محمد بن عبدالواحد عن أحمد بن يحيى قال : سمعت ابن الأعرابي يقول : أمدح بيت قاله مولد قول أبى نواس :

تغطيت من دهرى بظل جناحه . : فعينى ترى دهرى وليس يرانى

فلو تسأل الأيام عني ما درت . : وأين مكانى ما عرفن مكانى (٢)

كذلك يروي الحاتمي فى (الحلية) عن أبى عمر عن أحمد بن يحيى عن أبى عبدالله القمى قال : سمعت ابن الأعرابي غير مرة يقول : « ما ظننت أن أحدا فى زماننا يحسن أن يتدى فيقول كما قال إسحق الموصلى ... ولا كما قال أبو نواس :

صفة الطلول بلاغة القدم . : فاجعل صفاتك لابنة الكرم

تصف الطلول على السماع بها . : أفذو العيان كانت فى العلم

وإذا نعت الشيء متبعا . : لم تخل من زلل ومن وهم (٣)

وفى أخبار أبى نواس لابن منظور : « قال ابن الأعرابي يوما لجلسائه : ما أشعر ما قال أبو نواس فى الخمر ؟ فقال بعضهم : أشعر ما قاله فى الخمر قوله : ... وقال آخر : بل قوله .. وقال آخر : بل قوله . (وذكر كل منهم بيتا مختلفا) ، فقال ابن

(٢) الموشح ص ٢٤٦ .

(٣) (حلية المحاضرة) للحاتمي ١ / ٢٤٢ ، والخبر فى العمدة نقلا عن الحاتمي أيضا ٢ / ١٤٠ .

(٣) (حلية المحاضرة) ١ / ٢١٠ ، والخبر فى العمدة ١ / ٢٣٢ حيث يورد البيت الأول كمثال للافتتاحات

التي ليس لها بسط من النسب ، ويقول : وهو عند الحاتمي فيما روى عن بعض أشياخه أفضل ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين .

الأعرابي : إن هذا كله لشاعر انفراداً بالإحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لا ينزل الليلُ حيثُ حلتُ . : فدهرُ شرَّ أربها نهارُ (١) .

وفى (زهر الآداب) فى خبره رواية أبى هفان أن أبا عبدالله محمد بن زياد الأعرابي كان يطعن على شعر أبى نواس ويضعفه ويستلينه ، فجمع مع بعض رواة أبى نواس ... فقال له صاحب أبى نواس : أتعرف - أعزك الله - أحسن من هذا ؟ وأنشده بعض شعر أبى نواس ، وجعل ابن الأعرابي يستحسن الشعر ويسأل عن قائله على حين راح صاحب أبى نواس ينشد المزيد من الشعر ويأبى أن يخبره بالقائل إلا أن يكتبه ، وفعلا كتب ابن الأعرابي الشعر ، وألح فى السؤال عن صاحبه ، فأخبره صاحب أبى نواس بأنه لذلك للشاعر - الذى يبالغ فى ذمه والعيب لشعره - أبى نواس ، قال ابن الأعرابي : « اكنتم على ، فوالله لا أعود لذلك أبداً » (٢) .

ولاشك أن المبالغة تكتنف مثل هذا الخبر ، فرجوع الناس عن أحكامهم لا يكون بهذه السهولة ، ثم إن عدم كتابة الشعر لا يدل على عدم تقبله وعدم استحسانه ، فالرواية قد يستحسن الشعر ويشيد به ثم لا يكتبه ، كما هو معروف عن موقف المبرد من البحترى .

على أن هناك أخباراً تتسم بالواقعية والبعد عن المبالغة ، وهى فى نفس الوقت تدل على عدم الحمديّة فيما كان يدلى به أمثال ابن الأعرابي أحياناً من أنهم لا يعتدون بأشعار المحدثين . جاء فى (أخبار أبى نواس) لابن منظور « قال بعضهم : كنت ألقى أبا عبدالله محمد بن زياد الأعرابي عند ولد سعيد بن مسلم الباهلى ، وكنا عند ابن الأعرابي صحيفة لا تفارق كفه ، فكنا نحب أن نقف عليها ، فدخل يوماً إلى المتبها ، وترك صحيفته تلك فى مجلسه ، فنظرنا فإذا فيها كثير من شعر أبى نواس فى الخمر ، وقد كنا إذا ذكرنا أبا نواس بحضرته استخف به بذكره ، فأعدنا عليه ذكره ، وعرف فى وجوهنا وقوفنا على ما فى الصحيفة ، فقال : أوقد قرأتهم الصحيفة ؟ قلنا أجل ،

(١) ابن منظور ، أخبار أبى نواس ٦١/١ .

(٢) زهر الآداب ١ / ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، وراجع ما نقله محقق (أخبار أبى نواس) لابس هفان ص ١٤١ ، ١٤٢ .

وعجبنا من ازدرائك بأبي نواس مع تدوينك شعره ، فقال : إنه من أشعر الناس ، وما يمنعنا من رواية شعره إلا تبئله وسخفه . فكتبنا ما في الصحيفة لأمرين : أحدهما أن نكون راوية ابن الأعرابي ، والآخر لعلمنا أن ذلك من جيد شعره لأنه اختيار ابن الأعرابي لنفسه (١) .

وهكذا يبدو سلوك الرجل منطقياً تجاه الشاعر الذي اشتهر بالتعصب عليه ، وكما قلت ، فإن عدم الرواية للشعر وعدم كتابته لا يدلان على عدم الاستحسان ، وإن ثبت - كما رأينا - أنه كان يكتب شعره ، بل إنه كان يناقش جلساءه ، ويقارن بينه وبين سابقه في الموضوعات المختلفة ، وحين كان يصرح بتفضيل شاعر قديم ، كان يسوق مبرراته بين يدي تفضيله (٢) .

وفي الأغاني ، في خبر يصل إلى أبي العباس محمد بن أحمد ، قال : كان ابن الأعرابي يعيب أبا العتاهية ويثلبه ، فأنشدته :

كَمْ مِنْ سَفِيهِ غَاظَنِي سَفَهَا . . . فَسَفَيْتُ نَفْسِي مِنْهُ بِالْحِلْمِ (٣) .

على أننا لا نلبث أن نجد ابن الأعرابي يشارك معاصريه في إنشاد شعر أبي العتاهية وتذوقه ونقده واستحسانه وتفضيله ، فيذكر أحمد بن أبي فتن أنهم كانوا عند ابن الأعرابي ، وأنهم ذكروا قول ابن نوفل في هجاء عبد الملك بن عمير ، وأن ابن أبي فتن ذكر - مجازاً للمناسبة - هجاء أبي العتاهية لعبد الله بن معن بن زائدة ، وكيف أحجله كما أحجل ابن نوفل عبد الملك بن عمير ، فلم يزد ابن الأعرابي على أن قال : اعجبوا العهد بهجو مولاه - يعني هجاء أبي العتاهية لعبد الله بن معن - وكان ابن الأعرابي مولى بني شيبان (٤) .

ومع ذلك لم يكن ابن الأعرابي يتأخر عن رواية شعر ذلك الشاعر الذي وصفه بأنه (عبد) ، حكى عامر بن عمران الضبي قال وجدته ابن الأعرابي قال : أجرى

(١) ابن منظور ، أخبار أبي نواس - ٥٨/١ .

(٢) راجع ، الموشح ص ٢٦٧ حيث يفضل لبني الأعرابي بيت الأعشى : (وكأس شربت على لذة . . .

وأخرى تداويت منها بها) على قول أبي نواس (وداوني بالتى كانت هي الداء) ويطلق تفضيله بأن

الأعشى هو (الأول السابق) .

(٣) الأغاني ٤/٤٦ .

(٤) الأغاني ٤/٢٧ .

هارون الرشيد الخليل ، فجاء فرس له يقال له المشمر سابقا وكان الرشيدُ معجبا بذلك
الفرس ، فأمر الشعراء أن يقولوا فيه ، فبدرهم أبو العتاهية فقال :

جاء المشمر والأفراس يقدمها . : هونا على رسله منها وما انبهرأ

وخلف الريح حسرى وهى جاهدة . : ومر يختطف الأبصار والنظرا

فأجزل صلته ، وما جسر أحد بعد أبى العتاهية أن يقول فيه شيئا (١) ، ويروى عن

عبدالرحمن بن الفضل قال « حدثنى ابن الأعرابي قال : اجتمعت الشعراء على باب

الرشيد فأذن لهم فدخلوا وأنشدوا ، فأنشد أبو العتاهية :

يأمن تبغى زمناً صالحاً . : صلاح هارون صلاح الزمن

كل لسان هو في ملكه . : بالشكر فى إحسانه مرتها

قال : فاهتز له الرشيد وقال له : أحسنت والله ، وما خرج فى ذلك اليوم أحد من

الشعراء بصلة غيره (٢) .

قد لا تكون لهذه الأخبار دلالة الحكم النقدى بالمعنى المفهوم ، ولكن لها هذه

الدلالة - وأكثر منها - فى هذه القضية التى نحن بصدددها ، التى يبدو فيها أولئك

اللغويون وكأن شعر المحدثين لم يخطر على بال أحدهم ، فضلا عن أن يزويه ويحفظه .

ومع ذلك لم يقتصر ابن الأعرابي - فيما تدل الروايات المختلفة - على مجرد الرواية

العادية لشعر أبى العتاهية وللمناسبات التى قيل فيها هذا الشعر ، وإنما تعدى ذلك كله

إلى الدفاع الصريح عن الشاعر وإظهار مزايها شعره والإشادة به فيما يشبه المناظرة ،

ففى خبر يصل إلى أبى بكرمة قال : « وحدثت أن ابن الأعرابي حدث بهذا الحديث

(يشير إلى حديث أبيات قالها أبو العتاهية فى مرض الرشيد ، نال بها مالا جليلا .

أغانى ٤/١٣ ، ١٤) فقال له رجل بالجلس : ما هذا الشعر بمستحق لما قلت ، قال :

ولم ؟ قال : لأنه شعر ضعيف ، فقال ابن الأعرابي - وكان أحد الناس - الضعيف

والله عقلك لا شعر أبى العتاهية ، ألبى العتاهية تقول : إنه ضعيف الشعر ؟ فوالله ما

رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقلب على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر ،

ثم أنشد له :

(١) الأغانى ٤/٤٣ .

(٢) الأغانى ٤/٤٢ .

قَطَعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْأَسَالِ .: وَحَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطِيِّ رِحَالِي

(حوالي تسعة أبيات)

ثم قال للرجل : هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر ؟ فقال الرجل : يا أبا عبد الله ، جعلني الله فداك ، إنني لم أردد عليك ما قلت ، ولكن الزهد مذهب أبي العتاهية ، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد ، فقال : أفليس الذي يقول في المديح :

وهارونُ ماءُ المزنِ يُشْفَى بِهِ الصَّدَى .: إذا ما الصدى بالريق غصت حناجره

(ستة أبيات)

قال : فتخلص الرجل من شرابن الأعرابي بأن قال : القول كما قلت ، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه (١) .

كان أبو العتاهية من الشعراء البارزين في عصره ، مدح الخلفاء وعرفته الأوساط الرسمية ، فليس غريباً أن يهتم به ابن الأعرابي ويروي شعره ، ويستحسنه ويدافع عنه . على أن محمد بن حازم الباهلي (ت ٢١٥) لم يكن على نفس الدرجة من الشهرة ، وهو من شعراء الدولة العباسية ، كان كثير الهجاء للناس فاطرح - كما يقول صاحب الأغاني - ولم يمدح من الخلفاء إلا المأمون ، ولا اتصل بواحد منهم فيكون له نباهة طبقت ، وكان ساقط الهمة متقللاً جداً يرضيه اليسير . ولم نشأ الترجمة لابن حازم ذلك ولكننا قدمنا هذه الصورة التي تدل على دنو منزلته بين شعراء عصره - على الأقل من ناحية المكانة الرسمية في قصور الحكام ، والتي كانت كثيراً ما تتدخل في تحديد منزلته الفنية - ثم لنلأ أيضاً على أن تلك المنزلة لم تكن لتمنع عالماً كابن الأعرابي من التنويه بشعر الباهلي والإعجاب به حين وجد في هذا الشعر ما يستحق الإشادة والتفضيل .

ففي (حليّة المحاضرة) للحاتمي في خبر عن محمد بن عبد الواحد ومحمد بن يحيى عن أحمد بن يحيى قال : « سمعت ابن الأعرابي يقول : ما بهكت العرب شيئاً

كما بكت الشباب ، وما بلغت كنهه ، ولا أعرف في التفجع على الشباب وذم الشيب
أحسن من قول محمد بن حازم الباهلي على قربه :

لا تكذبن فما الدنيا بأجمعها . : من الشباب يوم واحد بدل
شرح الشباب لقد أبقيت لي حزناً . : ماجد ذكرك إلا جد لي ثكل
كفاك بالشيب ذماً عند غائبة . : وبالشباب شقياً أيها الرجل (١)

ذلك هو مدى استحسان ابن الأعرابي لشاعر مغمور في عصره . ولم يخل
بإبداء رأيه في أديب آخر معاصر له هو إسحق بن إبراهيم الموصللي ، ففي خبر يصل إلى
أحمد بن يحيى الشيباني قال : « وقف أبو عبدالله بن الأعرابي على المدائني ، فقال له :

إلى أين يا أبا عبدالله ؟ فقال : أمضى إلى رجل هو ، كما قال الشاعر :

نَحْمِلُ أَشْبَاحَنَا إِلَى مَلِكٍ . : نَأْتِدُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ أَدْبَانِهِ
فقال له : ومن ذلك يا أبا عبدالله ؟ قال : أبو محمد إسحق بن إبراهيم
الموصللي (٢) . وجاء في الأغاني أيضاً « .. قال حدثني أحمد بن الحارث وأبو مسلم
عن ابن الأعرابي ، أنه كان يصف إسحاق الموصللي ويقرظه ويثنى عليه ويذكر أدبه
وحفظه وعلمه وصدقه ، ويستحسن قوله :

هل إلى أن تنام عيني سبيل . : إن عهدي بالنوم عهد طويل
غاب عني من لا أسمى فعيني . : كل يوم وجداً عليه تسيل (٣)

وقد مر بنا الخبر الذي أورده الحارثي في الحلية عن عد ابن الأعرابي أول البيتين ،
إلى جانب مطلع آخر لأبي نواس ، من أحسن الابتداءات التي قالها المحدثون (٤) .

(١) حلية المحاضرة ١ / ٤١٢ ، والخبر في الأغاني ١٤ / ٩٤ برواية أحمد بن يحيى عن ابن
الأعرابي مع اختلاف في بقية سلسلة الرواة ، ونصه : قال ابن الأعرابي : أحسن ما قال المحدثون
من شعراء هذا الزمان في مدح الشباب وذم الشيب ... (ثم يورد له ثلاثة عشر بيتاً تضم الأبيات
الثلاثة التي أوردها صاحب الحلية) .

(٢) الأغاني ٥ / ٢٧٤ .

(٣) الأغاني ٥ / ٣٣٢ .

(٤) الحلية ١ / ٢١٠ ، والخبر في (نزهة الألباء) ص ١١٩ .

وتدور أحاديثُ الدارسين المحدثين حول عدد قليل من العبارات الغامضة المعجمة التي يُروى أنها صدرت عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي (ت ٢٣٥) كأحكام نقدية تحمل طابع الغضب من شعر المحدثين والتعصب عليه .

والواقع أن هذه الصورة التي يظهر بها إسحاق تشير موقفاً في غاية التعقد، فإسحاق نفسه شاعر محدث، وهو - فيما يقولون - قد عانى من نفس موقف التعصب ضد الشعر الحديث، عندما رجع الأصمعي عن حكمه على شعره بالاستحسان حين علم أنه له، من هنا يبدو السؤال صعباً، إذ كيف يشكو إسحاق من موقف التعصب ضد المحدثين - وهو واحد منهم - ثم يقوم بدوره بالتعصب على غيره من المحدثين؟ والعجيب أن بعض العبارات التي كانت تندد عنه متعلقة ببعض الملاحظات على أي شاعر من معاصريه كانت تلقى - أو هكذا فهمت في العصر الحديث - من الذبوع والشهرة ومحاولات التضخيم ما يحولها إلى صورة عامة تمثل موقف جميع النقاد ضد جميع الشعراء المحدثين، ونحن نذكر من أخباره في هذا الصدد ما كان يأخذه على بشر من تفاوت الأسلوب، وما كان يصف به أبا نواس من أنه ليس بشيء وأنه لا يرى فيه خيراً (١)، ثم ما وجهه إلى أبي تمام - عندما كان الشاعر يلقى بعض شعره - من قوله: يا هذا، لقد شددت على نفسك، ثم ما نجد أحياناً من نقد يوجهه إلى أبي العتاهية لتفاوت شعره .

على أننا نجد في أخبار إسحاق أنه كان على استعداد لاستحسان أشعار أولئك الشعراء المحدثين الذين تعرضوا لانتقاده ومؤاخذته، فهو يسمع شعراً حسناً لبشار ولا يملك لإحسانه دفعا، وهو - فيما أورد ابن منظور في أخبار أبي نواس - كان يتعصب للشاعر ويحاييه في قصر الخلافة، كما كان يتعصب للعباس بن الأحنف، وقيل ذلك كله كان يتعصب لروان بن أبي حفصة، كما نجد ما يدل على اهتمامه بأشعار المحدثين عموماً وروايتها .

فهو يحكى عن نفسه أنه سامر الرشيد ذات ليلة « فجعلت أحدثه بأحاديث القيان والمغنين طورا وأحاديث العرب وأيامها وأخبارها تارة، وأنشده أشعار القدماء والمحدثين

في خلال ذلك» (١). وفي خبر متصل روايته بمحمد بن عمرو الرومي أن إسحاقاً اكتشف أن الحسين بن الضحّاك قد نقل - في شعر له - كلام أبي العتاهية في الرشيد حتى جاء بألفاظه بعينها، قال محمد بن عمرو: «فعببت من رواية إسحاق شعر المحدثين، وإنما كان يروى للأوائل ويتعصب على المحدثين وعلى أبي العتاهية خاصة» (٢). وفي خبر عن يحيى بن عليّ أن إسحاق كان يطعن على بشر فناظروه فيه، وأنشدوه من شعره ما يبدو أنه حاز إعجابه، فادّعى أنه ليس له، فعرّفوه أنه له وأنشدوه بقيته، ويقول الخبر: «إن إسحاق لم يرد ذلك بشيء» (٣). ويدل خبر في (الموشح) على أن ما يروى من تعصب إسحاق على أبي العتاهية كان معارضة للرشيد الذي كان يقدم أبا العتاهية ويتعصب له تعصباً شديداً، قال إسحاق: «كان الرشيد يقدم أبا العتاهية على العباس بن الأحنف ويتعصب لأبي العتاهية تعصباً شديداً، وكنت أعارضه بعبّاس بن الأحنف» (٤). وإذا كان هذا الخبر يحمل معنى تعصبه ضد أبي العتاهية فهو يحمل معنى تفضيله للعبّاس بن الأحنف وهو شاعر مجدّد متحرر من طرق القدماء. ففي الأغاني عن حماد بن إسحاق «كان أبي يقول: لقد ظرّف ابن الأحنف في قوله يصف طول عهده بالنوم:

قفاً خبراني أيها الرّجلان .: عن النوم إن الهجر عنه نهاني

وكيف يكون النوم أم كيف طعمه .: صيفاً النوم لي إن كنتما تصيفان (٥)

كذلك يوجد خبر عن إعجاب إسحاق بشعر لابن الأحنف، حتى حمّله الإعجاب على القول في رويّه وقافيته» (٦).

(١) الأغاني ٣٠٠/٥.

(٢) الأغاني ١٥٧/٧.

(٣) الأغاني ١٩٨/٣.

(٤) (الموشح) للمزني ص ٢٦٢ والأغاني ٢٧١/٨.

(٥) الأغاني ٣٥٨/٨.

(٦) الأغاني ٣٦٦/٨.

وفي أخبار أبي نواس لابن منظور أن إسحق الموصلي كان يتعصب لأبي نواس ويشيد بذكره ويجهر بتفضيله ويجلب له الرفد من الرشيد (١).

ولعل مما له دلالة في هذا الصدد ما كان يُدِيه إسحق من ارتياح لما يصفه به الأعراب من سلوكه في شعره طريقة جديدة تدل على إبداعه . فهو يحكى عن نفسه أنه أنشد أعرابيا شعرا له « فقال : أقفرت والله يا أبا محمد ، قلت : وما أقفرت ؟ قال : رعيت قفرة لم تُرَعْ قبلك .. يريد أبدعت » (٢) ، ويقول مرة أخرى : « أنشدت أبا الأشعث الأعرابي شعرا لي ، فقال ... إنك لمن طراز ما رأيت بالعراق شيئا منه » (٣) .
ويقول مرة أخرى : « أنشدت بعض الأعراب شعرا لي أقول فيه :

أَجَرْتُ سَوَابِقُ دَمْعِكَ الْمُهْرَاقِ . : لَمَّا جَسَرَى لَكَ سَانِحَ بَفْرَاقِ

(١٥ بيتا)

فقال لي : أفليت والله يا أبا محمد ، فقلت : وما أفليت ؟ قال : رعيت فلاة لم يرعها أحد غيرك » (٤) .

قد تكون هذه الأخبار كلها غن وصف الأعراب له بالتفرد والإبداع موضوعاً أو كاذبة ، وقد يكون المراد منها غير ما حاول هو أن يفسرها به ، ولكن الذى لا شك فيه أن إيرادها بالمعنى الذى فهمه منها - أو حملها عليه - يدل - على الأقل - على أن (رعى الفلاة التى لم يرعها الغير) هو ما ينبغى أن يكون - إن كان لم يكن بعد ، وإذا كانت السرقة تدخل ضمن (رعى الفلوات المطروقة) فإن إسحاق كان ينفىها عن نفسه بشدة ، ففى خبر عن على بن يحيى أن إسحق كان يعجب ببيتيه اللذين قيل إن الأصمعي وصفهما بالتكلف ، وهما :

هَلْ إِلَى نَظْرَةِ إِلَيْكَ سَبِيلٌ . : يُرَوِّمُنَا الصَّدَى وَيُسْفَى الْغَلِيلُ

(١) ابن منظور (أخبار أبي نواس) ٢١٦/١ .

(٢) الأغانى ٥ / ٢٧٦ .

(٣) الأغانى ٥ / ٣٢٨ .

(٤) الأغانى ٥ / ٤٠٣ .

إِنَّ مَا قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي .: وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ الْقَلِيلُ

وأنه كان يكرر معناهما في شعره ، ويرى أنه ما سبق إليه . وعندما أنشده على بن يحيى في نفس المعنى لبعض الأعراب حلف له إسحاق أنه ما سمع بذلك قط . قال على بن يحيى : « وصدق ، ما سمع بها » (١) .

ويشير القاضي الجرجاني في (الوساطة) - في معرض الثناء على أبي نواس - إلى قيام أبي يوسف يعقوب بن السكيت (ت ٢٤٤) - وهو من علماء النحو واللغة ، أخذ عن أبي عمرو الشيباني وابن الأعرابي - بتفسير ديوان أبي نواس (٢) ، وتؤكد الأخبار أن العالم الكوفي كان يقدر أبا نواس حق قدره ، « قال ميمون : سألت أبا يوسف يعقوب بن السكيت عما يختار لي روايته من الشعر ، فقال : (إذا رويت من أشعار الجاهليين فلامري القيس والأعشى ، ومن الإسلاميين فلجبرير والفرزدق ، ومن المحدثين فلأبي نواس فحسبك) » (٣) .

وفي (أمالي المرتضى) : « قيل لأبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٠) : من أشعر الناس ؟ قال : الذي يقول :

ولها مبسّم كثف الأفاضل .: وحديث كلالوشى ، وشئ البرود

نزلت في السواد من حبة القلْب .: وبونالت زيادة المستزيد

عندها الصبر عن لقائي وعندي .: زفرات يأكلن صبر الجليد

يعنى بشاراً ، وكان يقدمه على جميع الناس » (٤) .

وألف أبو هفان عبدالله بن أحمد بن حرب (ت ٢٥٥) كتاباً في

أخبار أبي نواس ، ينطق كله بإعجاب الشاعر اللغوي - الذي أخذ عن الأصمعي -

(١) الأغانى ٣١٨/٥ ، ٣١٩ .

(٢) القاضي الجرجاني (الوساطة) ص ٥٥ ، ونص حديث القاضي عن أبي نواس : « هو الشيخ

المقّم والإمام المفضل الذي شهد له خلف وأبو عبيدة والأصمعي ، ونسب ديوانه ابن السكيت . . .

(٣) نزهة الألباء ص ٥٠ وأخبار أبي نواس لابن منظور ٥٢/١ .

(٤) أمالي المرتضى ١٤١/١ .

بأبي نواس في كل ما قال ، ويعد أبو هفان مصدراً لكثير من الروايات والأخبار التي تحدثت عن أبي نواس ، وحسبنا دليلاً على مكانة الشاعر الكبير عند أبي هفان ذلك الخبر الذي ورد في تهذيب ابن عساكر في ترجمة أبي نواس « قال أبو هفان : استنشدت أبا نواس :

لَاتَبْكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبِ إِلَى هِنْدٍ . . . وَاشْرَبِ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ
فلما فرغ منها سجدت ، فقال : ألم أنك عن هذا ؟ والله لا كلمتك مدة (١) .

وليست بنا حاجة إلى القول بأن القصيدة التي سجد لها أبو هفان - وكان راوية لأبي نواس وتلميذاً له - تمثل دعوته التجديدية في أصرح صورها .

ويتمى أبو الفضل عباس بن الفرج الرياشي (ت ٢٥٧) إلى المدرسة البصرية في النحو واللغة ، وهو من تلاميذ الأصمعي ، حفظ كتبه وكتب أبي زيد ، وقرأ على أبي عثمان المازني كتاب سيبويه ، على أن تخصصه بالنحو واللغة لم يحل بينه وبين المشاركة في تذوق شعر معاصريه ونقده والإشادة بالجيد منه ، فهو يشيد بشعر العباس بن الأحنف ، قال أبو الحسن الأسدي : « سمعت الرياشي يقول ، وقد ذكر عنده العباس بن الأحنف ، والله لو لم يقل من الشعر إلا هذين البيتين لكفيا :

أَحْرَمُ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ . . . نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشَقُوا
صَرَتْ كَأَنِّي ذِبَالَةٌ نُصِبَتْ . . . تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ (٢) .

كذلك يتضح موقفه من أبي نواس من هذا الخبر الذي أورده ابن منظور في (أخبار أبي نواس) ويذكر الخبر ، وهو مروى عن الحسن بن علي الرياحي ، أن الرياشي كان يهتم بإنشاد شعر أبي نواس وحفظه ، وأنه سأل الرياحي أن ينشده قصيدة أبي نواس التي أولها : « أيا دارها بالماء حتى تلينها » وتعجب عندما وجده لا يحفظها ، ثم راح يملئها عليه من ذاكرته (٣) .

(١) نقلا عن بعض الأخبار التي رواها أبو هفان خاصة بأبي نواس ، والخبر من تهذيب ابن عساكر

أورده محقق (أخبار أبي نواس) لأبي هفان ص ١٤٢ .

(٢) الأغاني ٢٧٠/٨ .

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١١٨/١ .

وهو يقف نفس الموقف من معاصره الحسين بن الضحّاك (ت ٢٥٠) حيث نراه يقوم بدور راوية أخباره ، ففي الأغاني بعض أخبار الحسين منقولة بإسناد ينتهي إلى الرياشي عن الحسين بن الضحّاك ، ومن المسلم به أن الراوية لا يلزم شاعر يزدرى شعره ويرفضه (١) . ومن هنا لم يقتصر دور الرياشي في الإعجاب بالحسين بن الضحّاك على رواية أخباره ، وإنما تعدى ذلك إلى تذوق شعره والإعجاب به ، روى عثمان بن عمر الآجري قال : « سمعت الرياشي ينشد هذين البيتين ويستحسنهما ويستظرفهما جداً ، وهما :

إِذَا مَا الْمَاءُ أَمَكَّنْتَنِي . : وَصَفَوْا سُلَافَةَ الْعِنَبِ

صَبَّيْتُ الْفِضَّةَ الْبَيْضَا . : ءَ فَوْقَ قُرَاضَةِ الذَّهَبِ

فقلتُ له : من يقولهما يا أبا الفضل ؟ قال : « أرقُّ الناس طبعاً وأكثرهم ملحاً وأكملهم ظرفاً حسين بن الضحّاك » (٢) .

وسجل الدارسون المحدثون على أبي عبدالله محمد بن مسلم بن قتيبة (٢١٣-٢٧٦) ما أوجبه على الشعراء المحدثين من عدم الخروج على مذهب المتقدمين في أقسام القصيدة ، وفي رأيي ، وهذا ما سبق أن ذكرته ، أن دراسة النقد العربي ينبغي أن تتحرر من الوقوف عند النصوص المفردة والعبارات الشاردة يتفوه بها هذا الناقد أو ذاك ، ثم لا يلبث أن يعدل عنها حين يجدها غير ملائمة أو غير واقعية ... ولا شك أن عدتنا في معرفة هذا النقد هي هذه العبارات نفسها ، وإنما الذي أراه أن ينظر الدارس لذلك النقد أو أحد أعلامه إلى أبعد مدى يمكنه النظر إليه حتى يستطيع أن يتبين الصورة العامة التي تطفئ على بعض العبارات الجامحة التي تند عن الناقد في مناسبات مختلفة ، قد يرجع عنها فيما بعد .

ولست بهذا القول أترغم محاولة لا مبرر لها لمعارضة الاتجاه السائد في الدراسات الحديثة ، والتي تفيض باتهام هذا الرجل بالرجعية في الفكر ، وتحمله الشطر

(١) راجع الأغاني ١٥٩/٧ ، حيث يروي الرياشي خبر منادمة الحسين للواثق ، يذكر شعرا لأحمد بن

يوسف أنشده الحسين في تلك المناسبة .

(٢) الأغاني ١٥٤/٧ ، ١٥٥ .

الكبير من مسئولية ما قد يبدو في الشعر العربي وكأنه من مظاهر المحافظة والرغبة في تقليد القديم ، ولكنني على الرغم من هذا أجدني مضطراً للنظر إلى موقف ذلك الرجل من الشعر الحديث والشعراء المحدثين نظرة مخالفة على أساس ما أشرت إليه من الاعتماد على النظرة الكلية ، قبل أي شيء آخر .

لقد حدّد ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) وهو الكتاب الذي تضمن النصّ الذي أُدين بسببه ابن قتيبة بتهمة الرجعية - حدّد مهمته بالإخبار « عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم ... وعمّا يستحسن من أخبار الرجل ويستجد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم ومعانيهم وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون » ، وقال إنه أخبر « عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها » (١) .

وعندما راح يعدّد أقسام القصيدة المدحية كما تُعرف عليها ، ويسرد مبررات مجيئها على هذا النحو أدلى بتصريحه اللافت من أنه « ليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام » (٢) ، وكانت هذه العبارة - وبعض ما شرحها به - أساس الحملة عليه ، وهي حملة لا تستند في مبرراتها إلا إلى هذه العبارة بذاتها .

على أننا ننظر - بعد هذا - في كتاب الرجل وفي ترجماته للشعراء المحدثين بوجه خاص ، فلا نجد أثراً تطبيقياً لما سبق أن أعلنه في مقدمته ، وهذا ما يتضح من النظر في ترجماته لبعض الشعراء المحدثين الذين قاموا بمحاولات تجديدية لافتة ، والذين جمعتهم صفة الحدائث والخروج على التقاليد المتوارثة للشعر القديم ، خاصة ما يتصل بنهج القصيدة كما حدّده ابن قتيبة ، ومن أولئك الشعراء بشّار وأبو نؤاس ومُسْلِم بن الوليد ، ولقد عرّف الأول بأنه من رواد البديع ، ووصفه الأصمعي بأنه سلك طريقاً لم يسلكه الأوائل وتفرّد فيه وأبدع ، ووصفه الجاحظ بأنه « من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المقتنين في الشعر » (٣) ، وهو معروف كزعيم للشعراء المحدثين .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/١ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٨٢ .

(٣) الأغاني ٣ / ١٤٥ .

ولقد خالف بشار ما نصّ عليه ابن قتيبة في نهج القصيدة من ضرورة الرحلة على الإبل والإمام الغزل في مقدمات القصائد المدحية ، فترك كل وسائل الرحلة على البرور حلّ في قصيدة يمدح بها المهديّ على سفينة وصفها ووصف الرحلة عليها ، ومطلعها :

• تَجَالَّتْ عَنْ فَهْرٍ وَعَنْ جَارَتِي فَهْرٍ •

ثم رآح يصف السفينة :

وعذراء لا تجرى بلحم ولادم . . . بعيدة شكوى الأين ملجمة الدبر
تلاعب نينان البحور وربما . . . رأيت نفوس القوم من جريها تجرى
إلى ملك من هاشم في نبوة . . . ومن حمير في الملك والعدد الدثر (١)

وأعلن بشار إقلاعه عن الغزل في بعض قصائده - نزولا على رغبة المهدي - أعلنه في القصيدة التي أشرنا إليها الآن ، وفي غيرها ، والغزل من مقومات المقدمات التقليدية ، ومع كل هذا لا نجد في حديث ابن قتيبة عن بشار ما يشير بكلمة واحدة إلى هذا الخروج ، والمفروض أن يعد من أخطائه ، وإنما يلفتنا في حديثه عن بشار قوله : إنه «أحد المطبوعين الذين كانوا لا يتكلفون الشعر ولا يتعبون فيه وهو من أشعر المحدثين» (٢) ، ثم يسجل له السبق إلى بيته المشهور :

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا . . . وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ (٣)

وعلى الرغم من أن مسلم بن الوليد لم يعلن دعوة مماثلة لدعوة أبي نواس في وجوب ترك المقدمة التقليدية القائمة على الغزل بالبدييات وذكر الأطلال والرحلة على الإبل ... إلخ ، فإن مسلما مارس هذا الحق ، أو - بعبارة أدق - هذا التجديد ، بتوسّع لعلّه يفوق ما صنعه أبو نواس ، إذا أخذنا عدد قصائد الشعراء في الاعتبار وذلك باستثناء المجاهرة بالدعوة إلى الطريقة الجديدة ، وجرى مسلم بن الوليد بشاراً في

(١) الأغاني ٣/ ٢٤٢، ٢٤٣ .

(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٢/ ٧٣٣ .

(٣) ابن قتيبة ، المرجع السابق ٢/ ٧٣٥ .

الرحلة على سفينة (١) ، ثم راح في مقدماته - كما أوضح عبدالقادر القط - يتحدث عن لذاته وحياته الحديثة اللاهية دون أن يعير اهتماما - إلا قليلا - للطريقة القديمة في افتتاح القصائد . ومع ذلك لا توجد إشارة من ابن قتيبة إلى هذا التعدي من جانب مسلم ، ولا نسمع منه إلا قوله عنه إنه « أول من ألطف المعاني ورقق في القول ، وعليه يعول الطائي في ذلك وعلى أبي نواس » (٢) .

ولاشك أن ابن قتيبة كان على بينة من الدعوة التي أعلنها أبو نواس للخروج على المقدمة التقليدية للقصيدة ، والقارئ لما صرح به ابن قتيبة في مقدمة (الشعر والشعراء) من وجوب عدم الخروج على النهج التقليدي للقصيدة خاصة في افتتاحها ، يشعر كأن ذلك الناقد كان يعنى أبا نواس عندما أدلى بهذا التصريح ، ومع هذا لا نجد أثرا لإشارة من ابن قتيبة إلى تلك الدعوة ، وفيما عدا بعض ملاحظات جزئية بسيطة ، فإننا لا نجد في ترجمته لأبي نواس سوى عبارات الاستحسان والتقريظ ، فأبو نواس « أحد المطبوعين » و « كان متفنا في العلم ، قد ضرب في كل نوع منه بنصيب » ، وهو يورد له مجموعة من القطع المختارة ثم يصرح بأنه « قد سبق إلى معان في الخمر لم يأت بها غيره » (٣) ، ويسجل له عدداً غير قليل من هذه المعاني التي سبق إليها .

ويبدو أن الدارسين المحدثين قد تأثروا - إلى أبعد الحدود - في نظرتهم إلى ابن قتيبة بهذا التصريح الذي صدر عنه ، وبالتالي تصوروا - فيما يبدو - أنه لا يمكن أن يكون نصيب شاعر كأبي نواس من حديث ابن قتيبة سوى الطعن والتهجين ، على أساس أن الشاعر قد وقع تحت شروط المخالفة لما قرره الناقد .

وهذا - فيما أتصور - هو الذي دفع طه إبراهيم إلى التصريح بأن ابن قتيبة لم يقل في محدث بعد بشار : « ومما سبق إليه فأخذ منه » ثم تساؤله عما إذا كان من أسباب ذلك أن ابن قتيبة كان يرى أن من شأن المحدثين ألا يبدعوا وألا يخترعوا ، ورأى هدارة أن اعتراف ابن قتيبة لبشار بالسبق والاختراع كاف في الدلالة على إيمانه بقدرة المحدثين على الابتكار والإبداع ما دام قد اعترف بهذه القدرة لرعيم المحدثين بشار .

(١) ابن قتيبة المرجع السابق ٨١٤/٢ .

(٢) ابن قتيبة ، المرجع السابق ٨٠٨/٢ .

(٣) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٧٢/٢ ، ٧٧٣ ، ٧٨٣ .

والواقع أن ابن قتيبة اعترف بالقدرة على الابتكار والاختراع للمحدثين من الطبقة الثانية ممن تلوا طبقة بشار، وصرح بهذا الاعتراف في ترجمته للشاعر الثائر أبي نواس حيث سجل له وجوها من السبق والابتكار لعله لم يسجل مثلها من حيث العدد لغيره من الشعراء المتقدمين أو المحدثين .

يقول ابن قتيبة : « وقد سبق إلى معانٍ في الخمر لم يأت بها غيره ، كقوله في وصفها:

وَحَدِيثٍ لِدَاتٍ مَعْلَلٍ صَاحِبٍ .: يَثْنَاتُ مِنْهُ فَكَاهَةٌ وَمَزَاحَا
 قَالَ : ابغني المصباح قلت له : اتعد .: حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْؤُهَا مَصْبَاحَا
 فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزَّجَاجَةِ شَرْبَةً .: كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحَا
 ثم يورد له عدة مقطوعات وأبيات في هذا المعنى تستغرق أكثر من
 صحيفتين (١) يقول بعدها : « وله في تصاوير الكؤوس معنى سبق إليه ، وهو قوله :
 تَدُورُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ .: حَبْتَهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
 (٣ أبيات)

ويعقب ذلك بمثالين آخرين في نفس المعنى ، ثم يقول : « ومما سبق إليه في الخمر
 قوله :

مِنْ شَرَابِ أَلَذِّ مَنْ نَظَرَ الْمَعْمَى .: شَوْقِي فِي وَجْهِ عَاشِقِي بَابْتِسَامِ (٢)
 كذلك أورد له قوله في امرأة ، قال : « ومما يستحسن له قوله في امرأة » (ضمن
 أربعة أبيات) :

أَرَاكَ بَقِيَّةً مِنْ قَوْمِ مُوسَى .: فَهَمْ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى طَعَامِ

(١) الشعر والشعراء ٢ / ٨٠٨ - ٨١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ٢ / ٨١١ .

وقال: «أخذه منه العباس بن الأحنف»، ثم أورد بيتين للعباس في هذا المعنى (١). وهكذا يسجل ابن قتيبة السبق لأبي نواس، تأكيداً لاعترافه بهذه المقدرة للمحدثين بعد بشار، كما يسجل قيام العباس بن الأحنف بالأخذ من أبي نواس.

ويبدو أن السبب في عدم التفات طه إبراهيم وهدارة إلى تنويه ابن قتيبة بأبي نواس وسبقه، هو ما سيطر على تفكيرهما من أنه لا يمكن أن يحتوى حديث ابن قتيبة عن أبي نواس إلا على النقد والمؤاخذه.

ويتابع أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢١٠ - ٢٨٥) - رأس نحاة البصرة في زمانه - نفس الروح في تقبل شعر المحدثين والمساواة بينهم وبين القدامى، وتفضيل الجيد من الفريقين، بصرف النظر عن عصره، يقول: «وليس لقدم العهد يفضّل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق». ألا ترى كيف يفضّل قول عمارة، على قرب عهده:

تبحثم سُخْطِي فغيرَ بحثكم .: سخيلاً نفس كان نصحاً ضميرها (٢)

(٣ أبيات)

وها هو ذا يشيد بابن مناذر «قال أبو العباس: ومن حلّو المرائي وحسن التأبين شعر ابن مناذر، فإنه كان رجلاً عالماً مقدماً شاعراً مقلماً وخطيباً مصقلاً، وفي دهر قريب، فله في شعره شدة كلام العرب بروايته وأدبه، وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته، ولا يزال قد رمى في شعره بالمثل السائر والمعنى اللطيف واللفظ الفخم الجليل، والقول المتسق النبيل» (٣).

وفي حديث أبي الفرج الأصفهاني عن العباس بن الأحنف، يقول في سياق

(١) الشعر والشعراء ٢/ ٨١٦، وتجدر الإشارة إلى أن الصفحات من ٨٠٨ - ٨٢٦ تحتوي كلها نماذج

مما اختاره ابن قتيبة من جيد شعر أبي نواس وما سبق إليه، باستثناء ملاحظات جزئية بسيطة سبق أن تعرضنا لها.

(٢) الكامل للمبرد ١/ ٢٩.

(٣) الكامل ٢/ ٢٨٨.

حديثه : « وقدمه أبو العباس المبرد في كتاب (الروضة) على نظرائه وأطنب في وصفه ، وقال : (رأيت جماعة من الرواة يقدمونه) قال : وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخُلعاء ، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً ... وذلك بين في شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسب وكان حلواً مقبولاً غزلاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده ولم يكن هجاء ولا مداحاً (١) .

ويفوز أبو نواس - صاحب الدعوة الثائرة - بنصيبه من تنويه المبرد وإشادته ، فهو يورد مثالا من التشبيه الجيد قول أبي نواس :

فكأنني بما أزينُ منها . . . قعدى يزِين التحكيمياً

ثم يورد القطعة التي منها هذا البيت حتى ينتهي إليه ، ويبين سبب قولها من أن الخليفة تشدد عليه في شرب الخمر ، ثم يختتم حديثه بتقرير أن هذا المعنى لم يسبق إليه أحد (٢) . وجاء في (الموشح) للمرزباني حكاية عن المبرد أنه قال : « وقوله (يعنى قول أبي نواس) :

لا تُعْرَجُ بدارِسِ الأطلالِ . . . واسقنيها رقيقة السربالِ

هذا المصراع فائق في جودته جداً ، رقة ولطافة وسلسا وسهولة ، وتمامه غير مرضى ، وهو قوله :

ماتَ أربابُها وبادتْ قُرَاهَا . . . وبرأها الزمانُ برى الخلالِ (٣)

ونحن إنما نرمي من وراء هذا المثال إلى بيان كيف أن المبرد ، العالم اللغوي الذي وصِفَ بأنه من تلاميذ علماء القرن الثاني من حيث التعصب للقديم ضد الحديث ، ذلك المبرد نفسه يورد مطلقاً خمر يائراً يشيد به ، ويتجاوزه ليحدد الخطأ في البيت التالي له ، دون أن يتفوه بكلمة نقد واحدة يوجهها نحو مبدأ الافتتاح بالخمر .

ذلك عن أبي نواس ، أما معاصره الحسين بن الضحاك ، والذي امتد به العمر

(١) الأغانى ٢٥٢/٨ .

(٢) الكامل ٩٣/٢ ، ٩٤ .

(٣) الموشح ص ٢٧٠ .

إلى حوالى (سنة ٢٥٠ هـ) فقد نال من المبرد لقب (أشعر المحدثين) ، ففى الأغانى
 « حدثنا علي بن العباس بن أبي طلحة الكاتب قال : سمعت أبا العباس محمد بن يزيد
 الأزدي يقول : حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول :

أى دِيَاجَةَ حُسْنٍ . . هَيَّجَتْ لَوْعَةَ حُزْنِي (١)

(٨ أبيات)

ويدلّ خبر فى الأغانى على اهتمام المبرد بأخبار ذلك الشاعر ، والمناسبات التى
 قال فيها شعره ، مما جعله مصدراً لبعض أخبار الشاعر الخليل (٢) .

وهناك خبر أورده الصولى فى (أخبار أبى تمام) يطلب فيه محمد بن يزيد المبرد
 من عبدالله بن المعتز أن يعينه فى الحصول على أبيات لأبى تمام بعث بها إلى الحسن بن
 وهب يستسقيه نبيذا ، أنشدها الحارثى عند القاضى إسماعيل ، ويصف المبرد الشعر
 قائلا « لم أر أحسن منه فى معناه » ويقول : إنه كره أن يستعيده ، أو يقول له أكتبه ،
 لحال القاضى ، ويقول ابن المعتز : « فأنشدته الأبيات - وكنت أحفظها - فكتبها
 بيده » (٣) .

ولا تنكر الأخبار أن المبرد كان فى أول أمره منحرفا عن أبى تمام ، ولكنها تشير
 بقوة إلى رجوعه فى رأيه وأخذه فى استحسان شعره بعد ذلك ، إذ يحكى عبدالله بن
 المعتز كيف كان المبرد فى البداية لا يوفى أبا تمام حقه ، وكيف أن رجلا من الكتاب
 أنشده شيئا من شعر أبى تمام بحضرة ابن المعتز ، « فقال أبو العباس محمد بن يزيد : ما
 سمعت أحسن من هذا قط ، ما يهضم هذا الرجل حقه إلا أحد رجلين ، إما جاهلٌ
 بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، وإما عالم لم يتبحر شعره ولم يسمعه . قال أبو العباس
 عبدالله بن المعتز : وما مات إلا وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله ، مفرّ بفضل
 أبى تمام وإحسانه » (٤) .

(١) الاغانى ١٥٢/٧ .

(٢) الاغانى ٢٠٨/٧ ، ٢٠٩ .

(٣) الصولى ، أخبار أبى تمام ص ١٨٤ .

(٤) الصولى أخبار أبى تمام ص ٢٠٤ .

أما تقدير المبرد للبحترى وإعجابه بشعره فقد بلغ حداً لفت معاصريهما ، إذ يحكى أن المبرد - وكان متكبراً - لم يكن يقوم لأحد إلا للبحترى ، وأنه كان يعظمه ويتخلى له عن مجلسه ، وكان إذا أنشد من شعره قال : « أنشدنا شاعر دهره ونسيج وحده البحترى » (١) .

وفى (حلية المحاضرة) خبر مؤداه أن البحترى أنشد المبرد قطعة من شعره جعلت اللغوى الكبير يتعجب من حسنها ، وذلك بحضور عدد من الأدباء ، حيث راح البحترى يتساءل فى زهو عما إذا كان قد سبق الجميع فى معنى تلك القطعة ، وكان المبرد يجيب بالموافقة ويبدى استحسانه وإعجابه (٢) ، وهو كثير التنويه بالبحترى ، وفى نفس الوقت لم يكن يحمل على أبى تمام ، بل وقف منه موقفاً موضوعياً معتدلاً ، واعترف بأن له إحساناً كثيراً ، وهو موقف أبعد ما يكون عن صفة التعصب .

أكثر من هذا أنه صرح بأن للطائيين من المحاسن ما لعله يفوق منا فى شعر الأوائل ، وفى (أخبار أبى تمام) للصولى : « حدثنى أبو العباس عبد الله بن المعتز قال : جاءنى محمد بن يزيد المبرد يوماً فأفضنا فى ذكر أبى تمام ، وسألته عنه وعن البحترى ، فقال : لأبى تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة ، لا يقول مثلها البحترى ، وهو صحيح الخاطر حسن الانتزاع ، وشعر البحترى أحسن استواء وأبو تمام يقول النادر والبارد ، وهو المذهب الذى كان أعجب إلى الأصمعى . وما أشبه أباً تمام إلا بغائص يخرج الدرّ والمخشلبة ، ثم قال : والله إن لأبى تمام والبحترى من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجد فيه مثله » (٣) .

هذا ، ومن المعروف أن المبرد قد أفرد المحدثين بكتاب خاص هو (الروضة) (٤) ،

(١) أخبار البحترى للصولى ص ٥٠ - حاشية المحقق ، نقلها من (أمالى المرتضى) و (إنباه الرواة)

وابن عساكر

(٢) حلية المحاضرة للحاتمي ١ / ٢٢٠ ، ٢٢١ . وفى الخبر أن المبرد قد غضب على ابن درستويه (ت

٢٤٧) - راوى الخبر - لموقفه المتحامل على البحترى ، والخبر نفسه فى (زهر الآداب) ٢ /

٥٧٢ ، ٥٧٣ .

(٣) أخبار أبى تمام للصولى ص ٩٦ ، ٩٧ ، ذيل أخبار البحترى ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٤) الفهرست لابن النديم ١ / ٦٥ ، الأغاني ٨ / ٢٥٢ ، تاريخ بغداد ٢ / ٢٨٦ ، إرشاد الأريب

قال ابنُ عبدربه : إنه « قصد فيه إلى أخبار الشعراء المحدثين » (١) ، كما أفرد لهم باباً في كتاب (الكامل) ، وقال : « هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين ، حكيمة مستحسنة ، يُحتاج إليها للتمثل ، لأنها أمثكلُ بالدهر » (٢) .

وفي هذا الباب تتردد أسماء بشار ، وعبدالصمد بن المعدل ، وأبي العتاهية ، ومحمود الوراق ، وأبي نواس ، وعبدالله بن محمد بن أبي عيينة ، وصالح بن عبد القدوس ، ودعبل بن علي الخزاعي ، وأبي تمام ، وغير هؤلاء ممن اختار من أشعارهم (٣) .

ثم عقد باباً آخر (من التشبيه المصيب للعرب والمحدثين) ، وبعد أن يستوفي شرطاً من تشبيهات العرب يقول : « ثم نذكر بعد هذا طرائف من تشبيه المحدثين وملاحظاتهم ، فقد شرطناه في أول الباب ... ومن أكثرهم تشبيهاً لاتساعه في القول وكثرة تفننه واتساع مذاهبه الحسن بن هاني » .. ثم يورد عدداً من تشبيهاته وآخر من تشبيه بشار ومسلم بن الوليد وعيَّاس بن الأحنف وأبي العتاهية وعبدالصمد بن المعدل (٤) .

ولم يكن أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب - رأس مدرسة الكوفة في عصره - (٢٠٠ - ٢٩١) محمول عن تيار التنوق والنقد لشعر المحدثين ، والمشاركة في استحسان ذلك الشعر والتنويه بقائله ، ويلقانا في هذا الصدد قصة تفضيل ثعلب لمسلم بن الوليد على أبي نواس ، ففي خبر عن علي بن العباس قال : « حضرت مع البحري مجلس عبید الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد سألت البحري عن أبي نواس ومسلم بن الوليد أيهما أشعر ؟ فقال البحري : أبو نواس أشعر ، فقال عبید الله : إن أبا العباس ثعلباً لا يطابقك على قولك ، ويفضل مسلماً » (٥) .

(١) العقد الفريد ٦ / ٨٠ .

(٢) الكامل ١ / ٢٣٣ .

(٣) الكامل ١ / ٢٣٣ - ٢٤٧ .

(٤) الكامل ٢ / ١٠٥ - ١١٣ ، وينظر كتاب : (المبرد : حياته وأثاره) لمحمد عبدالخالق عضيمة

ص ٥٠ ، ٥١ حيث يتحدث عن موقف المبرد من الشعراء المحدثين .

(٥) الباقلاني ، إعجاز القرآن ص ١٧٦ .

ويقول الصولي : « ولقد حدثني بنو نبيخت - وما رأيت أبا العباس أحمد بن يحيى ، على جلالتة ، عند أحد أجهلّ منه عندهم - ... أنه قال لهم : أنا أعاشر الكتاب كثيرا وخاصة أبا العباس بن ثوابة ، وأكثر ما يجري في مجالسهم شعر أبي تمام ، ولست أعلمه ، فاختروا لي منه شيئا ، فاخترنا منه له ، ودفعناه إليه ... قال : فكان ينشدنا البيت من شعره ثم يقول : ما أراد بهذا؟ فنشرحه له ، فيقول : أحسن والله وأجاد » (١) .

وفي الأغاني « أخبرني علي بن العباس ، قال أنشدنا أبو العباس ثعلب ، فقال أنشدني حماد بن المبارك صاحب حسين بن الضحاك ، قال أنشدني حسين لنفسه :

لا وحيك لا أصبا .: فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا .: ح وإن كان موجعا
كبيدي من هواك أسا .: قم من أن تقطعا
لم تدع سورة الضنى .: في للسقم موضعا

قال : ثم قال لنا ثعلب : ما بقي من يُحسِن أن يقول مثل هذا » (٢) .

وحكى الصولي قال : « أنشد بعض الكتاب أحمد بن يحيى ثعلبا قول البحري للحسن بن وهب :

وإذا دجت أقلامه ثم انتحلت .: برقت مصابيح الدجى في كئيبه
فاللفظ يقرب فهمه من بعيد .: منا ويعد نيله في قريبه
حكّم سحائبها خلال بنائيه .: هطالة وقلبيها في قلبيه
كالروض مؤتلفا بحمسة نوره .: وياض زهرته وخضرة هشبه
وكانها والسمع معقود بها .: وجه الحبيب بدأ لعين محببه

(١) رسالة الصولي إلى مزاحم بن فاتك ص ١٦ .

(٢) الأغاني ١٧٤/٧ ، ١٧٥ .

واستعادها أبو العباس حتى فهمها ، ثم قال : لو سمع الأوائل هذا الشعر لما فضلوا عليه شعراء (١) .

تلك بعضُ مواقف اللغويين والنحاة ممن اتهموا بالتعصب للقدماء ضد المحدثين ، ولم يكن هناك قصد إلى تتبع هذه المواقف ، ولا قمتُ بإحصاء ما روي عنهم في هذا الصدد وإنما هي نصوص وأخبار وجدت عفواً في سياق أخبار الشعراء ، وهي تدل على أن موقف أولئك اللغويين لم يكن فيه أدنى قدر من العصبية ضد المحدثين من الشعراء . فهم يروون أشعارهم ، ويتذوقونها ، وينقلونها ويحكمون لها أو عليها كالشعر القديم سواء بسواء .

على أنه علت في خلال ذلك كله أصوات كثيرة من خارج ميدان اللغويين والنحاة تفضل الشعر الحديث ، وتشيد به ، وتشجعه ، وكانت هذه الأصوات من رجال شتى : أدباء وشعراء ومتكلمين وفقهاء ... الخ .

وعلى سبيل المثال : دافع الجاحظ (ت ٢٥٥) عن الشعراء المحدثين ، ونوه بكثير منهم ، وقدم الكثير من أشعارهم المختارة ، وتحدث عن المطبوعين من المولدين ، فذكر منهم بشاراً والميد الحميري وأبا العتاهية وابن أبي عيثة ، ثم وصف بشاراً بأنه « أطبعهم كلهم » (٢) ، وبأنه « من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع » (٣) ، وقال : إن « بشاراً مع العيوق ، وليس في الأرض مولد قروي بعد في المحدث إلا وبشاراً أشعر منه » (٤) .

كما نوه بالعتابي ، وقال : إنه « بمنى كان يجمع بين الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن ... وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف ذلك من شعراء المولدين ، كنجو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصاري ، وأشباههما » ، وقال : إنه « كان يحتذى حذو بشار في البديع ، ولم يكن

(١) نيل أخبار البحتري ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) الأغانى ١ / ٥٠ ، وينظر ٣ / ٨٤ .

(٣) الأغانى ٣ / ١٤٥ .

(٤) الحيوان ٤ / ٤٥٤ .

في المولدين أصوبُ بديعاً من بشار وابن هرمة» (١) .

ونحن نلاحظ أن بخط التطور البديعي كان واضحاً في ذهن الجاحظ ، الذي يبدو مُسكِكاً بالخيوط الذي التقطه من بعده صاحب (كتاب البديع) ، مما يدل على اهتمام واضح بشعر المحدثين روايةً ودرايةً كما يقول أصحاب علم الحديث .

وفي هذا السياق يفوز أبو نواس بإعجاب الجاحظ وتنويهه، خاصةً في شعره الطردى ، قال : « وصفات الكلاب مستقصاةً في أراجيزه ، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك ، والحذق بالصنعة ، وإن تأملت شعره فضلته » (٢) . وقد فضله هو بالفعل في أبياته التي يصف فيها إطراق الناس في مجلس كليب وائل على مهلهل بن ربيعة - شقيق كليب - في أبياته التي تصف نفس المشهد (٣) .

وقد أبدى ابن عبد ربه إعجابه بما اختاره الجاحظ من شعر أبي نواس حين اجتلب ذكره في (كتاب الموالى) حيث وصفه بأنه « من أقدّر الناس على الشعر وأطبعهم فيه » (٤) .

وإضافةً إلى ما سبق يرد الجاحظ على من يهزجون أشعار المولدين ، قال : « ولم أرَ ذلك قطّ إلا في رابوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصير لعرّف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان » (٥) .

ذلك موقف الجاحظ الناقد من شعر المحدثين (٦) .

وَألف أديبٌ شاعر هو ابن المعتز (ت ٢٩٦) كتابه في (البديع) ، وإذا كان قد استهدف تبيين أن البديع لم يسبق إليه المحدثون فإنه لم يستهدف ذم البديع في ذاته ولا ذم مسلك المحدثين فيه ، كما لم ينع على أبي تمام أسلوبه الجديد في البديع ، وكل

(١) الأغانى ١ / ٥١ ، وينظر ٣ / ٥٦ .

(٢) الحيوان ٢ / ٢٧ .

(٣) جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري ٧٩ .

(٤) العقد الفريد ٦ / ٨٠ .

(٥) الحيوان ٣ / ١٣٠ .

(٦) ينظر كتاب : النقد ، لشوقي ضيف ص ٥١ .

ما أخذه عليه هو الإفراط الذي يؤدي إلى الإساءة ، ولقد ألف ابن المعتز كذلك كتابه (طبقات الشعراء) وهو قد روى شعرهم وأشاد بهم دون أن يلزمهم بمنهج أو أسلوب تقليدي . وعندما ألف كتابا خاصا عن أبي تمام لم يكن الكتاب قاصرا على مساوي أبي تمام ، وإنما كان في مساوئه ومحاسنه ، فهو يعترف بأن له نصيبا من المحاسن ، وتدل الروايات على أنه كان يتخذ موقف الدفاع عن أبي تمام ضد من يعيبون شعره ، فهو يجادل إبراهيم بن المدبر ويرده عن حطه من أبي تمام ، ويظل ينشده من شعره الحسن حتى يفحّمه (١) . ونراه يهاجم بشدة أولئك الذين يرفضون الأشعار الحسنة مثل أشعار أبي تمام (٢) وهو يحفظ شعر أبي تمام ويملى منه على المبرد حين أعجب المبرد بقطعة لأبي تمام لم يذكر منها إلا شطرا من مطلعها (٣) .

ولربما قيل إن هذه الأخبار يرويها الصولي وهو من نعرف تعصبا لأبي تمام وتحيزا له ، فليس هناك ما يضمن سلامة هذه الأخبار ، أو على الأقل نسبتها لابن المعتز ، لكن لنرجع إلى كتاب ابن المعتز نفسه (طبقات الشعراء) وبدون استثناء ، لن نجد في حديثه عن أبي تمام كلمة واحدة تغض من الرجل ، تماما كالمفاجأة التي نحسها حين نقرأ ترجمة ابن قتيبة لأبي نواس ، فنحن نجد في حديث ابن المعتز عن أبي تمام نصوصا كالآتي :

« وما يستحسن من شعره - وشعره كله حسن - داليتُه في المأمون ... » (٤)
« وكذلك كل ما نذكر من قصائده هاهنا ، فإننا نقتصر على ذكر أوائلها نحو قوله... » ،
ويذكر له مطالع ثلاث عشرة قصيدة . ثم يقول : « ولو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد التي هي عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك ، وإن لم نذكر منها إلا مصراعا ، لأن الرجل كثير الشعر جدا ... وأكثر ما له جيد ، والردىء الذي له إنما

(١) أخبار أبي تمام ص ٩٧ - ٩٩ .

(٢) أخبار أبي تمام للصولي ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٣) أخبار أبي تمام للصولي ص ١٨٤ .

(٤) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ص ٢٨٤ .

هو شيءٌ يستغلق لفظه فقط ، فأما أن يكون في شعره شيءٌ يخلو من المعاني اللطيفة والمحسن والبدع الكثيرة فلا ، (١) .

ذلك رأى ابن المعتز ولعله أكثر صراحةً في قبول (جديد) أبي تمام من قدامة .

على أن احتمال تأثر ابن المعتز بالفكر الأرسطي لا يزال قائماً ، وأمام هذا الاحتمال الذي يرفضه - رفضاً قاطعاً - رجل مثل كراتشكوفسكي في دراسة له عن (البديع عند العرب) حيث يرى عدم تأثر ابن المعتز بالبلاغة الأرسطية (٢) ، فإننا لا نزال نجزم بأنه لا دخل للفكر اليوناني في قبول ابن المعتز لأبي تمام - كممثل للجديد في عصره - وهذا الرأي نسوقه مطمئنين ، حتى مع افتراض تأثر ابن المعتز بخطابة أرسطو ، ذلك أن هذا التأثير ، لو وجد ، فإن مجاله معروف ، أعني أن احتمال تأثر ابن المعتز بخطابة أرسطو مقصور على الجانب البلاغي من مؤلفات ابن المعتز ، وهو الجانب الذي تضمنه كتاب (البديع) .

ومن ناحية أخرى فإن النقاد قبل ابن المعتز وبعده واصلوا الترحيب بالجديد والتنويه به ، أما قبله فيصافنا تصريح ابن قتيبة بأن الله « لم يقصر .. العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر » (٣) ، كما يصادفنا ما سبق من تصريح المبرد من أنه « ليس لقدم العهد يُفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يُهتضم المصيب » (٤) . وأما بعده فتلقانا كلمات ابن عبد ربه : « إني رأيت أحر كل طبقة ، وواضعي كل حكمة ، ومؤلفي كل أدب أعذب ألفاظاً وأسهل بنية وأحكم مذهباً وأوضح طريقاً من الأول ، لأنه ناكص متعقب ، والأول بادئ متقدم » (٥) . وقد بلغ الأمر إلى الحد الذي جعل

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٨٦ .

(٢) راجع بحثاً بعنوان (البديع عند العرب في القرن التاسع) ضمن مجموعة بعنوان (دراسات في

تاريخ الأدب العربي) للمستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي ص ٣٧ .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٦٣ .

(٤) الكامل ١ / ٢٩ .

(٥) العقد الفرید ١ / ١٦ .

رجلا مثل الثعالبي (في القرنين ٤ ، ٥) يعلن أن « أشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبداع من أشعار المحدثين ، وكانت أشعار العصرين أجمع لنوادير المحاسن ، وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين ، لانتهاؤها إلى أبعاد غايات الحسن ، وبلوغها أقصى نهايات الجودة والظرف ، تكاد تخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز ، ومن حد الشعر إلى السحر » (١) .

وهكذا تتوالى حلقات السلسلة مطردة متسقة ، ويتوالى باطرادها قبول أعلام النقد العربي للشعر الحديث وإعجابهم به وإكبارهم له . ومن الغريب أن نرى باحثا ممتازا مثل المرحوم الأستاذ طه إبراهيم يضع المبرد وابن المعتز في صف واحد يرفض الحديث ويهاجم الجديد على الرغم من اعترافه بانتماء المبرد إلى طائفة اللغويين والنحاة وانتماء ابن المعتز إلى طائفة الأدباء ، ومع ذلك رأى أنهما يصدران عن مقياس واحد في النقد ، وأنهما يعييان شعر أبي تمام لخروجه عن سنن القدماء ولأن فيه عناصر مردولة (٢) ، ولقد رأينا أن المبرد تحول إلى الإعجاب بأبي تمام . وأما ابن المعتز فعلى الرغم من رسالته في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه فإن الرجل لم ينس المحاسن ، ومن ناحية أخرى فإن ما نقل عنه ، وما تأكدت صحته من واقع ترجمته لأبي تمام في (طبقات الشعراء) يؤكد قبول الرجل لشعره وإعجابه به ، إلى أقصى درجات الإعجاب .

وإذا كان أولئك النقاد - ممن عرضنا لهم - قد قبلوا الجديد ، ولم يتعصبوا ضده ، بل وقبلوا منه ما علموا أنه مخالف كل المخالفة لمذاهب القدماء ، وذلك دون أن يتعرضوا لأي أثر من آثار الفكر الأجنبي ، فإننا نقرر مطمئنين أن قدامة لم يكن أول من صرح بقبول الجديد ، ولم يكن قبول الجديد متوقفا على دخول تيار من الفكر الأجنبي إلى العقلية العربية . ولولا أن هذه العقلية بطبيعتها مستعدة لقبول الجديد لما كان في الإمكان أن تكون الغلبة في النهاية لمذهب أبي تمام في البديع - وإن حدث فيه بعض التعديل - وهو المذهب الذي سيطر على الشعر العربي من القرن العاشر الميلادي إلى

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ١٦/١ ، ١٧ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطلح إبراهيم ص ١٢٤ .

القرن العشرين ، كما يقول عبدالقادر القط ، والذي لم يكن أبو تمام خلاصة له كما تصور الآمدي ومعاصروه ، بقدر ما كان نقطة للبداية . (١) .

وقد يكون هذا الجديد الذي احتفل به النقاد العرب شيئا تافها ، وقد يكون انتصار مذهب أبي تمام أكثر ضررا مما لو قضى عليه ، ومع ذلك فنحن نناقش المبدأ: هل ظل قبول الجديد معدوما ؟ أو مشروطا بشروط لا تتيح القبول إلا لما كان كالقديم - حتى طرأ العنصر الأجنبي متمثلا في قدامة ، فحرر النقد العربي من رفض الجديد ؟ . ونحن نترك الإجابة للنصوص السابقة .

ونعود إلى موضوعنا فنرى أن التصور القديم لموقف قدامى اللغويين والنحاة من الشعر الحديث ، وهو التصور الذي يتهم أولئك العلماء برفض الجديد والتعصب للقديم - هذا التصور لا يستطيع أن يقدم حلا لا مقنعة للمشاكل السابقة ، وهي :

١ - مشكلة النصوص الوفيرة التي يُشيد فيها أولئك النقاد بالشعر المحدث حتى مع علمهم بخروج بعضه صراحة عن المنهج المألوف ، بل إنهم ليفضلون كثيرا الشعر المتحرر من سيطرة القديم على الشعر الذي سار في ركابه .

٢ - مشكلة ما يقال من رفض اللغويين الاحتجاج ببعض أشعار الجاهليين وأوائل الإسلاميين وهي مشكلة يوجد القول بأن أولئك اللغويين حكموا الزمن في الشعر ، ولم يقبلوا منه إلا ما كان قديما ، وذلك حين نراهم يرفضون بعض القديم أيضا .

٣ - التناقض الذي يسببه هذا التصور في مسار الفكر النقدي عند العرب ، كيف ظل النقد لفترة - تزيد على قرنين - يرفض كل ما هو جديد ويتعصب لكل ما هو قديم ، ثم راح بعدها ولا هم له إلا تسجيل الجديد والمفاضلة على أساسه ، وفتح الأبواب في الكتب لدراسته ؟ .

(١) Elkott (A), Arab Conception of Poetry as Illustrated in Kitab Al - Muwazanah Bayna Abi Tammam Wal - Buhturi, P . 18 .

٤ - ما تشير به محاولة تعليل التحول السابق - إزالة للتناقض - بعزوه إلى عنصر أجنبي جاء إلى الفكر العربي والنقد العربي بالذات عن طريق دعاة النقد اليوناني ، ومن المعلوم أن مجرد الإعلان عن رأى ما لا يكفى لشيوع هذا الرأى وانتشاره ، إذ يلزمه المناخ المهيأ لقبول هذا الرأى ، المستعد - بطبيعته - لتبنيه والدفاع عنه ، ولولا ذلك لاحتق فور إعلانه .

ورغم كل تلك المشاكل ، ورغم ما تفيض به الكتب القديمة من نصوص قاطعة فى قبول قدامى النقاد للشعر الحديث ، فإن الدارسين المحدثين ظلوا - بلا استثناء - على ترديد القول بتعصب أولئك النقاد للشعر القديم ، ومهاجمتهم للحديث .

والغريب أن أصحاب التصور القديم هؤلاء ، لا يملكون من الأدلة على تأكيد هذا التصور سوى عدد قليل جداً من النصوص لا يمكن أن يقوم دليلاً على ما حاولوا أن يؤكدوه فى كل المناسبات .

فالأصمعي يروى أنه جلس إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج ، أو ثمانى حجج فى رواية أخرى ، فما سمعه يحتج ببيت واحد إسلامى ، وقد وقف عند هذا النص طه حسين وطه إبراهيم وأحمد أمين وغيرهم ، وقال أبو عمرو « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية لما فضلت عليه أحداً » ، هذا النص استشهد به كل من طه إبراهيم ومحمد مندور ومحمد مصطفى هدارة . وقال ابن الأعرابي : « إنما أشعار هؤلاء المحدثين - مثل أبى نواس وغيره - مثل الريحان يشم يوماً ويلوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر ، كلما حركته ازداد طيباً » ، وهذا النص أورده طه إبراهيم وهدارة . ويحكى عن ابن الأعرابي أيضاً أنه أعجب بأرجوزة لأبى تمام عند سماعها على أنها لشاعر من هذيل ، وأنه أمر بكتابتها ، فلما علم أنها لأبى تمام قال : خرق ، خرق ، وقد أورد هذا الخبر مندور وهدارة ، وهو يقول عن شعر أبى تمام : « إن كان هذا شعراً فما قالت العرب باطل » والنص موجود عند مندور وهدارة . بل يحكى عن أبى عمرو بن العلاء ما ليس له دلالة فى الموضوع إطلاقاً ، كقوله عن الفرزدق وجريير « لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته » . وهذا النص وارد عند طه إبراهيم ومندور .

وإسحاق الموصلي نفسه - وهو شاعر محدث - يُستشهد بأقواله على أنه من أنصار القديم ، فهناك خير في الموشح للمرزباني يقول « كان إسحاق الموصلي لا يُعدُّ أبانواس شيعياً ، ويقول : هو كثير الخطأ ، وليس على طريق الشعراء » والنص استشهد به طه إبراهيم وهدارة . ويقول إسحق لأبي تمام « ما أشد ما تتكئ على نفسك » يعنى أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله ، ويقول طه إبراهيم : إنه كان يرى أن يشأرا كثير التخليط ، وأن شعره متفاوت ، وأنه كان يفضل مروان لاستواء شعره ، كذلك يورد قصة خلف الأحمر مع ابن مناذر الذي طلب من خلف أن يفاضل بين شعره وشعر الجاهليين فرماه بصحفة مملوءة مرقاً ، وأيضا قصة ابن مناذر مع أبي عبيدة حين بعث إليه الأول : أن اتق الله واحكم بين شعري وشعر عدى بن زيد ، ولا تقل ذلك جاهلي وهذا إسلامي ، وذاك قديم وهذا محدث فتحكم بين العصرين لا بين الشعرين .

وينقل هدارة عن (الوساطة) للجرجاني خبر تعصب أبي رياش القيسي على المحدثين خاصة البحترى وأبا تمام .

تلك هي مجموعة النصوص التي يستند إليها الدارسون المحدثون في تأكيدهم لرفض قدامى النقاد واللغويين للشعر المحدث ، وكما نرى ، فإن معظمها نصوص عامة غير قاطعة في دلالتها ، ولا تعبر عن اتجاهات مستقرة لدى أصحابها ، وماذا يمكن للباحث أن يستخلص - على سبيل المثال - من نص أبي عمرو الذي يطلق فيه على طبقة الفرزدق وجريير صفة « المحدثين » ؟ ثم ماذا يمكن للباحث أن يستخلص من قول إسحاق الموصلي عن أبي تمام : إنه يتكئ على نفسه ؟ .

ولقد سبق أن أشرت إلى ظاهرة التعسف في اختيار النصوص وبترها بغرض تحميلها الفكرة التي يريد الباحث ، ومن الأمثلة على ذلك الخبر المروي عن تعصب أبي رياش القيسى ضد المحدثين وبالذات ضد البحترى وأبى تمام ، هذا الخبر استشهد به هدارة ووقف بسياقه عند النقطة التي تكفل له تأييد فكرته - التي آمن بها بعيداً عن النص - ومع ذلك فانحبر كما ورد في الوساطة (ص ٥١) له بقية ، فإن أبا رياش سمع شعرا للبحترى فأعجب به وسأل عن صاحبه فأخبروه ، فرجع عن رأيه وحض الناس على رواية شعره . ومن الطريف أن نذكر أن هؤلاء الدارسين وقفوا طويلاً عند ما يروى عن ابن مناذرٍ والحاحه على خلفٍ وأبى عبيدة ليحكماً بينه وبين عدى بن زيد ، واعتبر ذلك دليلاً ضد الناقدين ، وتدل رواية في (فحولة الشعراء) للأصمعي على أن ابن مناذر ذلك - وليس خلف أو أبو عبيدة - هو الذي كان لا يعدل بعدي أحداً ، وأنه كان يفضل على جميع الشعراء ، بحيث يصبح ما يدعيه على الناقدين من تفضيلهما لعدى ضرباً من التهكم عليهما والسخرية بهما (١) .



بقيت هناك مسألة أخيرة تتعلق ببعض النصوص التي تعد صريحة في تخصيص الشعر المحدث ببعض أوجه النقد ، من ذلك ما يروى عن أبي عمرو بن العلاء ، وقد سئل عن المولدين فقال « ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم ، ليس النمط واحداً : ترى قطعة ديباج وقطعة مسيح وقطعة نطع » (٢) ، وهناك نص في الأغاني حيث يقول الأصمعي عن إبراهيم بن هرمة ، بعد أن يعلن إعجابه الشديد به وبشعره « ما يؤخره عن الفحول إلا قرب عهده » (٣) .

ويصرح ابن الأعرابي - فيما نقل صاحب الموشح - بأن « أشعار هؤلاء المحدثين - مثل أبي نواس وغيره - مثل الريحان ، يشم يوماً ويزوى فيرمي به ، وأشعار القدماء مثل المسك والغنبر كلما حركته ازداد طيباً » ، وينقل عنه صاحب الموشح أيضاً قوله ، وقد سأله رجل عن بعض شعر أبي نواس : « أما هذا من أحسن الشعر؟ فقال :

(١) فحولة الشعراء ، للأصمعي ١٩ ، ٢٠ .

(٢) العمدة ١/٩٠ ، ٩١ .

(٣) الأغاني ٥/٢٦٤ .

بلى ، ولكن القديم أحب إلى ، (١) .

فى هذه النصوص صفتان أساسيتان وصف بهما الشعر الحديث ، ويمكن الوقوف عندهما :

الأولى ، صفة التفاوت ، التى عبر عنها أبو عمرو بقوله : « ليس النمطُ واحداً ... الخ » وحتى لاتزعجنا هذه الصفة ، فتصور أنها كانت مأخذاً خطيراً يمكن أن يتسبب فى رفض شعر جيل بأكمله أو أجيال ، تشير إلى أنه كان هناك ما يشبه الإجماع على اتصاف شعر النابغة الجعدى بهذه الصفة ، وذلك عندما يصفون ذلك الشاعر بأنه « صاحب خُلُقَان ، عنده مطرف بألف وخلق بدرهم » (٢) فيما يحكى الأصمعى عن بعضهم ، وقد حكاها مرة أخرى عن الفرزدق الذى قال عن النابغة « صاحب خُلُقَان يكون عنده مطرف بألف وخمار بوافٍ » (٣) ومرة أخرى بروى الخبر عن الأصمعى عن أبي عمرو بن العلاء عن الفرزدق ، ويعقب الأصمعى بقوله : « وصدق الفرزدق ، بينا النابغة فى كلام أسهل من الزلال ، وأشد من الصخر ، إذ لَان فَذَهَبَ » (٤) ثم يمثل لهذا التفاوت بشعر له من قصيدة واحدة تفاوت بين الجزالة واللين . وينقلون عن محمد ابن سلام قوله : « كان الجعدى مختلف الشعر » (٥) ، أكثر من هذا فإن ابن سلام يحكى أن الأصمعى كان يُعجب من النابغة بتلك الصفة ويمدحه بها « وكان الأصمعى يمدحه بهذا ، وينسبه إلى قلة التكلف فيقول : عنده خِمار بوافٍ ومطرف بألف » (٦) ويقول ابن قتيبة : « وكان العلماء يقولون فى شعره : خِمار بوافٍ ومطرف بألف ، يريدون أن فى شعره تفاوتاً ، فبعضه جد مبرز ، وبعضه ردىء ساقط » (٧) .

(١) الموشح ص ٢٤٦ .

(٢) الموشح ص ٦٤ .

(٣) الخبر فى الموشح ، وفى الأغاني ٢٨/٥ .

(٤) الموشح ص ٦٤ .

(٥) الموشح ص ٦٥ وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٠٥ .

(٦) ابن سلام ، طبقات الشعراء ص ١٠٥ .

(٧) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٢٤٩/١ .

والصفة الثانية : التي وُصفَ بها شعرُ المحدثين جاءت على لسان ابن الأعرابي ، فهو يرى أن أثرَ هذا الشعر سريعُ الزوال ، وأن روعته تبدُو للوهلة الأولى ثم تتلاشى ، على عكس الشعر القديم الذي يحتفظ بروعته بصفة دائمة . والوصف بالروعة في الظاهر ، والأثر المؤقت يُحدثه الشعرُ ثم لا يلبث أن يتلاشى ، هذا الوصف قديم ، عُرف به شعرُ شاعر مشهور هو ذو الرمة ، فأبو عبيدة يحكي عن جرير وُصفه لشعر ذى الرمة بأنه « نَقَطُ عروسٍ وأبعارُ ظباءٍ » (١) ويذكر محمد بن سلام عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « إنما شعر ذى الرمة نَقَطُ عروسٍ تَضْمِحِلُ عن قليل ، وأبعارُ ظباءٍ لها مَشَمٌ في أولِ شَمِّها ثم تعود إلى أرواحِ البعْرِ » ، ويحكي مضمون الخبر أيضا عن الفرزدق ، وعن جرير في موضع آخر ، ويعقب الأصمعي على ذلك كله بأن « شعر ذى الرمة حلوا أول ما تسمعه فإذا كثُر إنشاده ضُعب ، ولم يكن له حُسْن » (٢) .

وهذا هو مضمون النقد الذي وجهه ابن الأعرابي إلى شعر المحدثين ، وهو ما يمكن تسميته بسرعة زوال الأثر الذي يحدثه الشعر ، إلى جانب صفة التفاوت التي قال بها أبو عمرو ، والتي أجمع النقاد - كما رأينا - على أنصاف شعر النابغة الجعدي بها ، وكان أبو عمرو نفسه إحدى حلقات سلسلة الرواة الذين نقلوا الخبر عن الفرزدق ، أحد من وُصفوا شعر النابغة بذلك الوصف . ولاشك أن الرأي حاز قبول أبي عمرو ، بدليل أنه لم يعارضه ، وحاز أيضا قبول الأصمعي ، الذي تولَّى شرحه ، كل ذلك دون أن ينفي الجعدي من سجل الشعراء ، ودون أن يرفض شعره على أي من المستويين الفني واللغوي .

وبالمثل يمكن أن يُقال فيما وُصف به ابن الأعرابي شعر المحدثين من عدم العمق وسرعة زوال أثره ، فقد وُصف شعر ذى الرمة بنفس الوصف في ألفاظ أخرى ، لقد قيل عن شعره إنه نَقَطُ عروس تزول بسرعة ، وأبعار ظباء تتلاشى رائحتها (التي وُصفوها بالطيب) هي الأخرى بسرعة ، فهو حلوا أول ما تسمعه ، فإذا كثُر إنشاده ضُعب ، كشعر المحدثين ، فيما وُصفه ابن الأعرابي ، حين قال إنه كالريحان يُشم يوما

(١) الموشح ص ١٧٠ .

(٢) الموشح ص ١٧١ .

ويذوى . ومع ذلك لم يُطرد ذو الرمة من جنة الشعراء ، ولم يرفض شعره ، حتى علي الرغم من قول الأصمعي « ليس شعره يشبه شعر العرب .. إلا واحدة تشبه شعر العرب ، وهي التي يقول فيها :

• والبابُ دون أبي عُسَّانَ مسدودٌ . (١)

وهكذا يتضح أن الوصف بالتفاوت ، والوصف بسرعة زوال الأثر ، لم يكونا ليرفضا شعرا ، خاصة إذا كان شعر أجيال عديدة في أمة مترامية الأطراف . وتجدر الإشارة هنا إلى بعض نصوص للجاحظ تتعلق بالموقف من المحدثين ، والرجل غير متهم بالعصبية عليهم ، وسبق أن رأينا إعجابَه الواضح بيشار وأبي نواس ، كما رأينا تتبعه مجرى الشعر المحدث وتطورَه الفنى المتمثل في تيار البديع ، ومع ذلك نجد من المناسب أن نقف عند بعض تصريحاته التي قد تفهم في ظاهرها على غير وجوهها .

فهو يقرر في أحد المواضع « أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة » ، ثم يشفع ذلك بقوله : « وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه . وقد رأيت ناساً منهم يهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصير لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أى زمان كان ، (٢) .

وتمثل نهاية النص صياغة طيبة للموقف الذي يمكن الاطمئنان إلى صدوره من الجاحظ ، أعني عدم تحكيم جنس الشاعر أو زمنه في الحكم عليه ، وفي ضوء هذا الموقف يمكن أن يُحمل تصريحه بأن عامة العرب أشعر من عامة المولدين - مع اعترافه بأن ذلك ليس بواجب دائما ، كما يجب أن يُحمل على غلوه المعهود في الدفاع عن العرب ضد الشعوية ، كأن يقرر أن : « البديع مقصور على العرب » (٣) . أو أن

(١) الموشح ص ١٧٠ .

(٢) الحيوان ٣ / ١٣٠ .

(٣) البيان والتبيين ٤ / ٥٥ .

الارتجال خاصية فيهم ... الخ .

وأما شهادته بأن هناك من كان يهريج أشعار المولدين فيجب حملها على ما صرح به في (البيان والتبيين) من اختلاف غايات الرواة من رواية الأشعار ، وهو ما سنعرض له فيما بعد (١) . فمثل هذه الفئات لا يُنتظر منها الاهتمام بأشعار المحدثين ، لا لأنها غير جديرة باهتمامهم ، ولكن لأنها خارج نطاق مهامهم ، وهو في حقيقته مسلك بعيد عن التعصب ، للشعر أو عليه ، استناداً إلى مجرد عامل الزمن .

من هنا فنحن في النقد القديم أحوج - كما قلت - إلى أن نبحث عن اتجاهات عامة ، ونتائج تؤدي إليها هذه الاتجاهات على ضوء ملابسات متعددة ، أكثر من حاجتنا إلى التمسك بحرفية هذا النص أو ذاك ، لأن التمسك بالنصوص الجزئية - منفصلة عن ملابساتها التاريخية ، وعن غيرها من النصوص - يحول دون شمول النظر ، ويحول بالتالي دون دقة الحكم .

الباب الثالث
دراسة لطبيعة دعرة
أبي نُوَاسٍ ومذهب أبي نُوَاسٍ

مقدمة :

بعد هذا العرض لتصور الدارسين المحدثين لموقف قدامى النقاد من الشعر المحدث ومن حركات التجديد فيه بصفة عامة ، وهذا ما دار حوله الباب الأول ، ثم عرض المشاكل التي يثيرها هذا التصور ، وهو ما دار حوله الباب الثاني ، يبدو من المناسب أن نعرض لحقيقة موقف أولئك النقاد - كما نراها - من أشهر محاولتين للتجديد في الشعر العربي ، وهما دعوة أبي نواس ومذهب أبي تمام . ويدفعنا إلى القيام بهذا العمل أسباب منها :

١ - ما رأيناه من اضطراب تصور الدارسين المحدثين لموقف النقاد العرب من هاتين المحاولتين .

٢ - أننا لا نوافق على النغمة السائدة في هذه الدراسات والتي تذهب إلى القول بأن حركات التجديد كانت عرضة للهجوم من فريق من النقاد تزعم التعصب للقديم وقدر له الانتصار في النهاية .

٣ - أننا بعدم موافقتنا على آراء غيرنا نكون ملزمين بتبيين حقيقة الصورة على النحو الذي تبدو لنا عليه ، حتى تتضح الحقيقة ، ويتضح بالتالي الأساس الذي نستند إليه في رفض التصور القديم للموقف .

ويوجد إجماع على أن المحاولتين المشار إليهما هما أشهر محاولات التجديد في الشعر العربي ، وإجماع أيضاً على أن مذهب أبي تمام تعرض للهجوم باعتباره مذهباً جديداً قام أنصار القديم بمحاربتة (١) ، وأما دعوة أبي نواس فاختلفوا فيها ، فرأى البعض أنها قوومت وتعرضت للهجوم من جانب أنصار القديم الذين مثلهم

(١) راجع في هذا : تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطف إبراهيم ص ١٠٤ ، ١٠٥ . النقد المنهجي عند العرب لمنصور ص ٧٤ . شكرى عياد ، كتاب أرسطو طاليس في الشعر ... ص ٢٤٨ ، حركات التجديد في الشعر العباسي لعبد القادر القط ص ٤١٩ . وراجع إبراهيم سلامة في عرضه للحوار حول أبي تمام كما نقله صاحب (الموازنة) ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٢٩٩ وما بعدها .

الرواة واللغويون (٢) ، أو مثلهم الأئمة وعلماء الدين (٣) ، ورأى آخرون أنها لم تُهاجم ولم تُقَمَّ حولها خصومة على النحو الذي حدث حول أبي تمام .

ما السبب في عدم قيام خصومةٍ حول دعوة أبي نواس ؟

يجيب مندور والقطب بأن السبب هو أن تجديد أبي نواس - كما دعا إليه - لم يكن تجديدًا حقيقيًا ، وإنما كان يتناول مسائل فرعية ، ثم هو لم يكن مخلصًا في دعوته ، كما يقول مندور (٣) ، ولم يقم بشورة فنية على تقاليد الشعر وإنما كانت دعوته نوعاً من الدفاع عن لون من السلوك الخلقى كما يقول القط (٤) ، هذا على الرغم مما يقرره مندور من أن مذهب أبي تمام إنما قام على ضربٍ من التجديد في الصياغة وأنه كان تجديدًا سطحيًا ، وما يقرره القط من أن تجديد أبي تمام جاء محدودًا في داخل الإطار التقليدي .

هناك إذن محاولتان للتجديد كل منهما سطحية لم تحاول أن تسلك بالتجديد طريقًا جادًا يتناول جوهر الشعر ويغير من روحه ، وإن كانت إحدى المحاولتين قد مرت دون مهاجمة بينما اشتعلت الخصومة حول المحاولة الثانية فأوجدت حركة نقدية ضخمة اتخذت طابع الصراع بين الجديد والقديم .

على أن القول بسطحية تجديد أبي نواس ، أو سطحية دعوته بالذات ، محل نظر ، فهناك من يرون أن تلك الدعوة كانت أعظم ما شهدته حياة الشعر العربي من محاولات تجديد هذا الشعر ، لقد كان أبو نواس يريد - كما يقول طه حسين - أن ينهج بالشعر منهجا جديدا لم ينهجه المتقدمون ، أو قل : إنهم نهجوه ولكنهم لم يشعروا بذلك ولم يتخذوه عقيدة أو مذهباً في الأدب ... وهو لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها ، وإنما كان يدعو إلى تجنب سنة القدماء في المعاني والألفاظ جميعاً ، كان يريد ألا يستعير المحدثون معاني

(١) راجع : مشكلة السرقات في النقد العربي ، لهدارة ص ٢١٢ .

(٢) طه حسين ، حديث الأربعاء ٢ / ١٠ ، ١١ .

(٣) مندور ، النقد المنهجي ... ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٤) عبد القادر القط ، حركات التجديد ... ص ٤١٦ .

القدماء لأن لهم معانيهم ولهم حياتهم ، وكان يريد ألا يسرف المحدثون في استعارة ألفاظ القدماء لأن لهم ألفاظهم ، أى لأن لغتهم تطورت كما تطورت حياتهم ، أو لأن حياتهم تطورت فيجب أن تتطور اللغة لتلائم هذه الحياة ... ومن هنا نفهم أن أبا نواس كان أشد الناس إلحاحاً في تغيير الأسلوب الشعري وتجديد اللفظ والمعنى (١) ، ويقول طه إبراهيم إن «أبا نواس ناقد فذّ ، ناقد وحيد في تاريخ النقد الأدبي ، ناقد يبحث في الصلة بين الأدب والحياة ، ويحاول أن يلائم بينهما» (٢) .

وإذا كنا لا نجد في تاريخ النقد العربي خصومةً ونزاعاً حقيقيين حول تلك الدعوة ، فإن السؤال الأساسي يظل قائماً : لماذا لم تَقُمْ ثورة حول دعوة أبي نواس أيضاً؟ إن القول بأن تلك الدعوة تعرضت للهجوم - على نحو ما يذهب هدارة - يمكن أن يقدم حلاً سهلاً للموقف ، غير أن عدداً من الحقائق الهامة تلح في عدم دقته ، فأبو تمام تعرض للهجوم من جانب (أنصار القديم) وكان أنصار القديم ، أو من سموا كذلك ، يقفون في صف البحترى ، والباحترى على هذا الأساس هو ممثل الأسلوب التقليدي الذي حافظ على عمود الشعر ، وهو - على هذا الأساس - شاعر يسير في ركاب القدماء ، وقد حاز إعجاب خصوم أبي تمام ، أى خصوم الجديد لهذا السبب ، لكن تصوير الموقف على هذا النحو لا يلبث أن يتعدل ، وبالتالي يتزعزع التصور القديم الذي استقر عليه الدارسون المحدثون حين طرح مثل هذا السؤال :

هل كان البحترى حقاً شاعراً قديماً تقليدياً ، لم يخرج على أى شيء من السمات التقليدية للشعر العربي ؟

يقول طه حسين إنه كان هناك نوعان من الاختلاف بين أنصار القديم وأنصار الحديث «اختلاف في اللفظ .. واختلاف في المعنى نشأت عنه مدرسة أبي نواس التي أخرجت البحترى وغيره من أولئك الشعراء الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد» (٣) ، وقسم طه إبراهيم الشعراء إلى طائفتين : إحداهما تحتذى القدماء ..

(١) طه حسين ، حديث الأربعاء ٢ / ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١١٢ .

(٣) طه حسين ، حديث الأربعاء ٢ / ٨ .

والثانية مالت إلى التجديد ، ومن شعرائها البحتري (١) ، ويذكر القط « أن شعر البحتري كان يمثل كل ما طرأ على الشعر العربي عامة من تطور حتى العصر العباسي ... وما كان لشاعر كبير كالبحثري تقلد زعامة الشعر طول حياته أن ينسلخ عن طبيعة عصره ، ولو فعل لما استطاع أن يظفر بتلك المكانة التي بلغها حينذاك » (٢) كذلك صرح مندور بأن أبا تمام والبحتري إنما يمثلان معا الكلاسيكية الحديثة (٣) .

والواقع أن القدماء أنفسهم قد أحسوا بانتماء الشعاعين إلى نفس الروح ، روح الأخذ بالجديد والجرى وراء البديع - وإن سجلوا الفرق في تناول كل منهما له - فصرح أبو الفرج بأن البحتري كان يتشبه بأبي تمام في شعره ويحذو حذو مذهبه في البديع (٤) ، وصرح صاحب (الموازنة) بأن كثيرا من الناس قد جعلوا « البحتري وأبا تمام طبقة » (٥) ، وجعلهما ابن رثيق معا من أصحاب التصنيع الذين يحرصون على البديع في شعرهم (٦) ، وذهب إلى نفس الرأي ياقوت الذي نقل عن أبي الفرج حديثه في الموضوع (٧) ، وكذلك فعل البديعي في (هبة الأيام) (٨) .

لم يكن البحتري إذن شاعرا تقليديا بالمعنى المفهوم ، وكان ذلك مفهوما لدى القدماء أنفسهم حتى من وقفوا في صفه ضد أبي تمام ، وهم من أطلق عليهم (أنصار القديم) وهكذا تتعقد المشكلة أكثر ؟

فالخلاف قائم حول تعرض دعوة أبي نواس لهجوم أنصار القديم ، وقائم أيضا حول القيمة التجديدية لدعوته . لكن الإجماع قائم على وجود الهجوم من أنصار القديم ضد أبي تمام .

(١) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي ص ١٠٢ .

(٢) عبدالقادر القط ، حركات التجديد في الشعر العباسي ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٣) النقد المنهجي ٢٥٨ .

(٤) أغاني ١٨ / ١٦٨ ساسي .

(٥) الموازنة ٦ / ١ .

(٦) العمدة ١ / ١٣٠ ، ١٣١ .

(٧) ياقوت ، إرشاد الأريب ١٩ / ٢٤٩ .

(٨) هبة الأيام ليوسف البديعي ١٢ .

غير أن أصحاب هذا الرأي يقررون أن تجديد أبي تمام لم يتجاوز الصياغة، وأنه كان تجديدًا سطحيًا، ومع ذلك تعرض للهجوم.

لكن شاعرًا مجددًا آخر - أحدثَ زمنًا من أبي تمام - هو البحري، لم يتعرض للهجوم بل حاز إعجاب الناثرين على أبي تمام.

وسلسلة الشعراء المجددين - الذين سلطت عليهم الأضواء - ليست مقصورة على أولئك الشعراء الثلاثة، فهناك مسلم بن الوليد، الذي كان لتجديده جانبان: -

الأول : أنه صنع في مقدمات قصائده صنيعًا يشبه صنيع أبي نواس من حيث التحرر من المقدمات التقليدية (١).

الثاني : أنه كان الرائد المباشر لمذهب أبي تمام في البديع. ومع ذلك لم يهاجم مسلم، كما لم يهاجم أبو نواس أو البحري، وذلك على العكس مما حدث مع أبي تمام.

هنا يصبح السؤال: ما (الشيء) الذي هاجمه خصوم أبي تمام، ما دام أحد لم يهاجم روح التجديد أو الدعوة إليه عند الشعراء الآخرين؟

الواقع أن تبين هذا (الشيء) الذي كان عرضة للهجوم عند ذلك الشاعر من جانب مهاجميه هو بُغْيَتنا في هذا الباب لأن الوصول إليه هو الذي يوضح ما إذا كان العداء للتجديد هو سبب الهجوم أو أن أمورًا أخرى كانت هي السبب.

(١)

موقف النقاد من أبي نواس

إذا كنا قد حصرنا هدفنا إلى هذا الحد ، فإن الوفاء بعرض رأينا عرضاً صحيحاً لا زال يتطلب كلمة حاسمة في موقف النقاد من أبي نواس .

يسلك هدارةُ أبا نواس ضمن الحارجين على نهج القصيدة وعمود الشعر ، ويرى أن دعوته كانت مشوبة بروح الواقعية ، ويرفض رأى مندور الذى لا يرى فى دعوة أبى نواس أى تجديد (١) ، ويرى أن تجديده لم يكن قاصراً على إحلال وصف الخمر محل وصف الأطلال فى أول القصائد ، ولكنه خرج فعلاً على عمود الشعر فى ألفاظه ومعانيه وأوزانه فى قصائده البعيدة عن شعر المدح ... التى كان الشاعر ينطلق فيها مع سجيته وطابعه الفنى دون حدود أو قيود .

ويستدل على رأيه بما ذهب إليه من تحامل الرواة على أبى نواس واتهامهم له بالخروج عن المؤلف من شعر العرب كقول ابن شرف : إن أبا نواس أول الناس فى خرم القياس ، وقول إسحاق : إنه ليس على طريق الشعراء ... إلخ (٢) .

والحقيقة أن لكلام هدارة عن دعوة أبى نواس وشعره جانبين :

الأول : أنه خرج على عمود الشعر ونهج القصيدة .

الثانى : أن الرواة والنقاد ثاروا عليه ، وهى الثورة التى يرى هدارة أن من نتائجها رجوع الشاعر عن دعوته لأن الرواة كانوا سيخملونه حتماً إذا سائر دعوته فى مدائح (٣) .

(١) هدارة ، مشكلة السرقات فى النقد العربى ص ٢١٢ وراجع محمد مندور ، النقد المنهجي

ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) هدارة ، المرجع السابق ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٣) هدارة ، المرجع السابق ص ٢١٢ .

أما عن دعوة أبي نواس للخروج علي نهج القصيدة فهي أمرٌ مسلمٌ به في قصائده الخمرية المعروفة . لكن ذلك لم يتسبب في ثورة النقاد عليه أو على مسلم بن الوليد أو أي من الشعراء الذين هجروا المقدمة الطللية سواء في الجاهلية أو الإسلام (١) ، ونحن بهذا لا نقلل من قيمة دعوة أبي نواس - دعوته لا تجديده - فهي في ذاتها عظيمة الأهمية ، وحسبه مجرد الرّفص لما ظل - من الوجهة النظرية المعلنة - شيئاً مسلماً به فيما بعد إلى عصر ابن قتيبة ، أعنى ضرورة الافتتاح بوصف الأطلال ، حسب مجرد إعلان المبدأ ، وهو في هذا يختلف عن مسلم وغيره ممن غيروا مقدمات قصائدهم في صمت . فأهمية حركة أبي نواس تتمثل في دعوته أكثر مما تتمثل في تطبيقه ، ومع ذلك فإن مجرد الدعوة ليس أمراً قليل الأهمية .

ولا تشير المصادر القديمة إلى وجود هجومٍ عنيف على أبي نواس ، هناك ما أخذ بالطبع ، ولكنها ما أخذ عادية ، بعضها لا يُعتدّ به مثل تهمة الكفر في الشعر (٢) ،

(١) يقول عبد القادر القط « حين نستقرئ شعر ذلك العصر نتبين أن تلك المطالع التقليدية لم تكن الطابع الغالب على الشعر حين ذاك ، وأن معظم الشعراء كانوا قد تخلّوا إلى حد كبير عنها وأخذوا يبدؤون قصائدهم بالغزل في كثير من الأحيان أو بالحديث ، دون مقدمات ، عن موضوع القصيدة أحيانا أخرى ، وتتضح هذه الحقيقة بجلال إذا استقرأنا ديوان أحد الشعراء المعاصرين لأبي نواس مثل مسلم بن الوليد ، فسنرى أن من بين قصائده ذات المطالع التمهيدية ثمانيا وعشرين قصيدة تبدأ بالغزل أو الحديث عن مجالس الخمر بينما لا تزيد القصائد التي تبدأ ببيكاء الأطلال على ثلاث . ويترد هذا الاستقراء - على اختلاف في الدرجة - حتى في العصر الأموي ، (حركات التجديد في الشعر العباسي) للقط ص ٤١٠ . وذهب يوسف خليف إلى أن الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي قد غلب عليهم إغفال المقدمة التقليدية ، راجع (الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي) ص ٢٦٦ ط دار المعارف ١٩٥٩ ، وراجع بحثا له بعنوان (صور أخرى من المقدمات الجاهلية) المجلة العدد ١٠٤ أغسطس ١٩٦٥ ص ٤ .

(٢) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ / ٧٨٢ ، حيث يسجل ابن قتيبة عدداً من الأبيات التي اتهم فيها بالكفر . والموشح ص ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ .

وبعضها لا يتصل بالشعر كفن . وإنما هو خاص باللحن والخطأ في الكلام (١) ، كما أخذت عليه صفة (الإفراط) في عدد من الأبيات (٢) ، وكذلك الخطأ في الوصف خطأ ناتجا عن الإخلال بمطابقتها للموصوف ، وبالمثل الخطأ في التشبيه ، لتشبيهه الأقوى في الصفة بالأضعف فيها (٣) ، كذلك أخذ عليه العتابي التماذي في حب البديع وطلبه (٤) ، كما وصفه إسحاق الموصلي بأنه : « كثير الخطأ وليس على طريق الشعراء » (٥) ، ومر بنا وصف ابن الأعرابي لشعره - ضمن أشعار المحدثين - بسرعة زوال الأثر (٦) .

وليس في هذه المآخذ شيء غير عادي ، وإنما سجل كثير منها على شعراء آخرين لهم وزنهم عند الجميع ، فلم تتسبب في ثورة النقاد عليهم ، ولا ادعى عليهم بسببها الخروج عن سنن الشعراء .. وعلى سبيل المثال سجل اللحن على الفرزدق (٧) ،

(١) راجع الموشح للمرزياني ص ٢٦٨ حيث يصفه المبرد بأنه كان لُحانة ، ص ٢٧٢ حيث يسجل عليه على بن المبارك الأحمر خطاين في اللفظة ، ص ٢٨٠ حيث يأخذ عليه محمد بن هاشم السدري خطأ نحويا ، ص ٢٧٩ حيث يأخذ عليه الكسائي خطأ في اللفظة وص ٢٨٢ حيث يصفه أبو علي البصير بأنه كثير اللحن .

(٢) في مثل قوله :

حتى الذي في الرُحْمِ لم يكُ صورة . . . لفؤادِهِ مِن خَوْفِهِ خَفَقَانُ

وقوله :

وأخفت أُمَّلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ . . . لتخافُكَ النُّطْفُ التي لم تُخَلِّقِ

(٣) الشعراء والشعراء ٢ / ٧٧٥ ، ٧٧٦ .

(٤) الموشح للمرزياني ص ٢٧١ ، ٢٨٦ .

(٥) الموشح ص ٢٦٢ ، ٢٦٤ .

(٦) الموشح ص ٢٤٦ .

(٧) الموشح ص ٩٩ حيث أخذوا عليه جر كلمة كان حقها الرفع ، وغير هذا ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ .

وعلى ذى الرمة (١) ، وأخذ الإفراط على بشار (٢) ، وأخذ الخطأ فى الوصف على امرئ القيس ذاته (٣) ، وأما المبالغة فى طلب البديع فلم يكن أبو نواس أول من أخذ بها ولا أول من شهر باستخدام البديع ، وقد وصف بذلك - قبله - مسلم بن الوليد (٤) ، وكذلك بشار (٥) ، ومع هذا لم يتعرض أحدهما للهجوم كما لم يتعرض له أحد من فريق الرواد الذين عددهم الجاحظ (٦) .

أما دعوته إلى نبذ الأطلال فى مقدمات القصائد فحسبنا دليلاً على أنها لم تتعرض للهجوم من أحد .. ما سبق أن أشرنا إليه من قصة منادمة الأصمعى للفضل ابن يحيى البرمكى وإنشاده إحدى قصائد أبى نواس مما خرج فيها على المقدمات التقليدية (٧) ، وما كان الأصمعى ليفعل لو كان فى ذهنه أى رفض لما فعله أبو نواس ، ونحن نذكر ما صرح به ابن الأعرابى من تنويه بعض مقدمات الشعراء مما يحمل الدعوة إلى نبذ الأطلال ، ونذكر بالذات تنويهه بيت الافتتاح فى قوله :

صفة الطلول بلاغة القدم . : فاجعل صفاتك لابنة الكرم

(١) الموشح ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ / ٧٣٦ ، وقد لا يكون الإفراط عيباً ، بل قد يقترن بالإجادة ، فابن المعتز يورد البيتين اللذين مثل بهما ابن قتيبة لإفراط بشار ، على أنهما " مما أجاد فيه وأفرط " طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٠ .

(٣) الموشح ص ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ .

(٥) البديع لابن المعتز ص ١ ، والموازنة ١ / ١٣٥ .

(٦) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٥١ .

(٧) البيت الذى بدأ الأصمعى بإنشاده هو :

إذا ما أتت نون اللهاة من الفتى . : دعاهم من صدره برحيل

وهو من قطعة مطلعها :

وخيمة ناطور برأس منيفة . : تهم يدا من رأمها بزليل

راجع طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

كذلك مَرَّتْ بنا قصةُ سَجُودِ أَبِي هِفَانٍ عِنْدَ سَمَاعِهِ لِأَحَدِي قِصَائِدِ الشَّاعِرِ فِي
نَفْسِ الْمَوْضُوعِ ، وَمَطْلَعُهَا :

لَا تَبْكِ لَيْلِي وَلَا تَطْرَبِ إِلَى هِنْدٍ . : . وَأَشْرَبْ عَلَيَّ الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ

ولقد تناول المبردُ شيئاً من شعر أبي نُوَاسٍ بالنقد ، وبعضُهُ من قِصَائِدِهِ الَّتِي
تَحْمِلُ مَعْنَى الدَّعْوَةِ إِلَى عَدَمِ الْوُقُوفِ بِالْأَطْلَالِ ، حَيْثُ يَنْعَى عَلَى الْعَرَبِ تِلْكَ الْعَادَةَ
الْبَالِيَةَ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَنْصَرِفُ الْمَبْرَدُ إِلَى تَوْضِيحِ مَوْطِنِ النِّقْدِ ، وَتَحْدِيدِهِ - فِي أَكْثَرِ مَنْ
خَبِرَ - دُونَ أَنْ يَتَّقَدَّ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ الدَّعْوَةَ إِلَى تَرْكِ الْأَطْلَالِ وَالْانْصِرَافِ إِلَى اللَّهِوِ ،
أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ نَرَاهُ يُعْجَبُ بِبَيْتِ الْإِفْتِتَاحِ فِي قِصِيدَةٍ يَحُثُّ فِيهَا الشَّاعِرُ عَلَى عَدَمِ
الْوُقُوفِ بِالْأَطْلَالِ ، وَالْانْصِرَافِ إِلَى شَرْبِ الْخَمْرِ وَهُوَ قَوْلُهُ :

لَا تَعْرُجْ بِدَارِمْسِ الْأَطْلَالِ . : . وَأَسْقِنِيهَا رَقِيقَةَ السَّرْبَالِ

يَقُولُ الْمَبْرَدُ : « هَذَا الْمَصْرَاعُ فَائِظٌ فِي جُودَتِهِ جِداً ، رِقَّةٌ وَلَطَافَةٌ وَسَلَسًا وَسَهُولَةً ، وَتَمَامُهُ
غَيْرُ مَرَضِيٍّ وَهُوَ قَوْلُهُ :

مَاتَ أَرْبَابُهَا وَبَادَتْ قُرَاهَا . : . وَبَرَاهَا الزَّمَانُ بَرَى الْخِلَالَ (١) .

وَيُمْكِنُ اسْتِخْلَاصُ نَفْسِ الدَّلَالَةِ حِينَ يَسْجُلُ الْمَبْرَدُ عَلَى الشَّاعِرِ خَطَأً صَرْفِيًّا فِي قَوْلِهِ :

* أَهْجُ نِزَارًا وَأَفْرَجِلْدَتَهَا *

دُونَ أَنْ يُشِيرَ بِالنِّقْدِ إِلَى مَطْلَعِ الْقِصِيدَةِ نَفْسِهَا - وَقَدْ أُورِدَهُ - وَهُوَ :

لَسْتُ لِدَارٍ عَفَّتْ وَغَيْرِهَا . : . ضَرْبَانِ مِنْ قَطْرِهَا وَحَاصِبِهَا

هَذَا فَضْلاً عَمَّا يُوحِي بِهِ الشُّطْرُ الَّذِي كَانَ مَوْضِعاً لِلنِّقْدِ الصَّرْفِيِّ مِنْ كُلِّ أَمَارَاتِ
الدَّعْوَةِ الثَّائِرَةِ (٢) .

فَلَيْسَ بَيْنَ الْأَخْطَاءِ وَالْمَأْخِذِ الَّتِي أُورِدَهَا صَاحِبُ (الْمَوْشِحِ) مِمَّا سَجَلَهُ الْعُلَمَاءُ عَلَى

(١) الموشح ص ٢٧٠ .

(٢) الموشح ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

أبى نواس كلمة تعنيفٍ أو نقدٍ على الدعوة إلى الافتتاح بالخمير والإخلال بالمقدمات التقليدية لقصائد المدح ، مما يجعل القول بأن النقاد هاجموا تلك الدعوة ، وأن ذلك الهجوم المفترض كان وراء ما صرح به الشاعر من رجوع إلى الافتتاح بذكر الأطلال، قولاً علي غير أساس ، لأننا نعلم أن السلطان - وليس النقاد - كان وراء تصريح الشاعر بالرجوع عن دعوته ، مراعاةً لاعتبار ديني وسياسي تحرص الخلافة دائماً على التذكير به (١) ، ولا داعي للقول بأن أشعاره الأخرى التي انطلق فيها مع نفسه وأفصح عن مكنونها لقيت مقاومة النقاد ، لأن ما قاله في ذلك ليس أكثر مما قيل في مثله عند الشعراء الآخرين .

(١) يتضح ذلك من قوله في عدة قصائد ، منها ما في قصيدته :

أعز شعرك الأطلال والمنزل القفرا . . . فقد طالما أزدى به نعتك الخمرأ
وقوله :

أعاندل أعتبت الإمام وأعتباً . . . وأعريت عما في الضمير وأعرباً
وقوله :

أيها الراحان باللوم لوما . . . لا أتوق المدام إلا شميمها

ففي القصائد المفتحة بالآيات السابقة ما يشير إلى أن الإمام هو الذي منعه من وصف الخمر وشربها .

(٢)

طابع الخصومة حول أبي تمام

وإذا كنا لا نستطيع أن نسجل ثورة أو خصومة حقيقية حول أبي نواس، فقد بقي علينا أن نجيب على سؤالٍ صعبٍ حاول كثيرون ممن تعرضوا للنقد القديم الإدلاء برأي فيه، ذلك السؤال هو: لماذا قامت الخصومة حول أبي تمام ومذهبه ولم تقم حول أبي نواس، مع أن الأخير كان يعلن صراحة خروجه على ما اعتبر - وهما ومن الناحية النظرية فقط - من مقدسات الشعر العربي؟ هذا السؤال نفسه هو الذي سيقودنا إلى الإجابة عن سؤالٍ جوهرى آخر هو: هل خرج أبو نواس على ما سموه بعمود الشعر؟

ونحن نوجه هذا السؤال لسببين متصلين :

الأول : أن مندورا يقرر أن أبا نواس قد دعا إلى التجديد فى المعنى والتجديد فى العبارة، وأنه شارك فى تنمية مذهب البديع على النحو الذى انتهى إليه عند أبي تمام، ومع أنه قد رتب على مثل هذه الأسباب ثورة النقاد على أبي تمام، فإنه لم يرتب نتيجة مماثلة فى حالة أبي نواس. فقد قرر - خلافا لهدارة - أنه لم تقم ثورة ضد أبي نواس، ولكنه التمس لذلك أسبابا تتعلق بمدى القيمة الحقيقية لتجديد ذلك الشاعر، وإن اعترف بخروجه على عمود الشعر كما يفهم من عبارته، وهذا نفسه ما ذهب إليه هدارة، وقد رأينا أن الشاعر خرج فعلا على نهج القصيدة ورأينا أنه لم توجد ثورة حقيقية ضده وبالتالى فلا بد من معرفة ما إذا كان قد خرج على عمود الشعر أيضا، فىكون النقاد قد قبلوا منه هذا الخروج كما قبلوا إخلاله بالنهج التقليدى للقصيدة، أم أنه لم يخرج عن شرائط ذلك العمود، وفى هذه الحالة يلوح لنا احتمال أن يكون إبقاؤه على عمود الشعر هو السر فى عدم ثورة النقاد عليه.

وهنا يبدو الارتباط بين هذا السبب والسبب الثاني، ذلك أننا نعرف من تاريخ الخصومة بين أنصار أبي تمام وأنصار البحري أن الأول اتهم بالخروج على عمود الشعر بينما قيل عن الآخر إنه حافظ على هذا العمود، وكان تمسك البحري بعمود الشعر محلاً لإعجاب النقاد بقدر ما كان خروج أبي تمام على هذا العمود محلاً لسخطهم .

هنا يتحول سؤالنا ليصبح على النحو الآتي : هل كان عدم ثورة النقاد على أبي

نواس مصدره أنه حافظ على عمود الشعر رغم دعوته إلى تجديد مقدمة القصيدة ؟

إن السؤال الذي تكاد الإجابة عنه تضع حداً لكثير من الأقوال المتضاربة عن موقف قدامى النقاد من دعوة أبي نواس وتفسيرها تفسيرات مختلفة حسب تصور كل دارس لطبيعة ذلك الموقف - يبدو منطقياً جداً حين نعلم أن الخصومة بين أنصار أبي تمام وأنصار البحري لم تكن كما تصور البعض خصومة بين أنصار الحديث يمثلهم فريق أبي تمام وأنصار القديم يمثلهم فريق البحري ، بل إنها كانت خصومة بين أنصار شاعرين محدثين لم يكن أقلهما حداثة المتمسك بعمود الشعر .

وعلى ذلك يبدو عمود الشعر وكأنه شيء لا علاقة له بالقدم والحداثة وإنما هو شيء ذو طبيعة مختلفة ، وما شاع عن عد المتمسك به أميل إلى القديم ناتج عن صدقة كان لأبد من وقوعها وهي أن خصائص هذا العمود - كما حددها - تتمشى مع الأسس العامة للصياغة القديمة البسيطة ، هذه الصياغة التي لم يقتصر قبولها على أنصار البحري ، أو من سموها بأنصار القديم ، وإنما قبلها النقاد العرب جميعاً ، أولئك الذين رفضوا بدورهم من أبي تمام عبارته الملتوية غير المفهومة ، في عدد محدود من أبياته وهو ما عرف بخروجه على عمود الشعر .

المفهوم الحقيقي لعمود الشعر

في حديث طه إبراهيم عن الخصومة بين القدماء والمحدثين يشير إلى أن تجديد المحدثين انصرف إلى (الديباجة) يعني ما فعله أبو نواس في مقدمة القصيدة ، وإلى (الصياغة) (١) ، ثم يتساءل في موضع آخر : فيم يتلخص طعن القدماء على المحدثين؟

(١) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٠٢ .

ويجب: في أمور ترجع إلى الصياغة وإلى المناحي القديمة التي أخل بها المحدثون (١)، ويقول محمد مندور عن أبي تمام: إنه «لم يغير شيئاً في الأصول الفنية للشعر العربي ولم يخرج إلا على عموده، كما يقولون، ومعنى العمود عندهم، فيما يبدو، هو الصياغة» (٢)، ويتحدث عبدالقادر القط عن نشأة الأسلوب الجديد، وأسباب تطوره فيرى أن عدد المتجادلين في كل جانب - يعني المعارضين والمؤيدين لذلك الأسلوب - يدل بوضوح على أنه كان كيفية جديدة في النظم A New Mode Of Versification (٣).

هذه لمحة عن فهم المحدثين لعمود الشعر، وأيضاً لمحة عن إحساسهم بأن الخروج عليه كان هو الشيء اللافت عند أبي تمام، وأنه هو الهدف الأول للهجوم.

على أن سوء الفهم الذي عانى منه هذا الاصطلاح في استخدام البعض له - شأن كثير من مصطلحات النقد العربي - قد شارك إلى حد كبير في الربط بين الخروج على عمود الشعر وبين التجديد، وبالتالي في الربط بين المحافظة على هذا العمود وبين السير في ركاب القديم، إذ شاع في كتابات العصر الحاضر إطلاق الوصف بالتمسك بعمود الشعر أو بالشعر (العمودي) على إنتاج الشعراء ممن تمسكوا بأوزان الشعر وقوافيه في صورتها التقليدية، ومن ناحية أخرى خلط البعض بين عمود الشعر وبين النهج التقليدي للقصيدة القديمة فيما يتعلق بأقسامها من مقدمة وغرض وخاتمة.... إلخ كما خلط البعض الآخر بينه وبين التمسك بنوع معين من مفردات اللغة، هي المفردات الخاصة الرصينة، بحيث اعتُبر تسهيل اللغة ضرباً من الخروج على عمود الشعر.

والواقع أن أحداً من أعلام النقد العربي لم يرد بعمود الشعر شيئاً من ذلك،

(١) طه إبراهيم، المرجع السابق ص ١١٢.

(٢) محمد مندور، النقد المنهجي ص ٦٩.

(٣) EIKott (A) Arab Conception of poetry as Illustrated in Kitab Al- Muwazanah P.18.

ولم يقصد الأخذون على أبي تمام خروجه على عمود الشعر أنه خرج على بحور الخليل أو قافية القصيدة الموحدة ، بل إننا نعلم أن كثيرا من صور الخروج على الوزن والقافية الموحدين قد وجدت منذ وقت مبكر دون أن يشار إليها أو أن توصف بأنها خروج على عمود الشعر . كذلك فإن أحدا لم يصف بهذا الخروج تلك الكثرة من القصائد التي أخل أصحابها بالشرائط التقليدية لأقسام القصيدة ، أو أشعار أولئك الشعراء الذين لجأوا إلى اللغة السهلة الدارجة كأبي العتاهية .

ولعلنا نستطيع فهم قضية عمود الشعر وكيف عاب النقاد شاعرا مثل أبي تمام بالخروج عليه ، حين نستعرض تلك المآخذ التي عددها خصومه لنعرف من خلالها طبيعة الخلل الذي أحدثه أبو تمام واستوجب بسببه الهجوم عليه . ذلك أن عناصر عمود الشعر - كما وضّحها المرزوقي في مقدمة شرحه لديوان الحماسة - تتضمن بعض النواحي التي يبدو أن النقاد تسامحوا فيها ولم يروا إخضاعها لشيء سوى العقل أو الذهن الصحيح بينما تمسكوا ببعضها الآخر وعلّوا الخروج عليه أمرا يستدعي المقاومة والتقويم .

عناصر يجب استبعادها من النقاش

ولكى طبع تحديد موطن الهجوم على أبي تمام ، نرى أن هناك عناصر ينبغي أن تستبعد من ميدان الخصومة حتى تتضح تماما العناصر التي كان إخلال أبي تمام بها ماثرا للهجوم عليه ، وهناك سبب آخر هو الثبوت من صحة ما نفترضه من أن خصوم أبي تمام لم يستهدفوا في هجومهم عليه ما اعتبروه تجديدا حقيقيا وإنما قاوموا ما قاوموه تحت شعار مقاومة الفساد في اللغة .. أما العناصر الواجب استبعادها فهي :

١ - أخطاء الإعراب والوزن والقافية :

فقد صرح أصحاب البحري بأنهم لا ينعون على أبي تمام الأخطاء من هذا القبيل لأنها مما « لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ، ولا سلم منه شاعر من شعراء الإسلاميين ، وقد جاء في أشعار المتقدمين ، وقالوا : « إننا لم

نتبعه ، ولا عبناه ، لِمَا وصفنا في باب اللحن وكثرته في أشعار المتأخرين ، (١) ويوافق أنصار أبي تمام على هذا المبدأ ، وقالوا : إن « ما يوبه النحويون من عيوب الشعر في الإقواء والإكفاء والسناد وغير ذلك مما هو عيب في اللفظ دون المعنى فليست بنا حاجة إلى ذكره ، لكثرته وشهرته ، وكذلك ما أخذته الرواة على المتأخرين من الغلط واللحن فاش أيضاً ... فلم يكن أحد ... في خطئه ولا سهوه ولا غلظه بمجهول الحق ، فمثل هذه الأخطاء ، ومن بينها اللحن ، لم تكن سبباً للغض من قديم ولا متأخر (٢) .

٢ - استخدام البديع والإكثار منه :

وهذا هو العنصر الثاني الذي نود استبعاده من ميدان النزاع ، أعني تصور أن يكون النزاع بينهما علي استخدام البديع في ذاته - حتى مع الإكثار منه والإفراط فيه - وهذه النقطة تعد مصدراً للبس عند كثير من المدارس المحدثين ، إذ يفهم من كلام مندور وكذلك إبراهيم سلامة أن من الفروق الجوهرية بين أبي تمام وسابقه إكثاره من البديع ، وأن ذلك كان من أسباب الهجوم عليه (٣) ، وينقل إبراهيم سلامة قول أصحاب أبي تمام إنه انفرد بمذهب اخترعه ... ثم يقول : « هذا المذهب ، وهذه الطريقة ، لم يكونا إلا (البديع) الذي نحن بصدده » (٤) ، ثم يقرر أن حوار الخصمين يدل على أن النقاد قد برموا بالبديع وثاروا ضده ، ثم يقول : « ومن السهل أن نفهم أن ما أخذ على أبي تمام أمران ، الأول : تعمقه في المعاني ، الثاني تعمله (البديع) في الإيراد ، على عكس ما كان عليه البحثري الذي جرى على طريقة العرب ولم يفارق عمود الشعر ... فالنقد الذي شاع في القرن الرابع كان من قبيل رد الفعل أو العمل الانعكاسي ضد البديع وضد الفلسفة ، للرجوع بالأدب إلى طبيعته مع قليل من المحسنات لا يؤثر في المعنى ولا يغمضه » (٥) .

(١) الموازنة للأمدى ١ / ٢٩ ، ٣٢ .

(٢) الأمدى ، المرجع السابق ١ / ٥١ .

(٣) مندور ، النقد المنهجي ص ٥٣ .

(٤) إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٢٩٧ .

(٥) إبراهيم سلامة ، المرجع السابق ص ٢٩٩ - ٣٠١ .

ولاشك أن كلاً من مندور وإبراهيم سلامة يستمد تصويره لمذهب أبي تمام من نفس الاتجاه الذى يجعل الفرق بين مذهب أبي تمام وغيره فرقا فى الدرجة ، وبالتالى فإن كل ما أتى به هو التوسع فى البديع ، وإن هذا التوسع هو كل الفرق بينه وبين سابقه من رواد البديع وهو أيضا أساس الهجوم عليه .

والواقع أن الاستخدام التلقائى للبديع - حتى مع الإكثار منه - لم يكن محلا للنزاع فى يوم ما سواء عند سلسلة الشعراء الذين عندهم النقاد كرواد المذهب البديع (١) ، أو عند البحتري نفسه ، ويتضح هنا من رد أصحابه على ادعاء أصحاب أبي تمام اختراعه لمذهبه فى البديع « ليس الأمر فى اختراعه لهذا المذهب على ما وصفتم ، ولا هو بأول فيه ، ولا سابق إليه ، بل سلك فى ذلك سبيل مسلم واحتذى حذوه » (٢) .

وما كان أنصار البحتري لينفوا اختراع أبي تمام لمذهبه فى البديع لو أنهم نظروا إلى البديع على أنه ظاهرة رديئة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنهم يقررون أن أصحابهم نفسه يستخدم البديع ، وهو موجود فى شعره ومع ذلك لم يفارق عمود الشعر ، فقد « حصل للبحتري أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة مع ما نجده كثيرا فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة » (٣) . وقد اعترف الصولى نفسه للبحتري بـ « كثرة الطباق والمائلة والتجنيس والاستعارة فى شعره » (٤) .

٣ - السرقات :

وكما أخرجنا الأخطاء النحوية واستخدام البديع من ميدان الخصومة ، نرى من الضرورى استبعاد مسألة السرقات أيضا كعامل من عوامل الثورة على أبي تمام ،

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ١ / ٥١ .

(٢) الأمدى ، الموازنة ١ / ١٤ .

(٣) المرجع السابق ١ / ١٨ .

(٤) الخبر وارد ضمن مجموعة من أخبار البحتري التى رواها الصولى ، جمعها محقق أخبار البحتري فى آخر الكتاب وسماها (نيل الأخبار) من ١٧٥ ، وفى مقدمة الصولى لديوان أبي نواس بروايته من ٥ . نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

وكأحد بنود النزاع عموماً ، ونحن نستبعدُها على الرغم من أنها أثبتت ، وأن مؤلفاتٍ غير قليلة تناولت التأثير والتأثر بين هذين الشاعرين ، وتناولت أيضاً سرقات أبي تمام والبحترى من غيرهما من الشعراء ، إلا أن استبعادنا لها يقوم على أساس أنها عنصر رأى الجميع أنه ليس محلاً لكبير فضل بالنسبة للمأخوذ منه ، كما أنه لا يفض من شاعرية الآخذ ، وبالتالي وافق أنصارُ البحترى على ما ادعاه أصحاب أبي تمام في قولهم إن البحترى « عن أبي تمام أخذ ، وعلى حذوه احتذى ، ومن معانيه استقى » (١) ، وقالوا : إننا « لانكر أن يكون قد استعار بعض معاني أبي تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحترى من شعر أبي تمام فيعلق شيئاً من معانيه ، معتمداً للأخذ أو غير معتمد . وليس ذلك بممانع من أن يكون البحترى أشعر منه ، فهذا كثير قد أخذ عن جميل وتلمذ له ، واستقى من معانيه ، فما رأينا أحداً أطلق على كثير أن جميلاً أشعر منه ، بل هو - عند أهل العلم بالشعر والرواية - أشعر من جميل » (٢) .

وهكذا اعترف أصحاب البحترى على صاحبهم بالأخذ من أبي تمام ، لكنهم رأوا أن هذا ليس عيباً ولا بممانع من أن يكون البحترى أشعر ، وإذا كانوا قد اعترفوا بأخذ صاحبهم على النحو السابق ، وقرروا أن الأخذ لا يعنى دائماً أن الآخذ أدنى في درجة الشاعرية ، فمن المنطقي ألا تصبح تهمة السرقة سلاحاً يصوبونه إلى أبي تمام ، لأن السرقة لا تقدر في شاعرية الآخذ ، ولأن صاحبهم قد وقع فيها . وقد كانوا منصفين - فعلاً - في هذا الصدد ، فصرحوا - كما يقول الأمدى - بأن السرقات

(١) الموازنة للأمدى ٨ / ١ ، ومما يدل على تهافت الرأي الذي يربط بين اشتعال مشكلة السرقات وبين الخصومة بين القدماء والمحدثين ، أن هدارة يقرر أن دراسة السرقات اتسعت كمظهر من مظاهر تلك الخصومة وأن أنصار القديم كانوا يتهمون المحدثين بأخذ معانيهم من القدماء ، مع أن النقاش بين أنصار البحترى وأنصار أبي تمام يدل على خلاف ذلك ، فممثل القديم - البحترى - هو المتهم - هنا - بالأخذ من ممثل الحديث ، وهو أبو تمام . راجع : مشكلة السرقات ص ٢١٥ ، يُضاف إلى ذلك ما نراه من استبعادهم لمسألة السرقات من النقاش حول الشاعرين .

ليست من كبير عيوب أبي تمام ، لأنها «باب ما يعرَى منه أحدٌ من الشعراء إلا القليل» (١) .

٤ - التجديد والمعاني الجديدة :

ولعل ذلك أهم العناصر التي نحرص على استبعادها - أعني (تهمة) التجديد - هل هاجم أنصار البحترى ما تصوروا أنه جديد جيد عند أبي تمام؟ بعبارة أخرى : هل كان أنصار البحترى أنصار الكل القديم ، معارضين لكل جديد ؟

يكاد جميع الذين تعرضوا لتلك الخصومة أن يصفوها بأنها خصومة بين قدماء ومحدثين (٢) ، وهو وصف أقل ما يفهم منه أن أنصار البحترى هاجموا أبا تمام لوجود عناصر تنعدم في شعر صاحبهم الذي هو في نظر هؤلاء شاعر تقليدي يجارى الذوق القديم ، ويميل إلى طريقة القدماء ، ولا يؤمن بالابتداع ، ولا شك في أن هذه النتيجة وهذا الفهم يدوان منطقيين في نظر كل من يقول بتقليدية البحترى وتجديدية أبي تمام .

على أن بعض النصوص القديمة والمتواترة قد تعدل هذا الحكم ، وتعديل ، بالتالي ، من تصورنا لطبيعة الموقف بين أنصار كل من الشعارين حين تظهر لنا أن وصف ذلك النزاع - أو أطرافه - بأنهم قدماء ومحدثون لم يكن دقيقا ، بل لعلها

(١) الموازنة ١ / ١٣٤ ، وراجع أيضا ١ / ٢٩١ حيث يصرح الأمدى بأن من أتركه من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساويء الشعراء ، وخاصة بالنسبة للمتأخرين ، ويبدو أن هذا كان نوقا شائعا لدى النقاد حتى في القرن الثاني ، وقد صرح الأصمعي بأن تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة ، ومع ذلك لم ينف شاعرية الفرزدق . راجع الموشح ١٠٥ .

(٢) راجع : طه ابراهيم (تاريخ النقد) ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١١٦ حيث يقرر أن اللغويين وفصحاء الأعراب في القرن الثالث كانوا من أنصار القديم ، ص ١١٨ حيث يؤكد أن لغويي القرن الثالث من تلاميذ اللغويين السابقين والممثلين لأرائهم وأنواقهم في الألب واللغة ، ويمثل لهم بالمبرد ص ١٢١ في كتاب الكامل ، ويقرر في ص ١٢٢ أنهم من أنصار القدماء كما كان أسلافهم من قبل يؤثرون الشعر القديم ، وراجع محمد مندور (النقد المنهجي) ص ٦٩ ، ٧٤ حيث يذكر أن الخصومة الحقيقية بين القدماء والمحدثين كانت حول أبي تمام . ومحمد مصطفى هدارة (مشكلة السرقات) حيث يشير إلى تلك الخصومة ويجعل معارضى أبي تمام في صف أنصار القديم ص ٢١٠ وما بعدها .

تعدّل من توزيع الوصف بالوقوف في صفّ القديم أو صفّ الحديث على نحو آخر .
يقول الصولي في مقدمته لديوان أبي نواس بروايته : « وحدثني أبو الغوث بن البحترى
قال :

كان أبي يقول : لا أرى أن أكلّم في علم الشعر من يفضل جريراً على
الفرزدق ، ولا أعده من العلماء بالشعر ، فقيل له : كيف ؟ وكلامك أشد
انتساباً إلى كلام جرير منه إلى كلام الفرزدق ؟ فقال : كذا يقول من لا
يعرف الشعر ، لعمرى إن طبعى بطبع جرير أشبه ، ولكن من أين لجرير
معاني الفرزدق وحسن اختراعه ؟ جرير يجيد في النسيب ثم لا يتجاوز
هجاء الفرزدق بأربعة أشياء : بالقيّن وقتل الزبير رحمه الله وبأخته جعثن
وبامرأة النوار ، والفرزدق يهجو في كل قصي سدة بأنواع هجاء يخترعها
ويبدع فيها (١) ، وقد أمّن الصولي على هذا التصريح .

هذا هو رأى البحترى ومعيار التفضيل عنده ، أساسه جِدّة الأفكار والمعاني ،
وهو أيضاً رأى أنصاره الذين قدرُوا هذه الصفة عند أبي تمام ، يقول الأمدى : إن أهل
النصفة من أصحاب البحترى لا يدفعون أبا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها والإبداع
والإغراب فيها والاستنباط لها ، وهم بهذا « قد سلّموا له الشيء الذي هو ضالة
الشعراء ، وطلبتهُم وهو لطيف المعاني ، وبهذه الخلة - دون ما سواها - فضل امرؤ
القيس ، لأن الذي في شعره من دقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع
الحكمة فوق ما في أشعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام . . . ألا ترى أن العلماء
بالشعر إنما احتجوا في تقديمه بأن قالوا هو أول من شبه الخيل بالعصبي وبالوحش والطير
وأول من قال (قيد الأوابد) وأول من قال كذا وقال كذا ، فهل هذا التقديم إلا من
أجل معانيه ؟ (٢) .

(١) راجع مقدمة ديوان أبي نواس برواية الصولي ص ٥ ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم
(١٣٥٦٨ ز) والخبر نفسه وارد في نيل أخبار البحترى ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، وهو في (الموشح)
للمرزياني ص ١٢٤ بإسناد آخر ، ومما له دلالة هنا ما جاء في (سر الفصاحة) ص ٢٧١ من أن
البحترى كان أحد الذين يسوون بين المحدثين والقدماء ، ولا يرون الفضل للمتقدم لقدمه .

(٢) الموازنة للأمدى ١ / ٤٢٠ .

من هنا جعل الأمدى كثرة بدائع أبي تمام واختراعاته سببا في تقديمه على سائر من انتحى مذهب البديع باستثناء مسلم (١) .

وهكذا تتأكد هذه الحقيقة ، وهي أن أحداً من الفريقين لم يرفض الجديد من المعاني ، ولا الإبداع والاختراع فيها .

تلك مجموعة من الحقائق ليس لنا في عرضها سوى النقل والترتيب ، ولقد أتضح أنه لا اللحن ولا استخدام البديع ولا السرقة ، أهم من ذلك كله مبدأ التجديد والإبداع في ذاته ، لم يكن شيء من ذلك محلاً للخصومة ، بل إن تلك العناصر كلها كانت موضع اتفاق من الطرفين ، فاللحن يتسامح الجانبان فيه ، لأنه مأخذ شائع ولا يفض من الشاعرية . والبديع لم يقتصر استعماله على أبي تمام ، بل استعمله غيره ومنهم البحترى ، والسرقة من عيوب الشعر حقاً ، لكنها لم يخل منها شاعر ، فلا داعي للاتهام بها من أي من الجانبين ، إذ إنها مأخذ مشترك ، أما صفة الإبداع والاختراع - وهي صفة يعتز بها كل أنصار الجديد - فإنها كانت محلاً للتقدير من الجانبين ، وعلى وجه الخصوص من جانب أصحاب البحترى ذلك الذي جعل منها معياراً للمفاضلة بين الشعراء ، وأكد - كما أكد أنصاره وأنصار أبي تمام - وجودها عند كل من الشاعرين .

الموطن الحقيقي للنزاع :

يقول الأمدى : « الذي أرويه عن أبي محمد بن العلاء السجستاني . . . أنه قال : سئل البحترى عن نفسه وعن أبي تمام فقال : كان أغوص على المعاني [منى] وأنا أقوم بعمود الشعر [منه] » (٢) ، ولعل في هذا التصريح ما يؤذن بأن الطعن على أبي تمام سيدور حول الخروج على عمود الشعر الذي وصف البحترى نفسه بأنه أقوم به من أبي تمام ، ويحكي محمد بن القاسم بن مهروبه عن أبيه قوله : إن أبا تمام « سلك طريقاً وعراً واستكره الألفاظ والمعاني ، ففسد شعره وذهبت طلاوته ونشيف ماؤه » (٣) ، وكذلك يذكر أصحاب البحترى قول ابن المعتز « إن الطائي تفرع فيه » ، يعنى في البديع ،

(١) الموازنة للأمدى ٦ / ١ .

(٢) الموازنة ١٢ / ١ .

(٣) الموازنة ١٨ / ١ .

« وأكثر منه ، وأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ، وتلك عقيب الإفراط وثمره الإسراف » (١) .

و حين يبرر أنصار أبي تمام هجوم عالم كاهن الأعرابي عليه بأن ابن الأعرابي لم يفهم شعره ، فعُدل إلى الطعن عليه ، يقول أصحاب البحترى : إن ابن الأعرابي « لا يلحقه نقص في قصور فهمه عن معاني شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب المألوفة إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ أو الإحالة ، بل العيب والنقص في ذلك يلحقان أبا تمام ، إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها ابن الأعرابي وأمثاله » (٢) ، ويقولون في موضع آخر : « إن أبا تمام تعمد أن يدل في شعره على علمه باللغة وبكلام العرب ، فتعمد إدخال ألفاظ غريبة في مواضع كثيرة من شعره » ، ثم يصفونه في فعله ذلك بأنه « حضري تشبه بأهل البدو ، فلم ينفق في البادية ولا عند أكثر الحاضرة » (٣) .

ويقولون مرة أخرى « وإنما عبناه بخطائه في معانيه وإحالاته وبعد استعاراته وكثرة ما يورده من الساقط والغث والبارد مع سوء سبكهِ ورداءة طبعه وسخافة لفظه » (٤) ، وحين يخصى أصحاب أبي تمام بعضاً من أخطاء الشعراء الآخرين - تبريراً واعتذاراً عن أخطاء صاحبهم - يقول أصحاب البحترى : إن السهو والخطأ كان يرد عند المتقدمين في البيت الواحد والبيتين والثلاثة ، وربما سلم الشاعر المكثراً من ذلك ألبتة وتعري منه . . . وأبو تمام لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مخطئاً أو مخطئاً ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم » (٥) ، وبالمثل يذكر الآمدي أن مذهب أبي تمام في عظم شعره يقوم على سوء التأليف ورداءة اللفظ مما يذهب بطلاوة المعنى ويفسده (٦) .

(١) الموازنة ١ / ١٨ ، وراجع : البيع لابن المعتز ص ١ .

(٢) الموازنة ١ / ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) الموازنة ١ / ٢٥ ، ٢٧ .

(٤) الموازنة ١ / ٣١ .

(٥) الموازنة ١ / ٥٠ .

(٦) الموازنة ١ / ٤٠٢ .

تلك تقريبا هي المآخذ والاتهامات التي ركز عليها أصحاب البحري في هجومهم على أبي تمام وقد استبعدنا منها العناصر التي وافق الطرفان على تنحيها من المناقشة (١).

و حين نحلل هذه الاتهامات نستطيع أن نميز فيها عدة أقسام : فمنها مثلا الإفراط في استخدام البديع ، على أنه ليس مقصودا بالهجوم لذاته ، بل لما ترتب عليه من آثار ، ولقد كانت نتيجة مبالغة أبي تمام في استخدام البديع - كما رأها أنصار البحري - هي خروجه عن مذهب العرب أو طريقتهم ، فأبو تمام « زال عن النهج المعروف والسُنن المألوف » و « سلك طريقا وعرًا » وقد « عدل في شعره عن مذاهب العرب المألوفة » . ولا ينكر أنصاره أنفسهم أن يكون « قد أوهم في بعض شعره ، وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه » (٢) .

فإذا رُحنا نستعرض مظاهر ذلك كله - أو نتأججه - من واقع ألفاظهم ، وجدنا معظم أقوالهم تنصب على استخدامهم الجريء للغة وعلى ما اعتبروه إجحافا بها قصداً إلى التعقيد والإغراب فيها . وهذا واضح في كل ما وجه إليه سواء من الخروج على طريقة العرب في كلامهم ، أو ماسموه باستكراه الألفاظ والمعاني ، حيث ربطوا بين هذه الصفة ومبالغته في طلب الطباق والجناس ، أو في ما أطلقوا عليه اسم الإحالة ، وكذلك الأمر في إبعاده في الاستعارة أو سوء نسجه وتعقيده أو استعمال الوحشي الغريب أو التكلّف الشديد الخ .

وهذا نفسه ما يؤيدّه النظر في الآيات التي أوردّها الأمدى تحت اسم (ما غلط فيه أبو تمام من المعاني والألفاظ) حيث تنصب المآخذ في معظمها على الناحية اللغوية

(١) نكر الأمدى من مساوي أبي تمام : السرقات ، وما في شعره من الزحاف واضطراب الوزن ، ولم نهتم نحن بهنين المأخذين حيث أخرجهما أنصار الشاعرين من موضوعات النزاع - وإن أشاروا إليهما - وليس هناك تناقض بين ذكر الأمدى لهنين المأخذين وبين استبعاد أنصار الشاعرين لهما ، فالأمدى ناقد يريد الموازنة العادلة والإحاطة بكل شيء ، بما في ذلك المآخذ التي سجلت على كل من الشاعرين . وهذا يختلف عن حوار أنصار الشاعرين ، حيث كان الهجوم غالباً من جانب أنصار البحري ، فحاولوا طرح العناصر المشتركة ، والتركيز على المآخذ التي انفرد بها أبو تمام .

والخروج بالعبارة - من حيث التركيب أو المعنى - عن الاستعمال المألوف بطريقة تطمس المعنى وتعميه ، وتُسيء في نفس الوقت إلى جمال العبارة وسلاستها .

وعلى سبيل المثال يأخذ عليه الآمدى جعله (الصبا) غير (القبول) مع أنهما لمسمى واحد (١) ، كما يسجل عليه أيضا أنه جعل (الكعاب) ضد (الثيب) مع أن الكعاب هي التي كعب ثديها ، فقد تكون بكرا وقد تكون ثيبا . وأيضا ذكر لفظ (الأيم) وهو يريد (الثيب) ، وهو خطأ ، لأن الأيم هي التي لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا ، والآمدى يوافق على تخطئه في الأيم ، فأما إيراد (الكعاب) مقام (البكر) فيرى أنه ليس بغلط « وقد جاء مثله في أشعار العرب » (٢) .

وقد يكون الخطأ اللغوي في التركيب ، فهو يسجل عليه في قوله :

دار أجِلُّ الهوى إن لم ألم بها . : في الركب إلا وعيني من منائحها

أن « هذا اللفظ مُحالٌ عن وجهه ، لأن (إلا) ههنا تحقيق وإيجاب ، فكيف يجوز أن يكون عينه من منائحها إذا لم يلم بها ؟ وإنما وجه الكلام أن يقول :

(دار أجِلُّ الهوى عن أن ألم بها) » (٣) .

على أن التخطئة في المعنى لا تنفصل عن تخطئة اللفظ ، بل قد يكون الجهل بمعنى اللفظ سبباً في ارتكاب خطأ المعنى ، كما في قوله :

مها الوحش إلا أن هاتا أو أنس . : قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

(١) في قوله : (الموازنة ١ / ١٥٨) .

قسَمَ الزمان ريوغها بين الصبا . : وقبولها وببورها اثلاكا

(٢) راجع الموازنة ١ / ١٦٦ ، ١٦٧ ، والبيت هو :

حلت محل البكر من معطى وقد . : زفت من المعطى زفاف الأيم

وراجع أمثلة للأخطاء اللغوية عند أبي تمام في الموازنة ١ / ٢٠٦ ، ٢١١ / ٢١٤ ،

٢٢٤ / ١ ، ٢٢٥ / ١ ، ٢٢٦ / ١ ، ٢٣٣ / ١ ، ٢٣٥ / ١ ، ٢٣٨ .

(٣) الموازنة ١ / ٢١٥ .

« وإنما قيل للرماح (ذوايل) للينها وتثنيها ، فنفي ذلك عن قلوب النساء التي من أكمل أوصافها الثني واللين والانعطاف » (١) .

وهناك بعض الآيات التي أوردها الأمدى ضمن أخطاء أبي تمام في المعاني والألفاظ ، يرى الأمدى أن الخطأ فيها أساسه استعمال الألفاظ التي تدل على المبالغة في تجسيم المجردات غير المجسمة ، وأيضا فإنه يسجل - وهذا هو الأساس - أن الشاعر استعملها استعمالا يفضي إلى الالتواء باللفظ وعدم التوصل إلى المعنى المراد ، ومن الأمثلة على ذلك هذا البيت :

يَوْمَ كَطُولِ الدَّهْرِ فِي عَرَضٍ مِثْلِهِ . : وَوَجْدِي مِنْ هَذَا وَهَذَا أَطْوَلُ

يقول الأمدى « فجعل للدهر - وهو الزمان - عرضا ، وذلك محض المحال ، وعلى أنه ما كانت به إليه حاجة ، لأنه قد استوفى المعنى بقوله : (كطول الدهر) فأتى على الغرض في المبالغة . فإن قيل : لم لا يكون سعة ومجازا ؟ قيل هذه الألفاظ صيغتها صيغة الحقائق ، وهي بعيدة من المجاز ، لأن المجاز في هذا له صورة معروفة ، وألفاظ مألوفة معتادة ، لا يتجاوز النطق بها إلى ما سواها ، وهي قول الناس (عشنا في خفض ودعة زمنة طويلا ، وما زلنا في رخاء ونعمة الدهر الطويل العريض) وكذلك إذا وصفوا ما ليس له طول ولا عرض على الحقيقة وإنما يريدون التمام والكمال ، ألا ترى إلى قول الشاعر ، وهو الراعي :

أنت ابن فرعى قريش لو تقايسها . : في المجد صار إليك العرض والطول

فكان بهذا اللفظ كأنه يذرع ثوبا ، أو يمسح أرضا ، أو يصف بالاجتماع والتدوير رجلا » (٢) .

والواقع أن هذا المثال يوضح فكرتهم عن الاستعارة ، والمجاز بصفة عامة ، بل عن

(١) الموازنة ١ / ١٥١ ، وراجع أيضا هذا البيت :

أمر التجلد بالتلدد حرقه . : أمرت جمود دموعه بسجوم

الموازنة ١ / ٢٢٢ . وأحب أن أنبه إلى أن النقل لرأى الأمدى لا يعنى الموافقة عليه دائما .

(٢) راجع الموازنة ١ / ١٩٦ - ١٩٩ .

العلاقة بين طرفي الإسناد أيضا ، وكيف أن لكل حدوداً لا يجب أن يتوسّع في الاستعمال بعدها ، وأيضا فيبدو من كلامه أن التجوز في الاستعمال إلى أبعد من القدر المسموح به بما قد يُخلّ بالفهم ، هو - في المقام الأول - خروج على اللغة ، ومن هنا يبدو حديثهم عن قبح الاستعارة - وهو عيب رُمي به أبو تمام كثيرا - حديثاً في اللغة يتصل اتصالاً أكيداً بالاستعمال المناسب للكلمات ، وإلى أي مدى يمكن الإبعاد بها في الاستعمال المجازي وذلك من خلال الشرط الذي وضعوه للاستعارة وهو شرط المناسبة ، أو القرب ، بين المُستعار والمُستعار له ، وإذا كان البلاغيون المتأخرون يرجون من وراء هذه المناسبة سهولة الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثاني ، فإن الآمدي ينص على سبب مكمل وهو تحقيق الكلام للفائدة المطلوبة ، ولا شك أن الهدفين متصلان ، وهما جميعاً يتحققان بتوافر صفة المناسبة بين المستعار والمستعار له . يقول الآمدي : « وإنما تستعمل اللفظة لغير ما هي له ، إذا احتملت معنى يصلح لذلك الشيء الذي استعيرت له ، ويليق به ، لأن الكلام إنما هو مبني على الفائدة في حقيقته ومجازه ، وإذا لم تعلق اللفظة المستعارة بفائدة في النطق فلا وجه لاستعارتها » (١) .

ولعل من المفيد أن نتذكر أن كل هذا الحديث عن الاستعارة إنما ساقه الآمدي من خلال حديثه عما خلط فيه أبو تمام في المعاني والألفاظ ، وهو بذلك إنما يدعّم رأينا في أنهم اعتبروا ما سموه بقبح الاستعارة ضرباً من الخطأ اللغوي في بعض صوره ، يؤدي إلى عدم التعبير السليم عن المعنى المراد .

ويمكننا التأكد من احتمال صواب هذا الرأي إذا عبرنا أغلاط أبي تمام في الألفاظ والمعاني - كما سجلها الآمدي - ونظرنا في الآيات التي أوردتها ضمن (باب ما في شعر أبي تمام من قبيح الاستعارات) فهو يُورد عدداً من الأمثلة ، يعقب عليها بقوله : « فجعل - كما ترى - مع غثائفة هذه الألفاظ ، للدمر أخذعا ، وبدأ تقطع من

الزُّنْد (١) ، وكأنه يُصرَع ، وجعله يَشْرِقُ بالكِرامِ ويفكِّرُ ويستَسِمُ ، وأن الأنام بنون له ، والزمان أبلق ، وجعل للمدح بدأ ، ولقصائده مزامير إلا أنها لا تُنْفَخُ ولا تَزْمُرُ ، وجعل المعروف مسلماً تارة ومرتداً أخرى ، والحادثُ وغدا ، وجذبَ ندى الممدوح بزعمه جذبةً حتى خرَّ صريعاً بين أيدي قصائده ، وجعل المجدَّ مما يجوزُ عليه الخوفُ وأن له جسداً وكبداً ، وجعل لَصُروفِ النوى قداً ، وللأمن فرشا وظن أن الغيث كان دهرًا حائكًا ، وجعل للأيام ظهراً يُركبُ ، والليالي كأنها عواركُ ، والزمان كأنه صبُّ عليه ماء ، والفرس كأنه ابنُ الصباحِ الأبلق ، وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبعد من الصواب (٢) .

والسرُّ في قبح هذه الاستعارات - كما يراه الأمدى - هو البعد وعدم المناسبة بين المستعار والمستعار له ، ويبدو أنه هاله ما فيها من تشخيص وتجسيم ، وقد رأينا أنه استقبح ما توحى به الألفاظ من تجسيم الزمان في قول أبي تمام :

• بيوم كطولِ الدهرِ في عرضِ مثله •

وهو هنا يُسدى نفس الرأى ، ويسجل نفس العيب ، إذ يأخذ على أبي تمام أنه جعل للدهرٍ أخدعا في قوله :

سأشكرُ فرجةَ اللَّبِّ الرُّخِيِّ . . . ولينَ أخادِعِ الدهرِ الأبيِّ

فيقول : (فأى حاجةٍ إلى الأخادع حتى يستعيرها للدهر ؟ وكان يمكنه أن يقول :

(١) يقصد قوله :

يا دهرُ قومٍ من أخدعِكَ فقد . . . أضججتَ هذا الأنام من خرقِكَ

وقوله : * ولين أخادِعِ الدهرِ الأبيِّ *

وقوله : * فضريتَ الشتاء في أخدعيه *

وقوله :

ألا لا يمدُ الدهرُ كفاً بسنيِّ . . . إلى مُجتدي نصرٍ فنقطعُ من الزُّنْدِ

راجع الموازنة ١ / ٢٤٥ وما بعدها .

(٢) الموازنة ١ / ٢٥٠ ، والأبيات المحتوية على الاستعارات المشار إليها موجودة في الجزء الأول من

الموازنة من ص ٢٤٥ - ٢٥٠ .

(ولين معاطف الدهر الأبي) أو (لين جوانب الدهر) أو (خلائق الدهر) كما تقول (فلان سهل الخلاق لين الجانب) فإن هذه الألفاظ... كانت أولى بالاستعمال في هذا الموضوع، وكانت تنوب له عن المعنى الذي قصده، ويتخلص من قبح الأخذع، فإن في الكلام متسعاً... وإنما قبح الأخذع لما جاء به مستعاراً للدهر، ولو جاء به في غير هذا الموضوع أو أتى به حقيقة ووضع في موضعه ما قبح، نحو قول البحري:

• وأعتقت من ذل المطامع أخلعي •

ونحو قوله:

• ولا مالت بأخذعك الضياع • (١)

وهو يستنكر قوله أيضاً:

تَحَمَلْتُ مَا لَوْ حُمِلَ الدَّهْرُ شَطْرَهُ . . . لَفَكَّرْتُ دَهْرًا أَيُّ عِبَائِهِ أَثْقَلُ

«فجعل للدهر عقلاً وجعله مفكراً في أي العباين أثقل، وما شئ وهو أبعد من الصواب من هذه الاستعارة وكان الأثب والأيق بهذا المعنى، لما قال (تحملت ما لو حُمِلَ الدهرُ شَطْرَهُ) أن يقول (لتضعضع أو: لانهد أو: لأمن الناس صروفه ونوازله) (٢).

والآمدى يفصح مرة ثانية عن تمسكه بمبدأ المناسبة بين طرفي الاستعارة، إذ لا بد أن تكون اللفظة المستعارة... لائحة بالشئ الذي استعيرت له، وملائمة لمعناه نحو قول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصليبه . . . وأردف أعجازاً وناءً بكلكل

ويقول الآمدى إنه في غاية الحسن والجودة والصحة، ويصفه بأنه أقرب الاستعارات من الحقيقة لشدة ملائمة معناها لمعنى ما استعيرت له (٣).

(١) الموازنة ١ / ٣٥٤ .

(٢) الموازنة ١ / ٢٥٥ .

(٣) الموازنة ١ / ٢٥٠ .

وهذا يدل على أنه لم يكن مجرد التجسيم أو التشخيص في ذاته هو السدى يزعج الأمدى ، وإنما كان يزعجه في المقام الأول عدم القرب بين المستعار والمستعار له ، مما يدخل الاستعارة في بعض صور الخطأ في استعمال الكلمات (١) .

ولكى نطمئن إلى أن صفة الخطأ اللغوي هي التي كانت ماثلة في أذهان أولئك الناس عند ذكر قبح الاستعارة أو بعدها ، نذكر أن أنصار أبي تمام حلولوا أن يعتذروا عن صاحبهم في بعض أغلاطه فلجأوا - على عادة كثير من النقاد القدماء - إلى ذكر بعض ما عيب على الشعراء قبله من أخطاء في اللفظ والمعنى وأخطاء في الوصف وغيرها ، وكان من مجموع ما ذكره عدد من أمثلة الاستعارة القبيحة كاستعارة (الأظلاف) للقدمين ، واستعارة (المشافر) للشفاة ، أكثر من هذا أنهم أوردوا نفس البيت الذي مثل به قدامة - كما سنرى فيما بعد - للمعاظلة (فما رقد الولدان . .) - البيت ، وقالوا « سئى رجل الإنسان حافرا ، وهذه استعارة في نهاية القبح » (٢) ، وهذا كله يدل على إحساسهم - أعني أنصار أبي تمام أنفسهم - بأن الاستعارات المستقبحة إنما تنتمى إلى جنس الأخطاء القائمة على استعمال اللفظ في مقام غير مناسب ، أو في معنى تصعب دلالة اللفظ عليه حتى ولو كان في سياق مجازي .

والأمدى نفسه كثيرا ما يقرن حديثه عن أمثلة الاستعارة القبيحة بالخلاص عن العدول عن الوجه الصحيح في الاستعمال اللغوي وقد أورد المثال الأخير من قبح استعارات أبي تمام ، وهو :

(١) لعل مما يوضح هذا بصورة قاطعة قول الأمدى « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتى وقرب المأخذ واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل في مثله ، وأن تكون الاستعارات والتشبيهات لائقة بما استعيرت له ، وغير منافرة لمعناه » الموازنة ١ / ٤٢٣ .

(٢) الموازنة ١ / ٤٤ والأبيات المحتوية على الاستعارات المشار إليها منها :

قول الشاعر :

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها . . إلى ملكٍ أظلافه لم تشق

وقوله :

قروا جارك العيمان لما جفوته . . وقلص عن برد الشراب مشافرة

جَارَى إِلَيْهِ الْبَيْنُ وَوَصَلَ خَرِيدَةً . . . مَاشَتْ إِلَيْهِ الْمَطْلُ مَشَى الْأَكْبَدِ

وقال «يريد أن البين ووصل الخريدة تجارياً إليه ، فكأنه أراد أن يقول : إن البين حال بينه وبين وصلها ، واقتطعها عن أن تصله ، وأشبه هذا من اللفظ المستعمل الجارى في العادة ، فعدّل إلى أن جعل البين والوصل تجارياً إليه كأن الوصل في تقديره جرى إليه يريد ، فجرى البين ليمنعه ، فجعلهما متجارين ، ثم أتى في المصراع الثاني بنحو من هذا التخليط ، فقال (ماشت إليه المطل مشى الأكبد) . فالهاء هنا راجعة إلى الوصل ، أى لما عزمت على أن تصله ، عزمت عزم متماثل مماطل ، فجعل عزمها مَشْيًا ، وجعل المطل مَاشِيًا لها . فإما معشر الشعراء والبلغاء ، ويا أهل اللغة العربية ، خبرونا كيف يجارى البين وصلها ، وكيف تماشى هي مَطْلُهَا » (١) .

ويبدو أن ذلك الذوق في رفض العلاقة الواهية بين طرفي الاستعارة - نتيجة للبعد بينهما - كان شائعاً وأصيلًا ليس بين نقاد القرن الرابع فقط ، بل أيضاً عند من قبلهم ، كما يبدو أن شهرة أبي تمام بارتكاب هذا النوع من الخطأ كانت شائعة جداً ، فالآمدى ينقل عن ابن المعتز في كتابه (سرقات الشعراء) أنه أنشد لسلم الخاسر يعيبه بردى الاستعارة ، في قوله يرثى موسى الهادى :

لَوْلَا الْمَقَابِرُ مَا حَطَّ الزَّمَانُ بِهِ . . . لَا بَلْ تَوَلَّى بِأَنْفِ كَلْمُهُ دَامِي

وقال (يعنى ابن المعتز) هذا بردى كأنه منقح شعر أبي تمام الطائى . ويقول الآمدى معقبا : «وليت لم يكن لأبي تمام من ردى الاستعارة إلا مثل استعارة سلم هذه أو نحوها» (٢) .

ولعلنا - الآن - نستطيع أن نؤكد أن ما تنموه بتلخيص الاستعارة عند أبي تمام ، إنما نظروا إليه من زاوية لغوية بحتة ، ولقد رأوا أن استعارة الكلمة في مكان لا تناسبه ، تمثل نوعا من الإخلال بمعنى الكلمة والغرض من استعمالها ، وهو ما لم يتسامحوا فيه مع متأخر ولا متقدم .

(١) الموازنة ١ / ٢٦٤ .

(٢) الموازنة ١ / ٣٦٨ . ويجب أن نشير هنا إلى أن عيب ابن المعتز لهذا المنحى من الاستعارات

المعقدة عند أبي تمام ، وعند غيره ، لا يناقض تقديره لأبي تمام ، ودفاعه عنه في المواطن التي يحسن فيها ، وهي كثيرة باعتراف ابن المعتز نفسه كما مر بنا .

وفيما يبدو ، فإن نقطة البداية في ذهن الشاعر هي : المكان المسمى (قرآن) والمكان المسمى (أشتر) والشاعر يريد المجانسة ، وبالتالي توجد (عين قرّت) أما (الأشتر) أو (الأشترين) ، فيناسبه (الانشطار) وهو مرض يصيب العين ، فمن الممكن أن ينسب إليها أيضا ، وهكذا نجد (عيناً قرّت) و (عيناً انشترت) فلتكن الأولى (عين الدين) ولتكن الثانية (عين الشرك - أو عيونه) ، وهنا يتحقق للشاعر ضرب من المقابلة بين الدين - والمقصود به الإسلام - وبين الشرك ، وأيضا بين (قرّت) و (انشترت) وإذا كان الشرك قد انشترت عيونُه فلا مانع من أن يُصطَلَمَ أيضا (١) .

ولا يخفى هنا ما في محاولة إقامة الجناس وحقد المقابلة أو ما يوهم المقابلة من جورٍ على اللغة ، مصدره - من وجهة نظرهم - إخضاعها لنوع من التوسع في الاستعمال لم تألفه ، والمثال يوضح أيضا الصلة بين قبح الجناس وغيره من ألوان البديع وما يؤدي إليه من سوء الاستعارة ومن بعض الظواهر اللغوية التي رفضوها صراحة .

تلك هي نتيجة الاستخدام السيئ للجناس ، وهي ما عبر عنه الأمدى بقوله إن « الطائي استفرغ وسعته في هذا الباب ، وجد في طلبه ، واستكثر منه ، وجعله غرضه ، فكانت إساءته فيه أكثر من إحسانه ، وصوابه أقل من خطئه » (٢) .

ويمكن الذهاب إلى نفس النتيجة في استعماله للطباق ، فالأمدى يقرر أنه لم يقتصر في هذا الفن على ما أتفق له من حلّ اللفظ وصحيح المعنى (٣) .

وكذلك الأمر فيما قبل عن (سوء نسجه وتعقيده ووحشي ألفاظه) وهذا واضح في قوله :

(١) راجع أيضا : إبراهيم سلامة (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) ص ٢٠٢ حيث استشهد بالبيت نفسه على الوقوع في التكلف نتيجة مراعاة الجناس ، وينظر سرّ الفصاحة ١١٤ في تحليل جيد لابن سنان يبيّن فيه السبب في قبح الاستعارة في هذا البيت ، ويكشف عن نوق الناقد العربي وموقفه في قضية المقاربة في الاستعارة ، وتظر ص ١٨٨ من نفس الكتاب حيث يرد البيت كمثال للجناس القبيح . .

(٢) الموازنة للأمدى ١ / ٢٧١ .

(٣) الموازنة ١ / ٢٧٣ .

يَوْمَ أَفَاضَ جَوَى أَغَاضَ تَعَزَّى . . . خَاضَ الْهَوَى بِحَرَى حِجَاهُ الْمُزِيدِ

« فجعل اليوم (أفاض جوى) والجوى (أغاض تعزياً) والتعزى موصولاً به (خاض الهوى) إلى آخر البيت ، وهذا غاية ما يكون من التعقيد والاستكراه ، مع أن (أفاض) و (أغاض) و (خاض) هي ألفاظ أوقعها في غير مواقعها ، وأفعال غير لائقة بفاعلها وإن كانت مستعارة ، لأن المستعمل في هذا أن يقال : قد علم ما بقلان من جوى ، وظهر ما يكتمه من هوى ، وبان عنه العزاء والتعزى . فأما أن يقال (فاض الجوى) . . . أو (غاض التعزى) . . . فإنه - وإن احتمل ذلك علي سبيل الاستعارة - قبيح جداً ، وكذلك (خوض الهوى بحر التعزى) معنى في غاية البعد والهجانة ، ثم اضطر إلى أن قال (بحرى حياه المزيد) وخفضه وكان وجهه أن يقول (المزيدين) صفة للبحرين ، فجعله صفة للحجى . . . وهذا وإن كان يتجاوز في مثله ، فإنه الوجه الأردأ عدل به إليه خبث الطريقة عن الوجه الأوضح » (١) .

ولعل من السهل الآن أن نستخلص أن كل ما قيل في الهجوم على أبي تمام كان يصدر عن نظرة واحدة ، ويقوم على مبدأ واحد هو رفض الخروج على ما تحتمله اللغة في الاستعمال ، سواء في التركيب أو معانى الكلمات ، وفيما عدا هذه الناحية لم يتعرض أبو تمام لأى من ألوان الهجوم أو النقد . لقد كان الحديث كما اعترف مندور دائراً حول اختلاف الشعراء في طريق الصياغة فحسب (٢) ، ويذكر شكرى عياد أن مشكلة اللفظ والمعنى ، التي ارتبطت لارتباط وثيقاً بالخصومة بين أنصار أبي تمام وأنصار البحترى ، « كانت تدور في الواقع حول درجة الحرية المسموح بها للشاعر أو للأديب في التعبير عن معانيه في أصولها واحدة ، فكان أنصار المعنى هم أنصار الحرية في التعبير ، وأنصار اللفظ هم أنصار التقيد في التعبير » (٣) .

وقبل أن نوضح حدود قبولنا لهذا الرأي نود أن نعيد إلى الأذهان مجموعة

(١) الموازنة ١ / ٢٩٦ .

(٢) مندور ، النقد المنهجي ٢٥٨ .

(٣) شكرى عياد (كتاب أرسطو طاليس في الشعر . . .) ص ٢٨٨ .

من الحقائق :

فأولا : لم يقصد النقاد العرب بكلمة (المعنى) - غالبا - ما هو عادى من الأفكار ، وإنما دار تفكيرهم كثيرا حول ما أطلقوا عليه المعانى (النادرة) أو (الرائعة) أو (المبتكرة) . . . الخ ، وهذا واضح على الأقل من حديث البحتري نفسه عن مفهوم ما سموه (بالإخلاء) فى الشعر فقد فسره بأنه خلّو الشعر من المعانى النادرة ، وفسره الحاتمي بعده بحوالى قرن من الزمان بأنه الخلو من المعانى المبتكرة (١) .

وثانيا : أنه فيما يتعلق بالنزاع بين أنصار البحتري وأنصار أبى تمام لم تكن مسألة المعانى ظاهرة على السطح - كموضوع من موضوعات النزاع - بل لم تكن موضع جدال بالمرّة ، وقد سبق أن بينا أن أنصار البحتري ، والبحتري نفسه ، يعترفون بقيمة المعانى المبتكرة ، فى ذاتها وعند أبى تمام ، ويؤكد البهيتى أنهم لم ينكروا المعانى قط ، بل إن المعنى اللطيف والحكمة الغريبة عندهم زائدة فى بهاء الكلام . . . وهم فى الحق أقرب ما يكون إلى أن يكونوا متأثرين بما يقوله أرسطو عن الاستعارة ووجوب قُرْبِها ، وعن استعمال اللفظ فيما يدل عليه ، وهم لا يمتنعون تماما عن تقبل الحكمة فى الشعر ، ولكنهم يآبون أن يستحيل الشعر فلسفة . . . وهم ينكرون إنكاراً عنيفا ذلك التجوز فى استعمال الألفاظ استعمالاً يُخرجها عن أصول ما وُضِعَتْ له (٢) .

فالفرق بين أنصار البحتري ممن عرّفوا باللفظيين وأنصار أبى تمام ممن عرّفوا بأصحاب المعانى كان فى الثورة على المواضع والرسوم المقررة فكلاهما يقبلان المعانى الجديدة ، ولكنما ينفرد اللفظيون بطلب الاعتدال والاستجابة للطبع ، وعدم الخروج بالشعر إلى ميدان الكتابة (٣) ، ويذكر إبراهيم سلامة أن المعانى لم تهمل فى

(١) الرسالة الموضحة للحاتمي ص ٢٦ .

(٢) البهيتى (أبو تمام الطائى) ١٨٧ .

(٣) البهيتى ، أبو تمام الطائى ١٩٢ .

حديث أصحاب البحتری عن شروط الشعر الجيد، وأن الغرابة قد اعترف بها أيضا (١).

فالجدال كان قائما حول ما أثاره أصحاب البحتری من أن في الإمكان تحقيق الابتداع والاختراع مع المحافظة على عمود الشعر، وقد أتضح مما قدمنا عن عناصر النقد الذي وجهوه إلى أبي تمام أنهم لم يتمسكوا من عمود الشعر ذلك إلا بما يتصل باللغة وضرورة تناولها في حدود ما تحتمل من وجوه الاستعمال، وأنهم عندما وصفوا أبا تمام بالخروج على ذلك العمود لم يكونوا يعنون غير هذا الخروج على ما تحتمله اللغة في المعاني والتراكيب، الخروج الذي يحول دون فهم المراد، وهو ما يخل بهدف الشاعر، أو القائل عموما، من الأساس. من هنا وضعوا هذه القاعدة المقبولة من النقاد العرب جميعا من أنه «إذا اعتمد الشاعر الإبداع فمن سبيله ألا يخرج من سنن القوم، فإنه لم يحظر عليه مستغرب المعاني ومستطرفها» (٢).

عمود الشعر كما صورّه المرزوقي :

لقد حدّد المرزوقي سبعة عناصر يتكون منها عمود الشعر هي :-

- ١- شرف المعنى وصحته .
- ٢- جزالة اللفظ واستقامته .
- ٣- الإصابة في الوصف .
- ٤- المقاربة في التشبيه .
- ٥- التحام أجزاء النظم على تخير من لذيذ الوزن .
- ٦- مناسبة المستعار منه للمستعار له .

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٣١٨ .

(٢) الموازنة ١ / ٤٩٥ .

٧- مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائيهما للقافية (١) .

وباستثناء العنصر الخامس ، وهو يمثل لونا من ألوان الإحساس بأهمية الوحدة في القصيدة - وهي وحدة مصدرها اتساق الألفاظ قبل كل شيء - نجد أن بقية العناصر يمكن أن تنقسم إلى قسمين :

الأول : يعتمد على العقل ، ويقوم على التمييز الشخصي ، ويتكون هذا القسم من العنصرين الأول والثالث أعني (شرف المعنى وصحته) و (الإصابة في الوصف) .

ويلوح لنا أنهم لم يعتبروا الخطأ في عنصرى هذا القسم فادحا بدرجة كبيرة وليس لنا من دليل في هذا الرأي سوى أنهم جعلوا معيار التمييز فيهما - أعني عنصرى القسم الأول - هو - على حد تعبير المرزوقى - (العقل الصحيح والفهم الثاقب) و (الذكاء وحسن التمييز) ، وهو - كما نرى - معيار نسبي إلى أقصى الحدود ، ونسبته نابعة من كونه ذاتيا ، وبالتالي لا يرقى الخطأ في هذا القسم إلى درجة الإخلال بما هو عام ومتعارف عليه (٢) .

ومهما يكن البريق الذى يرسله اصطلاح (شرف المعنى) فإنهم لم يتمسكوا قيد شعرة بهذا (الشرف) أيا كان مدلول هذه الصفة من معنى خلقتى أودينى أو حكمة أو .. أو .. إلخ . وحسبنا أن نذكر أن أحد الدعاء إلى (شرف المعنى) هذا - وهو القاضي الجرجانى - يقرر فى (الوساطة) أن « سوء الاعتقاد ليس سببا لتأخر الشاعر » وأن « الدين بمعزل عن الشعر » (٣) ، هذا على حين يقول الصولى « وما

(١) المرزوقى ، مقدمة شرح ديوان الحماسة ص ٨ ، وراجع (الوساطة) للجرجانى حيث يشيد بالعناصر الأربعة الأولى باعتبارها من صفات الشعر الجيد : « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبهه فقارب ، وبده فأغزر ، ولئن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، الوساطة ص ٣٣ ، وراجع نصاً يلمس هذه النواحي أيضا فى الموازنة ١ / ٤٠٠ .

(٢) فى رجوع الحكم على المعانى إلى « العقل والعلم وصفاء الذهن » يراجع : سر الفصاحة لابن

ظننت أن كفاً ينقص من شعره (١)، وقد وضع قدامة بن جعفر، معاصر الصولي، نهاية لهذه المسألة حيث قرر أن « المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية، والشعر فيها كالصورة... وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والوضعة والرفق والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة » (٢).

هذا عن شرف المعنى، والذي لا وجود له من الناحية العملية على الإطلاق والذي ليس له وجود من الناحية النظرية إلا في عبارات البعض كالقاضي الجرجاني في الوساطة والمرتزوقي في مقدمة شرحه للحماسة (٣).

أما عن الإصابتة في الوصف، فإنها لا تعني أكثر من دقته وانطباقه على الموصوف، وهو أمر يمكن التأكد منه بمعرفة مدى هذا الانطباق (٤)، عن طريق المقارنة بين الوصف وموضوعه.

وتشير بعض الدلائل إلى أن بعض حالات الخطأ في الوصف تعود إلى اعتبارات لغوية أساسها الجهل بالكلمات التي تعبر عن الصفة المناسبة، فالأصمعي يقول عن عدي بن زيد إنه لا يحسن أن ينعت الخيل ويأخذ عليه قوله في الفرس (فارها متابعا) وقال: لا يقال للفرس (فاره) إنما يقال (جواد) و (عتيق) ويقال للكودن والبغل والحمار (فاره) (٥).

وباختصار، لم يكن هذا القسم - بعنصريه - محلاً للكثير من النقاش، فمعيار الحكم فيه ذاتي، وهم لم يتمسكوا به غالباً، فإن وجد ما يمكن الرجوع فيه إلى معيار موضوعي فلن يكون سوى ذلك الجانب اللغوي، والذي يعود إلى الدقة في استخدام أنسب الألفاظ للتعبير عن صفة معينة يتسم بها موصوف معين، وهذا الجانب

(١) أخبار أبي تمام للصولي ١٧٢.

(٢) نقد الشعر لقدامة ص ٤.

(٣) المرتزوقي، مقدمة شرح ديوان الحماسة ص ٨.

(٤) نقد الشعر لقدامة ص ٤١ حيث يتحدث عن (نعت الوصف).

(٥) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ١ / ١٨٢.

يدخل تحت القسم الثاني من القسمين اللذين تنقسم إليهما عناصر عمود الشعر ، وهو ما سنعرض له الآن .

القسم الثاني : من عناصر عمود الشعر - كما حبلدها المرزوقي - هو القسم الذي يعتمد على قوانين مقررة وراسخة ، هذا القسم يتكون من العناصر ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، والقوانين التي نذهب إلى أن هذا القسم يحتكم إليها ، هي ، ببساطة ، قوانين اللغة ، فلا شك أن الاحتكام إلى الرواية ، والاستعمال ، أو إلى طول الدرية ودوام الممارسة ، إنما يقول بوضوح بأن عيار التمييز هنا هو العرف اللغوي ، فعلى أساسه يمكن القياس وإليه يمكن الاحتكام . ولست في حاجة - بعدما تأكد من فهمهم للصلة بين قبح الاستعارة ، أو البعد فيها ، وبين الخطأ اللغوي في صورته المركبة - إلى القول بأن العنصرين ٤ ، ٦ وهما المقاربة في التشبيه والمناسبة بين المستعار منه والمستعار له ، يخضعان لنفس القاعدة أو العرف اللغوي ، فقد اعتبر البعد بين المشبه والمشبه به وكذلك البعد بين طرفي الاستعارة ، ضرباً من الجمع بين كلمات متباعدة لا يتوافر المبرر الدلالي الكافي للجمع بينها ، ونحن نعرف أن البلاغيين العرب قد خصصوا - فيما بعد - علماً كاملاً - هو (علم البيان) - لمساعدة الأديب على تجنب الوقوع في هذا النوع من الأخطاء .

يقول المبرد عن التشبيه البعيد : إنه الذي « يحتاج إلى التفسير ، ولا يقوم بنفسه ، وهو أحسن الكلام » (١) ، وهو يربط بين صفة البعد هذه وصعوبة فهم المراد من التشبيه ، لعدم ملاءمة الكلمة المحتملة للتشبيه بها ، وهذا واضح من المثال الذي ساقه للتشبيه البعيد « وأما التشبيه البعيد الذي لا يقوم بنفسه ، فكقوله :

بَلْ لَوِ رَأَيْتَنِي أُخْتُ جَيْرَانِنَا . . . إِذْ أَنَا فِي الدَّارِ كَأُنَى حِمَارٍ

فإنما أراد الصحة ، فهذا بعيد ، لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره ، وقال الله جل وعز - وهذا البين الواضح - : (كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) والسفر الكتاب ، وقال (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار) في أنهم قد تعاملوا عنها ، وأضربوا

(١) الكامل للمبرد ٢ / ٨٧ . وربما كانت كلمة (أخشن) معرفة عن (أخسن) ، من الضمة .

عن حدودها وأمرها ونهيتها حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها، (١).

فلا بُدُّ من علاقة بين طرفي التشبيه، وهي علاقة تساعد على فهم المراد به من ناحية، وتقوم - من ناحية أخرى - على ما بين اللفظين من صلة في المعنى أو الاستخدام أو الصفات إلخ. ويؤكد هذا ما قرره الجاحظ من أنه «إن قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه فمن عادة العرب أن تشبه به في حالات كثيرة» (٢)، وكان قد أدخل الصور البيانية في اللفظ بمعناه الواسع - كما لاحظ بحق شوقي ضيف (٣) - عندما عرّف الشعر بأنه صياغة وضرب من التصوير.

ونحن لا ننكر أن يكون في التشبيه والاستعارة ما يعود التمييز فيه إلى الذهن وإلى الذوق - أي إلى معيار نسبي ذاتي - بل ربما كان هذا هو الأساس السليم للحكم فيهما، غير أننا ننظر الآن إلى الموضوع من خلال النقد العربي القديم، وقد غلبت النظرة اللغوية إلى هذه الفنون على ذلك النقد، بل إن تلك النظرة انتهت إلى اعتبار التشبيه والاستعارة ضمن مباحث علم البيان، وهو العلم الذي يبحث في (طرق التعبير وضوحا وخفاء)، وهو الوضوح والخفاء الذي تحدده درجة القرب أو البعد بين طرفي التشبيه أو الاستعارة، أو المجاز بصفة عامة.

وجدير بالذكر أن هذه النظرة إلى طبيعة العلاقة الواجبة في الاستعمال المجازي ليست قاصرة على أنصار البحتري أو من عرفوا بأنصار القديم، فالواقع أنها تمثل نظرة المستغلين بالنقد العربي جميعا، سواء من ربوا على الثقافة العربية أساسا أو من خضعوا لتأثيرات أجنبية.

فمن قبل الأمدى: كان ابن طباطبا يُوجب على الأديب أن «يستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة ولا يبتعد عنها، ومن الاستعارات ما يليق بالمعاني

(١) الكامل للمبرد ٢ / ٨٩.

(٢) الحيوان للجاحظ ٤ / ٢٧٣.

(٣) شوقي ضيف، البلاغة: تطور وتاريخ من ٥٢.

التي يأتي بها (١) .

وجعل قُدَّامةً بنُ جعفر من عيوب اللفظ ما سماه بـ (المعاظلة) ، تلك التي فسرها أبو العباس ثعلب بأنها «مداخلة الشيء في الشيء» ، فقال قُدَّامة : «من المُحال أن تُنكرَ مداخلةً بعض الكلام فيما يُشبهه من وجه ، أو في ما كان من جنسه ، وبقي النكير إنما هو في أن يدخل بعضه فيما ليس من جنسه وما هو غير لائق به ، وما أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة مثل قول أوس :

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِيرُهَا . . . تُصْنِمُ بِالْمَاءِ تَوْلِبًا جَدَعًا

فسمي الصبي تولباً وهو ولد الحمار ، ومثل قول الآخر :

وما رقد الولدانُ حتى رأيتُه . . . على البكرِ يمرِّيه بساقٍ وحافرٍ

فسمي رجل الإنسان حافراً ، فإن ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لا عذر فيه (٢) ، وهو يجيز استعارة امرئ القيس في بيته (فقلتُ له لما تمطى بصلبه) (٣) ويقول إن «ما جرى هذا المجرى مما له مجازٌ كان أخف وأسهل مما فحش ولم يُعرف له مجاز ، وكان منافراً للعادة بعيداً مما يستعمل الناس مثله» (٤) .

وقدم أبو علي الحاتمي في رسالته التي سماها (الموضحة) تفسيراً لمصطلح (المعاظلة) أوضح في تأكيد الصلة بين قبح الاستعارة وبين الخطأ اللغوي المدموم ، يقول للمتنبى عن بيته :

شَرَفٌ يَنْطَحُ النُّجُومَ بِرَوْقِهِ . . . وَعِزٌّ يَنْقَلِبُ الأَجْبَالَ

إنك أخذته من بيت لأبي تمام [يذكره] وأفسدته ، فيسأله المتنبى عن وجه الفساد فيه فيقول الحاتمي : «لأنك جعلت لشرف الرجل قرنين . . . والروقان : القرنان ، قال : أجل ، إنها استعارة ، فقلت : لعمري إنها وإن كانت استعارة ، ولكنها استعارة خبيثة ، جارية في المعاظلة التي نفاها عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - عن زهير ، وذكر

(١) عيار الشعر ١١٩ .

(٢) نقد الشعر من ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) نقد الشعر من ٦٧ .

(٤) نقد الشعر من ٦٨ .

اجتنابه إياها ، فقال : كان لا يعاظِل بين الكلمتين ، أى لا يَدْخِل الكلمة فى الكلمة إذا لم تكن إحداهما من جنس الأخرى ولا كانت مناسبة لها ، ولا مشتقة منها .. والمعازلة المذمومة أحسن الاستعارة كما قال أوس :

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا . . . تُصْنَمُ بِالْمَاءِ تَوَلِّبًا جَدْعًا

فجعل للمرأة تَوَلِّبًا ، والتَوَلَّبُ : ولد الحمار ، كما جعلت أنت للشرف قرنين ، وهذا من أبعاد الاستعارات وأشدّها مبينةً لمذاهب حُذَاق الشعراء (١) .

هذا الوجه من الإجحاف باللغة هو نفسه الذى سجّله الأمدى على أبى تمام ، كما يبدو من أمثله التى أوردها ، وكما يبدو من مناقشته لها ، وهو الذى عناه أنصار البحرى بحديثهم عن الاستعارات القبيحة عند أبى تمام أو كما سموها أحياناً ، الاستعارات البعيدة .

وقد سلك القاضى الجرجانى نفس الطريق فى تسجيل مثل هذه المآخذ سواء على المتنبى أو أبى تمام ، وإن كان قد حبّد أن « يُحمل ما جاء من ألفاظ المحدثين وكلام المولدين زائلاً عن ... السنن على وجوه تقرّبهم من الإصابة وتقييم لهم بعض العنبر » (٢) . ولكن المهمّ عنده هو اعترافه بأن هذه الوجوه من شأنها أن تؤدى إلى فساد الشعر واللغة معاً ، لأنها « أمور متى حُمِلت على التحقيق وطلب فيها محض التقويم أخرجت عن طريق الشعر ، ومتى أتبع فيها الرخص وأجريت على المسامحة أدّت إلى فساد اللغة واختلاط الكلام » (٣) . لذلك فإنه على الرغم من تصرّحه النظرى بإمكان التساهل مع المحدثين ... لا يتردّد القاضى فى تخصيص (تفاوت شعر أبى تمام) و (الردىء من شعره) بحديث خاص (٤) .

(١) أبو على محمد بن الحسن العاتقى : الرسالة الموضحة فى ذكر سرقات أبى الطيب المتنبى وساقط شعره ص ٩٠ ، ٩١ .

(٢) الوساطة ٤٣٢ .

(٣) الوساطة ٤٣٣ ، ويراجع : سرّ الفصاحة ص ١١٩ حيث ينقل كلام الجرجانى ، وإن كان ابن سنان

لا يقبل هذه التفرقة فى الحكم بين القديم والمحدث .

(٤) الوساطة ص ٦٥ ، ٦٧ وما بعدها .

وأورد الثعالبي مجموعةً من بعيد استعارات المتنبى كجعلِه للطيب والبيض* واليَلْب قلوباً، وللسحابِ حمى، وللزمان فؤادا، وللكبد شيبا، ووصفها بأنها «لم تجرِ على شَبِّه قريب ولا بعيد»، وقال: «إنما تصحُّ الاستعارةُ، وتحسن على وجه من الوجوه المناسبة وطرق من الشبه والمقاربة» (١).

وجاء ابنُ صفان - وتأثره بالبلاغة اليونانية لا يحتاج إلى إيضاح - فجعل من أصول حسن التأليف وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازاً «لا ينكره الاستعمال ولا يُبعدُ فيه» (٢)، وقد جعل من وضع الألفاظ في موضعها حسن الاستعارة، وهي عنده على قسمين: قريب مختار، وبعيد مطرَح، والأول ما كان بينه وبين ما استُعير له تناسبٌ قوى وشبَّه واضح، أما البعيد المطرَح فهو إما لبعده عما استُعير له في الأصل أو لأنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك (٣)، وهو يُعطى أمثلة لحسن الاستعارة وقُبْحها من شعر أبي تمام، بل وفي استعارة لفظية واحدة في موضعين، وأساسُ الحسن والقبح عنده هو توافر أو انعدام الشبه أو الصلة بين الطرفين (٤)، ومرة أخرى يُعيد إلينا ما قام به القاضي، والصاحبُ بن عباد، من انتقادِ البعيد من استعارات المتنبى، مع نفس الأمثلة تقريبا (٥).

واللافتُ عنده هو عدمُ موافقته القاضي الجرجاني في قوله بوجوب التماس العذر للمحدثين في مثل هذه الأحوال: فقوله - يعنى القاضي الجرجاني - «إنما يُحمل ما جاء من ألفاظ المحدثين وكلام المولدين زائلا عن السنن على وجوه تقرّبهم من الإصابة وتقييم لهم بعض العذر، فكأنه بهذا القول يخصُّ المحدثين من المتقدمين، وليس بينهم من هذا الوجه فرق، وكما يلتبس من المتأخر الحسنُ الصحيح، كذلك يلتبس من المتقدم... وما أحسب أن أحداً... يحتاج في اختيار الاستعارة إلى

* المقصود بـ (البيض) في السياق: جمع بيضة، وهي الخوذة التي يضعها الفارس على رأسه.

(١) اليتيمة ١ / ١٦٢، وجدير بالذكر أن الثعالبي ينقل في هذا الموضع عن الوساطة، تنظر ص ٤٢٩.

(٢) سر الفصاحة ١٠٣.

(٣) سر الفصاحة ١١١، ١١٢.

(٤) سر الفصاحة ١١٦.

(٥) سر الفصاحة ١١٨.

معرفة صاحبها وزمانه حتى يكون حكمه على من تقدم مولده يخالف حكمه على من قُرِبَ عهده» (١).

وبالمثل يرفض «إقامة العذر للمتنبئ وترك الإنكار عليه... لأن القول في استعارة أبي الطيب إذا كانت بعيدة غير مرضية كالقول في كل استعارة كذلك، سواء كانت لتقدم أو لتأخر، وليس يتميز قبورها بإضافتها إلى رجل من الرجال ولا زمان من الأزمنة» (٢).

ونص هيد القاهر صراحة على أن «احتمال اللفظ شرط في كل ما يُعدَّلُ به عن الظاهر» (٣)، واشترط في اللفظ المنقول عن أصله في المجاز «شرطا: وهو أن يقع نقله على وجه لا يعرَى معه من ملاحظة الأصل، ومعنى الملاحظة: أن الاسم يقع لما تقول إنه مجاز فيه بسبب بينه وبين الذي تجعله حقيقة فيه» (٤) ثم راح يؤكد أن المقصود بقولنا (المجاز) «أن للفظ أصلا مبدؤا به في الوضع ومقصودا، وأن جريه على الثاني إنما هو على سبيل النقل إلى الشيء من غيره، وكما يعقب الشيء برائحة ما يجاوره وينصبغ بلون ما يدانيه» (٥).

وقد يقال إن فكرة (المقاربة) هذه فكرة عربية فحسب، لم يكن بإمكان قدامة أو ابن سنان أو عبد القاهر التخلُّص منها، لكننا نجد الفكرة نفسها في تلخيص ابن سينا لخطابة أرسطو، ففيه «ينبغي أن يُستعمل من الألفاظ الموضوعية - أي المطابقة - والمتغيرة - أي المستعارة وما يجري مجراها من المجاز - ما يليق بالشيء، لا كيف اتفق... وينبغي للخطيب إذا أراد أن يستعير... أن يأخذ الاستعارة... من جنس مناسب لذلك الجنس» (٦)، محاك له، غير بعيد منه ولا خارج عنه «فأنجح ضروب

(١) سر الفصاحة ١٢٠، ١٢١.

(٢) سر الفصاحة ١٢٠.

(٣) الأسرار ٣٦٣.

(٤) الأسرار ٣٦٥.

(٥) الأسرار ٣٦٦.

(٦) خطابة ابن سينا ٢٠٥.

التغييرات ما كان المستعارُ منه يعادل المستعار له ويحاكيه محاكاةً تامةً (١) .

وقد استمرت هذه النظرة - على المستوى النظرى - قائمةً ، فصرح العلوى (ق ٧، ٨) ، بوجود إقرار المجازات اللغوية حيث وردت ، وعدم تعديها « إلا بإذن وتوقيف من جهة اللغة » لأنها واردة على خلاف الأصل والاستعمال ، ويمثلُ باستعارة لفظ الأسد للرجل الشجاع ، ويقول إن وجه الاستعارة بينهما المشاركة فى معنى الشجاعة ، فيجب إقراره حيث ورد ، ولو جاز تعديها لجاز إطلاق اسم الأسد على الرجل الأبخر وهو المتغير الفم ، فلو كانت المشابهة كافيةً فى حلّ الإطلاق لجاز ما ذكرناه (٢) .

وليس من شك فى أن ما دار حوله حديث أولئك النقاد هو نفسه ما عناه الأمدى بإيجابه أن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له ، وغير منافرة لمعناه ، لأن « الكلام لا يكتسى البهائم والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف » (٣) ، وكذلك بإيجابه وضع الألفاظ مواضعها ، وهو نفسه ما دار حوله حديث المرزوقى فى القسم الثانى من القسمين اللذين قسمنا إليهما عناصر عمود الشعر .

فإذا علمنا أن صاحب (الموازنة) قد أعقب نصه السابق بقوله : إن « تلك طريقة البحترى » وقوله إن « سوء التأليف ورداءة اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه ، حتى يخرج مستمعه إلى طول تأمل » وأن « هذا مذهب أبى تمام فى عظم شعره » (٤) ، رأينا - بسهولة - المذهبين المتقابلين ، وعرفنا ما استُحسِن فى أحدهما ، وما هُوَ جَم فى الآخر ، وتأكد لنا أن الهجوم على أبى تمام - حين وُصِف بالخروج على عمود الشعر - كان سببه الخروج على هذا القسم الثانى من قسمى العمود ، الخروج الذى يتمثل فى الإخلال بالشرائط التقليدية البسيطة للعبارة الشعرية التى رَسَمها الأمدى ، ووصفها بأنها طريقة البحترى .

(١) المرجع السابق ٢٢٩ .

(٢) الطراز ١ / ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) الموازنة للأمدى ١ / ٤٠٠ .

(٤) الموازنة ١ / ٤٠٢ .

وليس عند أبي تمام ما رُفِضَ غير هذا ، حتى المعانى الدقيقة والحكمة وما عُرِفَ بأنه معانٍ فلسفية ، وهذه كلها تجديدات عنده ، لم يرفض شيئاً من ذلك لذاته ، وإنما بسبب ما يورثه من تعسف النسيج واضطراب اللفظ مما يجعل لقب الفيلسوف أو الحكيم أليق بالمتكلم من لقب الشاعر (١) ، « لأن لطيف المعانى إذا جاء فى غير بلاغة ولا سبك جيد ولا لفظ حسن كان ذلك مثل الطراز الجيد على الثوب الخلق أو نقش العبير على خد الجارية القبيحة الوجه » (٢) ، فإذا كملت للأديب شرائط العبارة الجيدة واتفق له أن يحدث فى صنعته معنى لطيفاً مستغرباً... فذلك زائد فى بهاء الكلام (٣) .

يقول البهيتى عن أنصار البحتري : إنهم « لا يمتنعون تماماً عن تقبل الحكمة فى الشعر ، ولكنهم يأبون أن يستحيل الشعر فلسفةً ، ويقولون إن للفلسفة آلة فلتصطنع لها آلتها » (٤) ، فليس صحيحاً - إذن - ما يذهب إليه طه إبراهيم من أن النقاد العرب قد رفضوا عند أبي تمام والمنتبى الحكمة والمعانى الفلسفية لذاتها (٥) ، لأننا نعلم أن رفضهم لها كان مسبباً بما ينتج عنها من سوء العبارة ، فإذا جاءت هذه الحكمة والمعانى فى عبارة جيدة وجدناهم يقبلونها بغير تردد ، حدث ذلك عند الأمدى ، وحدث عند غيره فى القرن السابق عليه ، فقد كان المبرد معجباً بشعر أبي عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن العطوى الذى ذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام - وكان معتزلياً ، ووصف بأنه أحد المتكلمين الحذاق - ويذكر محمد بن داود أن شعره خف على كل لسان ، ورؤى ، واستعمله الكتاب ، واحتلوا معانيه وجعلوه إماماً ، ويذكر المبرد أنهم كانوا يتهادون شعره الذى يرد عليهم (٦) .

ومرة أخرى نعود من حيث بدأنا ، لنطرح من جديد هذا السؤال : على أى

(١) الموازنة ١ / ٤٠١ .

(٢) الموازنة ١ / ٤٠٢ .

(٣) الموازنة ١ / ٤٠٤ .

(٤) البهيتى ، أبو تمام الطائى ١٨٧ .

(٥) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٦) راجع الأغانى ٢٠ / ٥٩ ساسى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ٤٣٣ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان

شيء كانت تدور المناقشة إذن؟ وحول أي محور دار هجوم أنصار البحري على أبي تمام؟ ومرة أخرى لا نجد سوى نفس الإجابة: إنها صياغة أبي تمام ذات الطابع الخاص في أماكن من شعره وهو ما اعتُبر في نظر النقاد ضرباً من الغموض والتفكير والإجحاف باللغة.

فهل رفض أنصار أبي تمام تلك التهمة؟ . . . الواقع أنهم اعترفوا بها، وحاولوا الاعتذار عنها فقالوا: «لسنا ندفع أن يكون صاحبنا قد أوهم في بعض شعره، وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه» (١)، ولكنهم رأوا أن من الواجب «أن يسامح في سهوه ويتجاوز له عن زلله، فما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب» (٢)، ثم راحوا يسردون عدداً من مآخذ العلماء على الشعراء قبل أبي تمام، وكثير منها من نوع الأخطاء اللغوية بأخص معانيها، كما أن عدداً منها يدخل فيما سماه أنصار البحري بقبح الاستعارة، وما عرف عند قدامة والحاملي بالمعازلة، ومن الأمور ذات الدلالة في هذا الصدد أن كثيراً من هذه الأخطاء مروى عن الأصمعي (٣). ولعل في نوع هذه الأخطاء وانتمائها إلى الأخطاء اللغوية ما يدل - بجلاء - على تصورهم لطبيعة الأخطاء التي سجلها أنصار البحري على صاحبهم.

وهل دفع أنصار أبي تمام عن البحري ما تباهى به أنصار الأخير من صفة الإتقان للفظ والسبك في العبارة أو عابوها عليه؟ يصرح الآمدي بأن: «أكثر أنصار أبي تمام لا يدفعون البحري عن حلو اللفظ وجودة الرصف، وحسن الدباجة، وكثرة الماء، وأنه أقرب مأخذاً وأسلم طريقاً من أبي تمام» (٤)، وهكذا يلتقي - في النهاية - أصحابُ الشاعرين، في الاعتراف بقيمة المعاني المتكررة والعبارة الرائعة، وهذا ما لاحظته إبراهيم سلامة، فقرر أن أنصار الشاعرين «اتفقوا على شيء واحد في النهاية يجمع المعنى وسموه، والعبارة وملاءمتها لهذا السمو . . . فقد قالوا جميعاً

(١) الموازنة ١ / ٣٦ .

(٢) الموازنة ١ / ٣٦ .

(٣) راجع الموازنة: ١ / ٣٦، ٤٢، ٤٣، ٤٧، ٤٨ .

(٤) الموازنة ١ / ٤٠٠ .

(إن حسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء، وحسنا ورواقا، حتى كأنه أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تُعهد). وهذا الحكم الأخير إن صَفَّق له أنصار البحترى، فما يفضب له أنصار أبي تمام، لأن المعاني لم تُهمل في الحكم، ولأن الغرابة قد اعترفت بها، ويرضى أنصار أبي تمام في النهاية أن تكون المعاني والغرابة أدبية لا فلسفية، وإلا جافى الشعراء طبيعة الأدب، (١).

وهذه النتيجة تدل - في الواقع - على طبيعة موقف أنصار أبي تمام من البحترى، فالحقيقة أنه لم يكن هناك هجوم بالمعنى الصحيح على البحترى من جانبهم، وكل ما قالوه عنه يمكن حصره في نواح ثلاث: أخذ البحترى من أبي تمام، وكونه عارياً من فضيلة العلم بالشعر، وكذلك كونه عارياً من فضيلة اختراع مذهب يُعرف به (٢).

وقبل أنصار البحترى المأخذين الأولين، ولكنهم رفضوا أن يكون ذلك سبباً لانحطاط شاعرية صاحبهم، بل استمدوا منها سبباً للقول بأنه أشعر من أبي تمام، كذلك قبلوا المأخذ الثالث، أعني كون البحترى عارياً من اختراع مذهب خاص به، ولكنهم سلّبوا هذه الفضيلة ذاتها عن أبي تمام أيضاً، وفرقوا في هذا الصدد بين عدة أمور:

- ١- استخدام البديع - مجرد الاستخدام - ولم يكن أبو تمام أول من فعل ذلك.
- ٢- التوسع في استخدامه - مع الإحسان - وقد كان مسلم بن الوليد أول من توسع في استخدامه وكان أصح سبباً منه .
- ٣- التوسع في استخدامه مع الإساءة إلى اللغة والتعسف في هذا الاستخدام بما يؤدي إلى التعقيد وسوء الفهم نتيجة للخروج عن مألوف العبارة في صورتها السهلة البسيطة، وهذا هو ما التزمه أبو تمام: أفرط في البديع وأساء، فصار إفراطه من الذنوب لا من المحاسن .

(١) إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو ٣١٨ .

(٢) راجع في مأخذ أنصار أبي تمام على البحترى ووجوه الطعن عليه، الموازنة ١ / ٨، ١٤، ٢٤،

أما ما تباهى به أصحاب أبي تمام فهو أن أصحابهم أشعر لكثرة جيده وتفوقه على جيد البحترى، ولأن البحترى أخذ منه، ولأنه عالم بالشعر وأنه انفرد بمذهب اخترعه (١)، ثم دافعوا عما أوهم فيه من شعره وما عدل فيه عن الوجه الصحيح من معانيه قائلين إن هذا إنما يقتفر له بجانب إحسانه الكثير، وما نتج من المحاسن وولد من البدائع . . . « وإذا كان كل جيد دون جيده فلا يضره ما يؤثر من رديئه » (٢).

ويبدو من استعراض أقوال الفريقين أن أصحاب أبي تمام كانوا يمثلون الجانب الأضعف في تلك المحاورة، وكل ما أوردوه في التنويه بصاحبهم أو الدفاع عنه أو الهجوم على البحترى أمور عامة لا ترقى إلى التحليل والبسط والتفصيل وهو ما اتسم به حديث أنصار البحترى.

وهكذا تكون صورة تلك المحاورة - كما نراها - على النحو الآتي :-

- الفريقان يستحسنان اشتمال الكلام على المعاني المبتكرة والغريبة .

- الفريقان يفضلان حلاوة اللفظ وجودة السبك .

- إن تعسف أبي تمام وإجحافه بعبارة هو الذي أثار الخصومة ضده، لا من فريق بعينه بل من كل المشتغلين بالنقد. ولم يكن رد أصحابه قائما على رفض التهمة وإنما كان قائما على الاعتذار والتبرير .

وهكذا لم يكن حديث أصحاب البحترى - الذي تسنده النظرية الأدبية عند

العرب - كله هجوما على ما تصوره جديداً جيّداً أتى به أبو تمام، ولم تكن تلك
المحاورة صراعا بين أنصار للجديد يمثلهم فريق أبي تمام، وأنصار للقديم يمثلهم فريق البحترى . فالبحترى - كما صرح بذلك الكثيرون قداماء ومحدثين - كان شاعراً حديثاً، وربما كان أكثر انفكاكا عن الماضي من أبي تمام .

وظن بعض النقاد - في القرن الرابع - إلى محاولة أبي تمام التّشبه بالبدو ومحكاة الأوائل مما أداه إلى التّصعيب والتعسف، فإنه - كما يقول القاضي الجرجاني

(١) راجع في تنويه أنصار أبي تمام بشاعرهم، الموازنة ١ / ٨، ١٤، ٢٤، ٢٦، ٤٩ .

(٢) راجع في اعتذار أصحاب أبي تمام عن أخطائه وإساءاته، الموازنة ١ / ١٩، ٢٢، ٥١ .

- « حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توقيع اللفظ ، فقبح في غير موضع من شعره . . . فتعسف ما أمكن وتغلغل في التصعب كيف قدر » (١) ، ووصفه في موضع آخر بأنه يعجرف أحيانا ويتشبه بالبدو ، وينسى أنه حضري متأدب وقروي متكلف (٢) .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما يقوله أنصار البحري عن أبي تمام من أنه « حضري تشبه بأهل البدو فلم ينفق في البادية ولا عند أكثر الحاضرة » (٣) ، وما برزوا به ما قيل عن إنكار بعض العلماء لشعر أبي تمام مع قبولهم شعر الأعراب ، بالقول بأن شعر الأعراب محتذى على غير مثال ، أما المتحضرون المثقفون أمثال أبي تمام فإن شعرهم محتذى على الأمثلة . وغير المحتذى على الأمثلة أفضل (٤) ، وما يقوله الأمدى من أن أبا تمام كان يقيم محاولات الإغراب عنده على الإكثار مما ورد على قلة مما استغربه في أشعار الأوائل (٥) وأنه - أي الأمدى - قد وجد لدى القدماء نظائر قليلة لما وقع فيه أبو تمام من رذل الألفاظ وساقط المعاني فعلم أنه بذلك اغتر وعليه في العذر اعتمد ، طلبا منه للإغراب والإبداع ، وميلا إلى وحشي المعاني والألفاظ (٦) ، وهو ما حدا به إلى العمل لإدخال الغريب في شعره بدرجة تستهجن من الأعرابي القح الذي لا يتعمل له ولا يطلبه ، مما يجعل مجيء مثله من المحدث الذي ليس هو من لغته ولا من ألفاظه أخرى أن يستهجن (٧) .

إذا ذكرنا كل ذلك علمنا أن من الصعب التفكير في أنها كانت معركة بين قديم أنصاره فريق البحري وجديد أنصاره فريق أبي تمام . إذ إننا أمام نصوص يهاجم

(١) الوساطة للقاضي الجرجاني ص ١٩ .

(٢) الوساطة ص ٧٢ .

(٣) الموازنة ١ / ٢٦ ، وراجع جرونباوم (نشأة الشعر العربي وتطوره) ص ١٤٨ حيث ينعت حركة أبي تمام بلتها حركة رجعية .

(٤) الموازنة ١ / ٢٣ .

(٥) الموازنة ١ / ٢٥٦ ، ٢٨٤ .

(٦) الموازنة ١ / ٢٤٣ .

(٧) الموازنة ١ / ٢٨٦ .

فيها الاقتداءً بالقدماء أولئك الذين ادعى عليهم أنهم أنصار القديم، بينما يفخرون بأن شاعرهم الذي نشأ في البادية استطاع أن يطور نفسه ويتحضر، وأنه لم يحاول التقعر في لغته ولا محاكاة الأعراب الجفاة في وحشي ألفاظهم، بل جاءت عبارته سمحة سهلة (١).

الموقف من واقع المصطلحات

ومثل هذا الموقف يقطع - من ناحية - بأن أنصار البحتري لم ينظروا إلى أنفسهم باعتبارهم خصوماً لجديد أبي تمام، ويقطع - من ناحية أخرى - بوجود تصور راسخ لديهم عن مبدأ التجديد والطريق السوي إليه، وهذا ما يوضحه النظر في بعض المصطلحات التي استخدمها ذلك الفريق من النقاد خاصة مصطلحي (الطبع) و(التكلف)، فقد دأب أنصار البحتري على وصف صاحبهم ووصف شعره بأنه (مطبوع)، وفي نفس الوقت راحوا يصفون أبا تمام وشعره بـ(التكلف) يقول الآمدي: إن البحتري «أعرابي الشعر مطبوع... فهو بأن يقاس بأشجع السلمي ومنصور النمرى وأبي يعقوب المكفوف وأمثالهم من المطبوعين أولى» (٢). أما أبو تمام فهو «شديد التكلف صاحب صنعة» (٣).

ويعزو عبد القادر القط إلى الدارسين في العصر الحديث فهم مصطلحي الطبع والتكلف على أن الأول يعني: البساطة Simplicity والطبيعية Naturalness بينما يعني الثاني: الصناعية Artificiality وإن تكن بمفهوم غير سيئ، ثم يرفض أن يكون القدماء قد فهموا من المصطلحين هذا الفهم، فقد فهم القدماء كلمة الطبع على أنها تعني: القدرة على الارتجال Improvisation بينما فهموا التكلف على أنه يعني

(١) الموازنة ١ / ٢٦، وراجع جرونباوم، الموضوع السابق.

(٢) الموازنة ١ / ٤.

(٣) الموازنة ١ / ٤.

: الروية contemplation (١) ، ثم ينقل كلمات ابن قتيبة وأحكامه في هذا الصدد وهي مما يؤيد وجهة نظره (٢) .

والواقع أن كلاً من هذه الوجوه في فهم المصطلحين وارد عند القدماء ، وما يعزوه القط إلى الدارسين المحدثين في فهم مدلول المصطلحين عند القدماء هو - في الواقع - خلاصة مذهب الأصمعي ، وأيضا - ومن زاوية معينة - خلاصة مذهب الجاحظ .

فمن أقدم الأقوال في هذه المسألة ما ينسب إلى الأصمعي الذي وصف زهيرا والحطيئة بأنهما من عبيد الشعر لأنهما نقحاه ولم يذهبا به مذهب المطبوعين (٣) ، وينقل الجاحظ وصفه للحطيئة بأنه (عبد لشعره) وقال إنه « عاب شعره حين وجده كله متخيرا متخبا مستويا لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه » (٤) ، كذلك نقلوا عنه إعجابه بصفة التفاوت بين الجزالة والليونة في شعر النابغة الجعدي ، وقد ذكر ابن سلام أن الأصمعي « كان . . . يمدحه بهذا ، وينسبه إلى قلة التكلف » (٥) ، وتدل المصادر على أن مثل هذه الصفات - أعني التفاوت وعدم العناية بالتنقيح والتهديب - كانت وراء إعجابه بشعر بشار وأبي العتاهية أيضا (٦) .

وواضح أن الأصمعي يربط بين (التكلف) وبين مراعاة قواعد الصنعة وتنقيح الشعر ، كما يربط - ضمنا - بين الطبع وبين إغفال هذه القواعد أو عدم التشبث بها ، وكذلك عدم العناية بالتنقيح والتهديب المفرطين . ولا يبتعد التكلف

(١) Elkott (A.) Arab Conception of Poetry as Illustrated in kitab Al- Mu- wazanah P.21.

(٢) راجع أقوال ابن قتيبة التي يشير إليها القط في الشعر والشعراء ١ / ٣٤ ، ٣٧ ، وراجع أيضا ٧٣ / ٢ .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٩٤ .

(٤) البيان والتبيين ١ / ٢٠٦ .

(٥) ابن سلام ، طبقات الشعراء ١٠٥ ، والشعر والشعراء ١ / ٢٤٩ ، والموشح ٦٤ .

(٦) الأغاني ٣ / ١٤٩ ، ٤ / ١١ ، ٤٠ .

بهذا المعنى عن معنى الوقوع فى التقليد ، كما أن الطبع يكتسب بهذا الاستعمال كثيرا من سمات الأصالة .

وحديث الجاحظ فى هذه الناحية أكثر تفصيلاً ووضوحاً فى الكشف عن الدلالة التى فهم بها المصطلحان حتى القرن الثالث على الأقل - وهى الفترة التى احتوت حياة الشعاعين و التى شهدت أيضاً كثيراً مما قيل حولهما مما تضمنته المؤلفات اللاحقة .

وهو يشير فى (الحيوان) إلى أن بنى حنيفة « مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم . . . لم نر قبيلة قط أقل شعرا منهم ، وفى إخوانهم عجل قصيد ورجز ، وشعراء ورجازون ، وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر وأكأو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم فى الشعر كما قد علمت ، وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد تعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة ، وثقيف أهل دار ناهيك بها خصبا وطيبا ، وهم وإن كان شعرهم أقل ، فإن ذلك القليل يدل على طبع فى الشعر عجيب . وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك عن قدر الله لهم من الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق . . . وبنو الحارث بن كعب . . لم يكن لهم فى الجاهلية كبير حظ فى الشعر ، ولهم فى الإسلام شعراء مفلقون » (١) .

وأبسط ما يمكن أن نفهم به هذا النص هو تذكر تعليق ابن سلام لقلة الشعر - فى الجاهلية - فى مكة والطائف وعمان حيث أرجع تلك القلة إلى عدم وجود الحروب والفتن بين أحياء تلك الأقاليم (٢) ، وإذا جاز لنا القول بأن ابن سلام يعول على الدافع الخارجى ، وجوداً وانعداماً ، فى تعليق كثرة الشعر وقلته ، ثم رأينا الجاحظ لا يهمل فحسب دور هذا العامل ، وإنما يؤكد قلة الشعر فى بنى حنيفة مع وجوده ، أى أنه ينكر دور هذا الدافع فى كثرة الشعر وقلته ، أدركنا أنه يقف بلا شك عند سبب آخر أو عامل آخر وراء نفس الظاهرة التى وقف أمامها ابن سلام ، وأن هذا العامل - فيما

(١) الحيوان ٤ / ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٢) ابن سلام ٢١٧ .

يبدو - ليس خارجياً عن نفس الشاعر .

وتصادفنا في محاولة تبين رأيه في الموضوع كلمات مثل (الطبع) ومثل (قدر الله . . . من الحظوظ والغرائز) الخ .

ولعل حديثه في (البيان والتبيين) - في رده على الشعوية - عن الطبع والتكلف كفيل بتوضيح معنى كل من هذين المصطلحين من خلال الاستعمال في محيط النقد القديم في تلك الفترة .

لقد كانت الشعوية تعيب على العرب «ترك اللفظ يجرى على سجيته . . حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف . . . ولا تكلف وزن» (١)، ويرد الجاحظ بأن «الذي تجرد به الطبيعة وتعطيه النفس سهوا رهوا مع قلة لفظه وعدد هجائه أحمد أمراً وأحسن موقعا من القلب . . . من كثير خرج بالكد والعلاج» (٢)، وكلام النبي نفسه يوصف بأنه «جل عن الصنعة ونزهة عن التكلف وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمد (وما أنا من المتكلفين)» (٣)، «نزهة الله رسوله، ولم يرغب في صنعة الكلام والتعبد لطلب الألفاظ والتكلف لاستخراج المعاني . . . فإذا رأت مكانه الشعراء ومن قد تعبد للمعاني وتعود نظمها وتنضيدها . . . واستخراجها من مدافنها وإثارتها من مكانها علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم مما قد استفرغهم، واستغرق مجهودهم . . . قليلا مما يكون معه على البداة والفجاءة، من غير تقدم في طلبه، واختلاف إلى أهله» (٤)، فالتكلف يعني التعمق في الصنعة، كما يقابل القول على البداة والفجاءة، أي أنه يدل على التروى والتنقيح، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى يرتبط مفهوم التكلف عند الجاحظ بادعاء الإنسان ما ليس فيه، وكونه غير أصيل فيما يدعيه من الصفات، ويصرح الجاحظ بأن العرب لم يكونوا «يذمون المتكلف للبلاغة فقط، بل كذلك يرون المتظرف والمتكلف للغناء،

(١) البيان والتبيين ٦ / ٣ .

(٢) المرجع السابق ٤ / ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) المرجع السابق ٢ / ١٦ ، ١٧ .

(٤) المرجع السابق ٤ / ٣٠ .

ولا يكادون يضعون اسم المتكلف إلا في المواضع التي يذمونها، قال قيس بن الخطيم:

وإني لأغنى الناس عن متكلفٍ . . . يرى الناس ضللاً وليس بمهتدٍ
وقال ابن قميئة:

وحمائلُ أثقالٍ إذا هي أعرضت . . . عن الأصل لا يستطيعها المتكلفُ (١).

ويقابل التكلف عنده أكثر من مصطلح مثل (البديهة) و (الارتجال) و (الإلهام) و (الطبع) ، ولعل أهمها وأدقها هو الأخير . وهو - عنده - يعنى الاعتماد على النفس فى القول والاستسلام لمقتضيات التعبير عن الذات والموضوع دون تعمل أو استعانة بشيء خارجى ، حتى ولو بالتراث ، وهذه - أى صفات الطبع والقدرة على القول بديهيةً وارتجالاً - هى ما امتاز به العرب ، وليس كذلك الفرس ، إذ إن « كل كلام للفرس وكل معنى ، فإنما هو عن طول التفكير ومدارسة الكتب ، وحكاية الشانى علم الأول وزيادة الثالث فى علم الشانى ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم ، هذا بينما « كل شىء للعرب فإنما هو بديهيةً وارتجالاً وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكر ولا استعانة ، وإنما تأتى الواحد منهم « المعانى أرسالاً ، وتثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقبده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده ، وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يكتبون . . . وكل واحد فى نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، ويحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب » (٢) .

ويبدو أن هذا الموقف من الجاحظ هو رد فعل على غير قليل من الحماس فى مواجهة ما غابته الشعوبيون على العرب ، وهو حكم يستغنى عما يولد عنده فى موضع

(١) المرجع السابق ٢ / ١٨ .

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٨ ، ٢٩ .

آخر من تنويه وتقدير لقيمة وعي العرب بتراثهم وحفظهم لأشعارهم (١)، وكذلك ما قرره من أن ذلك الإعجاب بالتراث والاستيعاب له ليس مما يخل بالمقدرة الابتكارية للشاعر، إذ نراه يصف بشاراً - وهو من هو تحصيلاً للشعر العربي والثقافة العربية - بأنه من «المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع» (٢).

وتدلُّ القرائنُ على أنه كان يفرق في النظر إلى التراث والانتفاع به بين موقف النقل والتقليد والاتباع - على نحو ما كان يصنع الفرس - وبين مجرد الاستنشاء بالتراث واتخاذهِ وسيلةً لصقل المهبة والمران وهو ما كان يصنعه العرب (٣).
فالتطبع - كما تدلُّ نصوصُ الجاحظِ والأصمعي - نقيضُ التكلف، وإذا كان المصطلح الأخير يعني:

- الحفظ والانتفاع المباشر بكلام الغير.

- التعمق في الصنعة والتعمُّل لاجتلابها.

- القول على الروية والاهتمام بالتنقيح والتهذيب.

- عدم الصدق، والكذب في ادعاء ما يتصف به الإنسان.

فإن التطبع يعني عكس ذلك كله: يعني عدم الاحتذاء لكلام الغير، وعدم الجري وراء الصنعة، وهو ما قد يدلُّ عليه - في رأي عدد من نقاد العرب - القدرة على القول بديهيةً وارتجالاً، وكذلك يعني الصدق في القول وفيما يخبر به الإنسان عن نفسه، فالتطبع يدلُّ على أن كلام القائل منبثق من ذاته، مستقل عن سابقه، لأنه لم يعتمد فيه بصورة مباشرة على أحدٍ منهم، كما لم ينحرف عن الصدق بالجري وراء متطلبات الصنعة أو بالإخبار عن أمورٍ كاذبةٍ غير نابعة من إحساسه وذاته.

وتتجلى كل من الصفتين في شعر صاحبه، أما التطبع فتتجلى نتيجته - كما عند البحترى مثلاً - في «حلاوة اللفظ وحسن التخلُّص ووضع الكلام في مواضعه

(١) المرجع السابق ٣ / ٣٦٦.

(٢) أغاني ٣ / ١٤٥ ط دار الكتب.

(٣) راجع في هذا الفهم لنور التراث في تكوين الأديب: البيان والتبيين ١ / ٤٤.

وصحة العبارة وقرب المأثي وانكشاف المعاني ، وتجنب « التعقيد ومُستكره الألفاظ ووحشى الكلام » (١) . وأما التكلف فيظهر - فى المقابل - عند أبى تمام فى « غموض المعانى ودقتها وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج » ، وكذلك فى استكراه الألفاظ والمعانى ، وما فى شعره من « الاستعارات البعيدة والمعانى المولدة » (٢) .

وقد أجمل القاضى الجرجانى مظاهر التكلف فى شعر أبى تمام ، فقال : « إنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل فى كثير من ألفاظه فحصل منه على توعير اللفظ ، فقبح فى غير موضع من شعره ... فتعسف ما أمكن ، وتغلغل فى التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب ، ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعانى الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وكدّ الخاطر ، والحمل على القريحة ... وتلك حال لا تهش فيها النفس للاستماع بحسن ، أو الالتذاذ بمستطرف ، وهذه جريرة التكلف » (٣) .

وقد يكون من المناسب - فى سياق الحديث عن مصطلحى (الطبع) و(التكلف) - أن نقف على رأى أبى تمام نفسه فيما عرف بشعر الطبع والشعراء المطبوعين - ومنهم البحترى - وحسن رأيه فى هذا الأخير معروف ، إذ هو الذى خرج وزكاه وقدمه فى أول حياته ، مع ما هو معروف عن اختلاف مذهبيهما ؛ وأما موقفه من شعر الطبع عموما فيمثل رأيه فى شعر ابن عيينة ، ومعروف أنه من المطبوعين ، يقول الصولى : « وكان ابن أبى عيينة عند أبى تمام - مع هذا التباعد

(١) الموازنة ١ / ٤ .

(٢) الموازنة ١ / ٤ ، ٥ .

(٣) الوساطة ص ١٩ ، وجدير بالذكر أن القاضى يستدرك فى أعقاب هذا الكلام بأن هذا الحكم لا يعم جميع شعر أبى تمام ، وإنما هو خاص بالمواضع التى أساء فيها ، والتى باستثنائها يحظى أبو تمام وشعره بكل التقدير والإعجاب . انظر ص ١٩ ، ٢٠ .

بينهما - شاعراً مجيداً، ثم يروى الخبر عن وصف أبي تمام لشعر ابن أبي عيينة بأنه مختار كله (١).

وهكذا يكون بإمكاننا عن طريق المراجعة والفهم - من زاوية تاريخية - لهذين المصطلحين اللذين شاع استخدامهما على لسان أصحاب البحري أن نفهم حقيقة موقفهم من قضية التجديد بصفة عامة ومن أبي تمام وما نسب إليه من تجديد بصفة خاصة، وإذا قد رأينا ما دأبوا عليه من استخدام كلمة (الطبع) والربط بينها وبين عدم الاحتذاء بثنتي صورته، ثم وصفهم صاحبهم بأنه (مطبوع)، وأيضاً ما دأبوا عليه من استخدام كلمة (التكلف) وربطهم بينها وبين التقليد واحتذاء السابقين في أفكارهم وأساليبهم ثم وصفهم لأبي تمام بأنه (متكلف)، أدركنا أن فكرة المقاومة للتجديد لم تكن في أذهانهم وهم يتناولون بعض شعر أبي تمام بالنقد والتقويم، إذ كان العكس هو الصحيح، أعنى أنهم كانوا يصفون أبا تمام بالتقليد ومحاولة التشبه بالبدو والاحتذاء على أمثلة الغير.

باختصار كان ما أخذهُ أصحاب البحري على أبي تمام هو ما أخذهُ عليه النقاد وأصحاب اللغة جميعاً، وقد انصب حديثهم لا على شعر أبي تمام في جملة، وإنما على مجموعة من الآيات يعترفُ الدارسون المحدثون أنفسهم بتعسفه وسوء عبارته في كثير منها.

وهذا تقريباً هو ما أخذهُ النقاد على أبي تمام، وما قصدوه عندما قالوا (إنه خرج على عمود الشعر)، وسواء صحت تلك النظرة، أو أنها كانت خاطئة، أو أن النتائج التي ترتبت عليها كانت على خلاف ما توقع أصحابها، فإننا يجب أن نحدد ميدان الحديث، وأن نفرق بين الرأي، والنتيجة التي ترتبت عليه.

(١١١)

(٣)

عَوْدٌ إِلَى حَقِيقَةِ الْمَوْقِفِ مِنْ أَبِي نُوَّاسٍ

هكذا نرى أن الجدالَ حول أبي تمام لم يكن تحت شعار أنه مجددٌ مبدعٌ، إذ اعترف له خصومه بهذه الصفة وقدروها، ولكن حديثهم دارَ حول قضية أخرى هي ما عُرف بالخروج على عمود الشعر .

وسبق أن قلنا إنه لم يقم حول أبي نواس جدلٌ مماثل، وأن ما ينسبه الدارسون المحدثون إلى أبي نواس من محاولات التجديد أمران :

الأول : الدعوة النظرية والخروج العملي على المقدمة التقليدية للقصيدة العربية.

الثاني : أنه كان ضمن مقدمات أسلوب أبي تمام في البديع . ومن هؤلاء الدارسين - مثل هدارة - من قال بخروجه على عمود الشعر كما حدث عند أبي تمام .

وإذ رأينا أن البديع في ذاته لم يكن موضعاً للهجوم كما لم تُهاجم دعوة أبي نواس إلى تطوير مقدمة القصيدة، فقد بقي علينا أن نختبر حالة أبي نواس على ضوء مسألة الخروج على عمود الشعر : هل خرج عليه ولم يُهاجم ؟ فيعود الاضطراب إلى الموقف من جديد بحكم أن نفس الخروج كان مدعاةً للهجوم على أبي تمام ؟ أو أنه لم يُهاجم لأنه لم يخرج على عمود الشعر في نفس الجانب الذي يثير الخروج فيه نائراً النقاد ؟

يقول محمد مندور : إن تجديد أبي تمام كان في الصياغة ، وإنه لم يجدد في المعاني وهذه حقيقة فطن إليها ابن المعتز (١) .

(١) النقد المنهجي لمنصور ص ٦٠ .

ومندور يشير هنا إلى نص ابن المعتز في كتاب (البديع) الذي ذكر فيه أن البديع موجود في كلام العرب قبل أبي تمام، وأن الطائي لم يفعل أكثر من أنه تفرع فيه وأكثر منه، وكان مندورا قد عاد ليرى أن خاصية مذهب أبي تمام هي الإكثار من البديع والإفراط فيه، ولا شك أنه يقرر هذا حين يؤمن على كلام ابن المعتز في رد تنمية مذهب البديع - كما انتهى عند أبي تمام - إلى عدد من الشعراء منهم أبو نواس الذي وصفه مندور بأنه قصد إلى التجديد في المعنى والتجديد في العبارة على السواء (١).

كيف إذن هوجم أبو تمام بينما لم يهاجم أبو نواس؟ يقول عبد القادر القط: إن تجديد أبي نواس « كان » . . . تجديداً في إطار محدود، فلم يحس معاصروه بأنه قد خرج على مقومات الشعر المعروفة، أو أتى ببدع ينكره المتعصبون للقديم. لذلك لم تثر حوله خصومة بين القديم والجديد، ومع أن كثيراً من النقاد القدماء قد عدوه فيما بعد رائداً من رواة مذهب أبي تمام فإنهم قد قصرُوا دوره على ما في شعره من مجازات وتشبيهات كثيرة ولم يكن مذهب أبي تمام مقصوراً على الإسراف في تلك الألوان الخاصة، وإنما يمثل على حقيقته . . . في طريقة استخدام تلك الألوان (٢).

ومع الاحتفاظ بحق مناقشة ما سُمي بموقف أنصار القديم من مثل دعوة أبي نواس ومذهب أبي تمام، ومع الاحتفاظ برأينا في أهمية دعوة أبي نواس التجديدية، نرى أن الفارق الحقيقي بين البديع عند أبي تمام وبينه عند غيره هو طريقة استخدام أبي تمام للبديع - كما يقول القط - وليس مجرد استخدامه أو الإفراط في هذا الاستخدام. من هنا ندرك عدم دقة وصف ابن المعتز - في كتاب (البديع) - لمذهب أبي تمام، وتفسيره بأنه استمرار لتيار البديع قبله مع شيء من الإفراط في استخدامه، فهذا الوصف كما يقول شكري عياد: « وإن اتفق مع تفسير هذا المذهب بالبديع من بعض الجهات فإنه لا يساويه تماماً، فلو نظرت في شعر أبي هلال العسكري مثلاً،

(١) النقد المنهجي لمندور ص ٥٠.

(٢) (حركات التجديد في الشعر العباسي) عبد القادر القط ٤١٩.

ذلك الذى يُورده لنفسه فى الصناعتين ، لرأيته مُقلداً بالزينة البديعية أكثر من شعر أبى تمام ، والفرق بين الطريقتين - مع ذلك - واضح ، (١) .

ولعلّ مما يكمل تفسير ابن المعتز لمذهب أبى تمام - ويصحّحه فى نفس الوقت - ما ذكره فى (طبقاته) من أن السردىء الذى لأبى تمام (إنما هو شىء يستغلق لفظه فقط) ، ولا شك أنها الرداءة التى وصف مصدرها فى (كتاب البديع) قائلاً إنها عُقبى الإفراطِ وثمرة الإسراف ، ولا شك أنها الرداءة التى كانت محور الهجوم على أبى تمام ، وهو صريح فى :

- ١- أن ما أخذ على أبى تمام كان من قبيل الخطأ اللغوى واستغلاق اللفظ والتعقيد .
- ٢- أن مجرد استخدام البديع - أو التوسع فيه - لم يكن فى ذاته موضعاً للهجوم ، وإنما أثره فى لغة الشعر (٢) .

وتدل الروايات التى حملتها إلينا كتب الأدب والنقد على أن أبانواس لم يكن هدفاً للطعن من هذه الناحية ، بل على العكس من ذلك ، نجد أنهم كثيراً ما كانوا يُشيدون بعلمه وثقافته اللغوية ، ومثانة أسلوبه ، من ذلك ما سمعناه من حديث ابن قتيبة عنه (٣) ، وما قاله أبو هفان من أنه كان آدب الناس ، وأعرفهم بكل شعر (٤) ، كذلك سبق أن رأينا تنويه الأصمعى به وإشادته بعلمه وأدبه وشاعريته أمام الفضل البرمكى (٥) .

وإلى جانب هذا الحديث العام عن علمه وأدبه ، نجدهم يشيرون بصفة خاصة إلى حفظه للكثير من الشعر . فيقال إنه كان يحفظ دواوين ستين امرأة من العرب فضلاً عما يحفظ من أشعار الرجال (٦) ، وإنه كان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين

(١) شكرى عياد كتاب أرسطوطاليس فى الشعر ص ٢٧٩ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٨٦ .

(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٢ / ٧٧٢ ، ٧٧٣ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٥ .

(٥) المرجع السابق ٢١٦ .

(٦) المرجع السابق ١٩٤ .

وأوائل الإسلاميين والمحدثين (١) ، وهناك أخبارٌ أخرى كثيرة في تعددِ وجوه ثقافته التي لم تكن قاصرةً على الشعر أو الأدب عامةً ، وقد عكف بصفة خاصة على اللغويين أمثال خلف الأحمر (٢) ، وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، كما نظر في نحو سيويه (٣) ، من هنا كان تنويع العلماء أمثال الجاحظ وإبراهيم بن سيار النظام وأبي هفان وأبي عمرو الشيباني وابن السكيت بعلمه باللغة وإحكامه لقوله ، بل صرح بعضهم بأنه كان يستشهد بشعره (٤) .

كل تلك الثقافة ، وذلك الإمام الواسعُ بعلوم اللغة والشعر والرواية والحفظ والنحو والغريب هو الذي جعل عالماً مثل ابن قتيبة يطمئن إلى أن المواطن التي أخذ فيها اللحنُ على أبي نواس إنما يمكن الاحتجاج لها بما يوجد في كلام العرب والشعر المتقدم مما يشبهها (٥) .

هذا التفوق البارز في علوم اللغة وأثره في شعره ، لاحظته كثيرون من المحدثين ، فطه إبراهيم يُشيد بعلم أبي نواس الفسيح الغزير المتشعب ، وبتمام آتته في العربية ، ويُعجب كيف اقتصر تجديده على التديباجة وعند مجرد إدخال البديع (٦) ، ومندور نفسه يتساءل - في بعض المواضع - عن السر في عدم ثورة النقاد عليه : «هل ذلك لأن النقد لم يكن قد نما بعد . . . أم كان لأن أبا نواس - رغم أنه مولد أعجمي - كان يُجيد اللغة العربية ويحذق الكتابة فيها ، فجاء شعره عريباً أصيلاً لم يخرج في شيء عن عمود الشعر ؟ لا ريب أن في كل من هذه الأسئلة شيئاً من الصحة » (٧) ، وبالمثل

(١) المرجع السابق ص ٢٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠١ ، وأيضاً ١٩٤ ، وأخبار أبي نواس لأبي هفان ص ١٠٩ .

(٣) نزعة الألباء في طبقات الألباء لابن الأنباري ص ٤٩ .

(٤) نزعة الألباء ٤٩ ، ٥٠ ، أخبار أبي نواس لأبي هفان ص ٢٢ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢١ ، وطبقات

ابن المعتز ٢٠٢ ، والوساطة ٥٥ .

(٥) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٢ / ٧٩٤ .

(٦) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ١١٠ .

(٧) مندور ، النقد المنهجي ٧٠ .

يشير عبد القادر القط إلى تماسك بناء قصائده في كثير من الأحيان (١).

لنقف الآن عند هذه الحقيقة ، ونقرر أن أسلوب أبي نواس ولغته - وفي نفس المواطن التي اتهم أبو تمام بالخروج فيها على عمود الشعر - لم يكن فيها ما يشير النقاد عموماً ، وليس من سمواً بأنصار القديم فحسب : وإذا كان الخروج على ذوق اللغة - وليس الابتداع في المعاني أو الابتكار فيها - هو الذي أثار النقاد ضد أبي تمام ، فإن رصانة الأسلوب والتمسك بما تحتمله اللغة من وجوه الاستعمال هو الذي جنب أبا نواس مثل تلك الثورة .

وتشير النصوص القديمة إلى أن في الإمكان الاطمنئنان إلى هذا التحليل الذي تعززه مقارنة النصوص ووضع بعضها بجانب بعضها الآخر ، مثلاً النصوص التي تنزه بإحكام لغة أبي نواس وأسلوبه ، وتلك التي تصف أبا تمام بعكس ذلك ، فعلى ضوء هذه النصوص يمكننا أن نتبين أن طريقة أبي تمام في الصياغة الملتوية - والتي زادها التواء غرامه بالبديع وحرصه على تحقيقه - هي سر الهجوم عليه ، وليس ما أتى به من جديد في المعاني والأفكار ، وأن محافظة أبي نواس على متانة العبارة وعلى الصياغة السهلة المبسطة هي التي جنبته - رغم دعوته التجديدية الواضحة - ما كان يمكن أن يتعرض له لو أنه سلك طريقة أبي تمام في الصياغة .

وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر أن صحة العبارة واستقامة التركيب هي نفسها التي حالت بين مسلم بن الوليد - الرائد المباشر لأبي تمام في الإفراط في استخدام البديع - وبين قيام ثورة ضده كتلك التي قامت ضد أبي تمام ، فقد لاحظ النقاد سلامة أسلوب مسلم - على الرغم من إكثاره من البديع - وقارنوا في هذه الناحية بينه وبين أبي تمام ، ثم جعلوا أبا تمام أدنى مرتبة لأنه - كما يقول الأمدى - « ينحط عن درجة مسلم ، لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه » (٢) ، ولأن مسلماً على الرغم من تتبعه لأنواع البديع وتوسيع شعره بها « وضعها في موضعها » (٣) ،

(١) عبد القادر القط (حركات التجديد في الشعر العباسي) ٤١٨ .

(٢) الموازنة ١ / ٦ .

(٣) الموازنة ١ / ١٧ ، ١٨ .

وذكر ابن رشيقي « أن مسلماً أسهل شعراً من حبيب ، وأقل تكلفاً » (١) ، وأوضح ابن شهيد القضية بصورة أخرى ، فقال وهو بصدد الحديث عن إسراف أبي تمام في البديع : إن « التوسط في الأمر أعدل ، ولذلك فضل أهل البصرة صريح الغواني على أبي تمام لأنه ليس ديباجة المحدثين على لامة العرب ، فتركب له من الحسن بينهما ما تركب » (٢) ، ومن الطريف أن نجد من الأخبار ما يدل على كراهية مسلم نفسه لصور من تجاوز المجهف باللغة (٣) ، من هنا نجد مسلماً وأبا نواس كثيراً ما كانا يوضعان في طبقة واحدة (٤) .

هكذا يتضح أمامنا السبب في سكوت النقاد عن أبي نواس وغيره من الشعراء ذوي النزعات التجديدية ، وهو تمسك أولئك الشعراء بالأسلوب السهل في تناول اللغة وهو ما كان الانحراف عنه سبباً للهجوم على أبي تمام . أما مقاومة ما اعتقد أنه جديد صالح فلم تكن واردة في أذهان أولئك النقاد وهذا واضح من موقفهم من أبي تمام ومن دعوة أبي نواس على السواء .

والذين يعلنون عدم الهجوم على أبي نواس بالغضب من دعوته أو تجديده يلتمسون للأشياء عللاً غير عليلها الحقيقية ، لأنه ببساطة يلزمهم أن يقرروا بأن ما قام به أبو تمام من تعقيد العبارة والالتواء بها كان تجديداً جوهرياً بحيث استدعى الهجوم عليه .

وقد يمكن القول بأن تحقيق أبي نواس لتجديده ، لم يكن على درجة من

(١) العمدة ١ / ١٣١ .

(٢) النخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٣ ، ومما له دلالة في كلام ابن شهيد مما يتصل بالموقف من أبي نواس ما صرح به من تقبل البصريين لأسلوب مسلم ، ذلك أن أبا نواس نفسه كان بصرياً ، ومعروف أن المدرسة البصرية هي التي تزعمت الدفاع عن اللغة في صورتها القياسية .

(٣) الموشح ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، حيث يعيب مسلم بيتاً لأبي نواس ويقرنه إلى بيت أبي العذافر :

باض الهوى في فؤادي . : . وفـرَّخَ التَّنْكَارُ

(٤) النخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٣ .

الخطورة وأن ما صنعه من الحديث عن الخمر في بعض قصائده ليس تجديدًا يُعتدُّ به، قد يكون ذلك صحيحًا، وقد تكون دعوة أبي نُوَاس في نظرنا نحن المحدثين مجردَ فورةٍ نفسيةٍ من رجل تسلطت عليه الرغبة في المخالفة جريًا وراء الشهرة... قد تكون، وقد يكون وراءها شيء من السخرية بالعرب أو أي دافع آخر، لكن الذي لا جدال فيه هو وجوب قياس مدى أهمية الدعوة لآبما انتهت إليه من تجديد، أو بما كان لها من أثر في شعر صاحبها، وإنما يجب أن تقاس بمقارنتها بما كان سائدًا في الأوساط النقدية في عصرها.

يقول ابن رشيقي: إن « من الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطًا من النسب، بل يهجم على ما يريده مكافحةً، ويتناوله مصافحةً، وذلك عندهم هو: (الوثب) و(البتر) و(القطع) و(الكسع) و(الاقْتِضاب) » (١)، وواضح من سياق حديث ابن رشيقي أنه يقصد قصائد المدح، إذ يمثل لا انتقاد افتتاح القصائد بالغزل بقول أبي الطيب:

• إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ •

ويدل هذا النص على أن النقاد كانوا على يقظة لأي تغير في مقدمة القصيدة، وإن لم يعارضوه، لكنهم عرفوا أن هناك قصائد عادية يُبتدأ فيها بالنسب والحديث عن الأطلال، وهي البداية التقليدية، وقصائد أخرى ليس لها بسط من النسب، هي التي أطلقوا عليها الأسماء التي ذكرها ابن رشيقي في نصه السابق.

ولم يعارض أحد من النقاد أي محاولة للتغيير في مقدمة القصيدة، غير أن ذوقًا خفيًا، بررَّوه تبريرًا عمليًا ونفسيًا يتفق مع فن المدح نفسه والغاية التي يسعى إليها المادح، وكذلك الأحاسيس والصور التمثيلية التي يجب على الشاعر أن يرسمها في قصيدته حتى يبعث كرم الممدوح وسخاءه، حين يذكر المشاق التي تكبدها في الرحلة إليه، هذا الذوق غير المتعصب هو الذي جعلهم يُشيرون على الشاعر بالإمام بالمقدمة التقليدية، التي ارتبطت غالبًا بقصيدة المديح.

أكثر من هذا أننا نجد المدوحين أنفسهم هم الذين يحضون على تمسك الشعراء بهذه المقدمة ، فالحجاج - مثلا - يسأل جريرا عن تشبيب قصيدة مدحه بها (١) دون أن يبدأ بتشبيب . وكذلك مثل الوليد بن يزيد شاعره يزيد بن ضبة أن يصنع لقصيدته في وصف فراس الوليد تشبيبا يغنى فيه (٢) ، وعندما ترك أشجع السلمي في مدحه له في الرشيد إنشادا تشبيها - خوفاً من أن يدركه وقت الصلاة - يطلب منه الرشيد أن ينشد التشبيب (٣) ، بل يقولون إن المأمون لم يكن يستمع من القصيدة إلا إلى التشبيب أو الوصف ، فإذا انتقل الشاعر إلى المدح لم يسمع منه إلا بيتين أو ثلاثة ثم يقول للمنشد : حسبك (٤) . وقد تنبه جرونباوم إلى إحساسهم بالرابطة بين وصف الرحلة - بما فيها من مخاطر وأحوال ومشاهد طبيعية - وبين مكانة المدوح (٥) .

ولم يكن ابن قتيبة - الذي أوجب على متأخر الشعراء ألا يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه المقدمة (٦) - هو المسؤل عن هذا الذوق الذي لم يتمسك به هو أو الشعراء ممن عاصروه أو سبقوا عليه ، إذ هو يحكى ما سمعه (عن بعض أهل الأدب) . ويتضح من مجموعة الابتداءات التي اختارها أبو عمرو بن العلاء أن الذوق العام بين النقاد كان الافتتاح بالأطلال (٧) .

على أنه كما قلنا كان ذوقا اختياريا ، لم يتخذ شكلا القرض والإجبار ، من هنا رأينا رحلة بشار - أكثر من مرة - إلى المدوح في سفينة ، وكذلك فعل مسلم . ثم جاء أبو نواس فلم يسلك سبيل التجديد في صمت ، وإنما أعلن عن دعوته ، واتخذ منها مذهبا ينافح عنه - ضد لا أحد بالطبع - اللهم إلا الشعراء الذين استمروا في الوقوف بالأطلال ، على أن إعلانه هذا جعل لقضية المقدمة التقليدية طابعا مختلفا ، أو لعل

(١) أغاني ٤ / ٢٥٧ .

(٢) أغاني ٧ / ١٠٢ .

(٣) أغاني ١٧ / ٢١ ساسي . ومعاهد التنصيص ٥٢٥ .

(٤) أغاني ١٨ / ٩٢ .

(٥) جرونباوم (الاستجابة للطبيعة في الشعر العربي) ١٦١ .

(٦) الشعر والشعراء ١ / ٢١ .

(٧) الأغاني ٣ / ١٤٨ .

الأصوب أن نقول إنها غيرت تصورنا للنقد العربي القديم ، فلولا تلك الدعوة لما كان باستطاعتنا أن نحكم على مدى تقبل النقاد صراحةً لتجديد ديباجة القصيدة ، ذلك القبول الذي كان موجوداً قبل أبي نواس وإن لم يتخذ شكل الدعوة المعلنة ، والذي استمر بعده في مجال الإنشاء حيث راح الشعراء يحشون عن موضوعات جديدة لمقدماتهم ، أما النقاد فقد دأبوا على رفع أصواتهم بوجوب التخلي عن الابتداء بذكر الديار ، إذ لا معنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازاً - كما يقول ابن رثيق - وجاء الوقت الذى أصبح من الأسباب التى يذم من أجلها الشعرُ ووقوفُ الشعراء عند الديار ووصف الآثار والرواحل . ودخل فى المسألة عنصرٌ جديد هو (الصدق) ، فأهل الحاضرة لا يمكنهم الحديث عن القفار وغيرها من موضوعات القدماء ، لأن هؤلاء لم يروها ، ولم يعد غريباً أن يسمع البعضُ شاعراً من (زنجان) ينشد قصيدةً يذكر فيها الأطلال فينشدته - سخريةً به :

إذا سمعت فتىً يبكى على طلل . . من أهل زنجان فاعلم أنه طلل (١) .

وربما قيل إن دعوة أبي نواس مرت كغيرها دون أن يلاحظها أحد ، وبالتالى دون أن يابها ، وإن هذا هو السر فى عدم الهجوم عليها ، ولو أن ذلك حدث بالفعل لكان له نفس الدلالة ، إذ سيكون صدور تلك الدعوة عن أبي نواس ثم عدم الالتفات إليها دليلاً على أنه لم يدع إلى جديد وإنما كان يدعو إلى أمر واقع ، حيث لم يكن الشعراء متقيدين بشيء مما يدعو إلى التحرر منه ، ولن تكون هذه الصورة أقل دلالة - بالطبع - على تقبل النقاد للجديد ، من الموقف الآخر الذى يحسون فيه بالجديد ولا يعارضونه .

غير أن النصوص القديمة صريحة فى أنهم أحسوا بأن دعوة أبي نواس دعوةً جديدة ذات طابع خاص وأن أبا نواس هو صاحبها .

كان أبو نواس ناقداً - كما أطلق عليه نكلسن - وناقداً فذاً كما وصفه طه إبراهيم ، وأهميته تتركز فى دعوته التى نلمس إحساس النقاد - خاصة اللغويين - بها ، مما صرح به أبو عبيدة - مثلاً - من أن أبا نواس « فى المحدثين مثل امرئ القيس فى

المتقدمين ، وهو التصريح الذي يؤكد الربط بين إعجاب ذلك الناقد بأبي نواس من ناحية والإحساس بالمكانة الزائدة لدعوته - من ناحية أخرى ، وهو نفس الإحساس الذي جعل ابن شرف القيرواني يصفه بأنه : « أول الناس في خرم القياس » (١) ، وخرم القياس في أي ناحية غير الخروج أو الدعوة إلى تغيير المقدمة ليس له معنى ، لأن كل ما وصفه ابن شرف من طريقة أبي نواس موجود عند غيره من الشعراء ، فلا يبقى إلا أن تكون دعوته إلى إحلال الخمر محل الطلل هي التي لفتت ابن شرف فوصفه بخرم القياس . بل إن علانية دعوة أبي نواس تبدو وكأنها حجبت عن انتباه النقاد ما أحدثه الشعراء غيره في مقدمات قصائدهم بحيث صرحوا بنسبة السبق في هذه الناحية إلى أبي نواس دون سواه . فصرح ابن رشيقي بزعمهم « أن أول من فتح هذا الباب ، وفتح لهم هذا المعنى أبو نواس ، بقوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند . . . واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقوله - وهو عند الحاتمي فيما روى عن بعض أشياخه - أفضل ابتداء صنع شاعر من القدماء والمحدثين :

صفة الطلول بلاغة القدم . . . فاجعل صفاتك لابنة الكرم (٢) .

هكذا ، كانت دعوة أبي نواس لافتة للنقاد فأحسوا بها وقبلوها ، ولقد رأينا أنها كانت محل قبول ناقد من أشهر من أتهموا بمعادة الجديد - وهو ابن الأعرابي - وحتى ابن قتيبة صاحب التصريح المشهور ، لم يتمسك به قيد شعرة . وقد صرح جرونيباوم - الذي تصور أن تصريح ابن قتيبة كان ملزماً - بأن ذلك الناقد قد أخفق في تحريم بعض التجديدات مثل وصف الورد والترجس بدلا من نباتات الصحراء ، حتى إن عصره تميز بوصف الأزهار والتفوق في هذا الوصف (٣) .

(١) ابن شرف القيرواني ، أعلام الكلام ٢٢ .

(٢) العمدة ١ / ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٣) (الاستجابة للطبيعة في الشعر العربي) ١٧١ ، وراجع ص ١٦٨ من نفس المرجع حيث يشير جرونيباوم إلى محاولات الشعراء وصف الأبنية (المهذمة) - دون الاطلاع - وأيضا ١٧٠ حيث يشير إلى تحول الشعر العباسي عما هو جاف مستكره من وصف الطبيعة ، على الرغم مما بدا أنه معارضة من ناقد كابن قتيبة .

بقيت مسألة أخيرة وهامة ، لقد وصف القدماءُ البحتريَ بعدم الخروج على عمود الشعر ثم رأينا أن أبا نواس أيضا لم يخرج على عمود الشعر .

وهي ملاحظة يؤيدها ما ذهب إليه طه حسين من جعله كلاً من أبي نواس والبحتري ضمن ذلك الفريق من الشعراء « الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد » .

فهل معنى هذا أن كلاً من أبي نواس والبحتري ، وسائر الشعراء الذين وُصفوا بالمحافظة على عمود الشعر - والذي هو أمر يعود إلى الصياغة - لم يكونوا مجددين في لغتهم ، وأن ما وُصفوا به من تلك المحافظة على عمود الشعر يعني بقاء لغتهم مماثلةً للغة القدماء ، لا تتغير ولا تتطور ؟ وفي هذا الصدد توجد عدة ملاحظات :

فمن المؤكد أن لغة الشعر العربي كانت في تطور مستمر ، وهو تطور اتخذ طابع الانتقاء والتهديب والصفق عن طريق تجنب الوعر والخشِن من الألفاظ ، ولا شك أن الحياة الحضريّة ولين العيش الذي غمر فئات من المجتمع الأموي ثم غمر المجتمع العباسي ، كان له دخل في ذلك ، بحيث جاء اليوم الذي كانت تهمة التصعيب والتقعر ومحاولة التشبه بالبدو تلحق الشاعر الذي يستخدم الكلمات الجافية الصعبة ، والذي يتخذ لنفسه أسلوباً غامضاً - على نحو ما حدث مع أبي تمام .

كذلك فإن لغة الشعر شهدت نماذج ممتازة في سهولتها وصفائها منذ أوقات مبكرة ، عند أولئك الشعراء الذين اتسموا بخفة الروح مثل عدى بن زيد في العصر الجاهلي ، والوليد بن يزيد في العصر الأموي ، كما لم تعدم عدداً غير قليل من القصائد على جانب كبير من سلامة اللغة وسهولتها ودقتها عند عدد كبير من الشعراء الآخرين .

وفي العصر العباسي شهدت لغة الشعر محاولةً جرئيةً للميل بها نحو السهولة والرقّة ميلاً ملحوظاً ، فيه شيء من الجرأة ، وذلك عند شاعر مشهور في ذلك العصر هو أبو العتاهية الذي جعل من اللغة السهلة طابعاً عاماً يتسم به كل شعره .

على أن هناك من الشعراء من لم يندفعوا في تسهيل ألفاظ الشعر اندفاع أبي العتاهية ، وحاولوا أن يبقوا لغة شعرهم على شيء من المتانة والقوة مع المحافظة على

السهولة إلى حد ما، وذلك في بعض الفنون التي طغت عليها روح الشكلية والصناعية، كفن المدح، وإن مالوا إلى تسهيل لغتهم بصورة أوضح في بقية الفنون ومن هؤلاء أبو نواس الذي أخذ بنصيب ضخم من هذه الفنون .

وتبدو لغة شاعر كالبحثري في المدح - وهو الفن الذي غلب عليه - وكأنها نتاج لتلك المحاولات السابقة من التطور، إذ تعم السهولة شعره في ذلك الفن بدرجة أكبر مما عند أبي نواس في مدحه وطردياته، بحيث نرى القاضي الجرجاني - في القرن الرابع - يجعل من البحثري نموذجاً لاستعمال الألفاظ الرشيقة العذبة البعيدة عن الاستكراه .

وسواء كانت المحاولات السابقة للتطور بلغة الشعر عن عمد أو غير عمد، فإن أحداً لم يُشير إلى أي منها على أنه خروج على عمود الشعر، مع أنه كما قلنا شيء شديد الصلة بالصياغة واللغة - من هنا تبدو هذه الحقيقة، وهي أن سهولة ألفاظ الشعر أو صعوبتها شيء خارج عن فكرة عمود الشعر، فلا شك أن ألفاظ أبي تمام كانت - في جملتها - أشد وأصعب كثيراً من ألفاظ أبي نواس والبحثري وأبي العتاهية، ومع ذلك اتهم أبو تمام بالخروج على عمود الشعر، ولم يتهم أبو العتاهية - أبعدهم في محاولة تسهيل اللغة - بهذا الخروج، مما يؤكد ما قلناه من أن المحافظة على هذا العمود أو الخروج عليه، لا علاقة لهما بسهولة الألفاظ أو صعوبتها .

وقد ثبت أن أحداً لم يثر على التجديد في المعاني، وإذا كانوا لم يعدوا تطوير اللغة الشعرية - في مفرداتها - خروجاً على شيء قرروه، فإننا نخرج من هذا إلى أن جهود أبي نواس في تطوير شعره، سواء في ألفاظه أو معانيه، لم تكن محل سخطٍ من أحد، لأن نفس الجهود عند غيره لم تتعرض لأي لون من ألوان النقد، ولا كان هناك من يحارب التجديد في المعنى أو التأنيق في اللفظ .

ولا شك أن ما عنوه بميل البحثري إلى الأسلوب التقليدي لم يكن صعوبة لغته أو بداوتها أو قدمها، بالعكس، لقد كانت ألفاظ البحثري أسلس كثيراً وأسهل وأرثق من كثير من شعر أبي تمام، ونحن نذكر تعبير أصحاب البحثري لأبي تمام بالتقعر والتشبه بالبدو واصطناع لغة متعجرفة، ومع ذلك وصِف البحثري بالمحافظة على عمود الشعر، ولم يكن ذلك الوصف يعني أكثر من الاستمرار في تناول اللغة مع

الإبقاء على علاقاتها الممكنة فيما يتعلق بطرق الإسناد والتركيب ، وهي تشمل حدود الاستخدام المجازى أيضا ، الذى كان ضربا من ضروب الإسناد فيما تصوروا .

حافظ البحتري على ذلك ، وحافظ عليه أبو نواس ، وحافظ عليه إلى حد كبير مسلم بن الوليد وبشار وغيرهم من زعماء الشعراء المجددين ، فلم يهاجمهم أحد ، وعندما خرج أبو تمام على هذه النواحي نفسها كان نصيبه المقاومة التى لا شك أنها أفلحت إلى حد كبير فى رد الشعر إلى الأسلوب البديعى المبسط وتخليصه - إلى فترة - من الأسلوب البديعى المعقد الذى اتسم به قدر من شعر أبى تمام .

من هنا ندرك السر فى انفراد أبى تمام بالاتهام بالخروج على عمود الشعر ، وأيضا السر فى عدم مقاومة النقاد لأبى نواس الذى لم يكن أقل من أبى تمام سعيا لتطوير ألفاظه ومعانيه ، هو وشعراء كثيرون غيره .

وهكذا يكون بإمكاننا أن نلخص موقف النقد العربى من هاتين الحركتين فيما يأتى :

• أن النقد العربى قد عرف فى دعوة أبى نواس دعوة تجديدية فعلا ، ولكنه لم يهاجمها .

• أن النقد العربى لم يهاجم أى نزعة تجديدية عند أبى تمام . . بالعكس رحب بجهود الشاعر فى هذا المجال ، ولم يكن ترحيبه ذلك نتيجة للتأثر بأية أفكار أجنبية .

• وإذا كان هناك كلام حول ذلك الشاعر فإن موضوعه لم يكن ما أتى به من جديد ، بل كان موضوعه شيئا آخر ، هو التواء العبارة وتعقدها وغموض المعنى وخفاؤه . ولم يكن ذلك النوع من المآخذ مقصورا عليه ، أو جديدا ، وإنما أخذ على غيره من السابقين واللاحقين .

• ولم يكن النقد الذى وجه إليه صادرا عن فريق محدد هم أنصار البحتري الذين شاعت تسميتهم بأنصار القديم ، وإنما كان مصدره جمهور النقد العربى العريض الذى وافقت مقاييسه فى الحكم على ذلك الشاعر مقاييس أخرى هى مقاييس النقد اليونانى ، الذى ادعت له المبادرة إلى

قبول الجديد الذي أتى به أبو تمام وهو الذي لم يرفض أنصاره شيئاً مما أخذ عليه ، وإنما لجأوا إلى الاعتذار والتبرير .

• أكثر من هذا أننا نلاحظ أن النقاش يكاد أن ينقلب - في النهاية - إلى اتهام أبي تمام - الشاعر المجدد في نظر الدراسات الحديثة - بالتقليد والاحتذاء ، وهو المأخذ الذي أكد أصحاب البحري - الشاعر التقليدي في نظر هذه الدراسات - عدم وقوع صاحبهم فيه .

ونخلص من هذا إلى أنه لم يوجد بين النقاد العرب من وقف في وجه الجديد يحاربه ويرفضه ، ويتعصب عليه ، سواءً بالنسبة للرعييل الأول من المجددين أمثال بشار ، أو الرعييل التالي كمسلم بن الوليد أو بالنسبة لدعوة أبي نواس السفرة ، أو لما امتاز به أبو تمام من الإبداع في المعاني والاستنباط لها ، فلما أداه الحرص عليه إلى التواء العبارة وغموضها وجد من النقاد من وقفوا في وجه ذلك المسلك ، فانتقدوه ، ووجدوا من مشجعي الشاعر موافقة لهم فيما انتقدوه عنده ، وإن حاولوا أن يعتذروا عنه .

كيف ، إذن ، وقع الدارسون المحدثون في هذا اللبس ، أعنى القول بمهاجمة النقد العربي لشعر المحدثين وحركات التجديد ؟ وما طبيعة النصوص والأخبار التي أوقعتهم فيه ؟ ثم : ما حقيقة وأبعاد موقف قدامى النقاد - رواة ولغويين - من شعر المحدثين في ضوء هذه النصوص والأخبار ؟ .

هذا ما يوضحه الباب الرابع .

الباب الرابع
تفسير وتعليل

رأينا في الفصول السابقة أن أحداً من قدامى النقاد لم يقف من مبدأ التجديد موقفاً عدائياً ، إذ قَبِلَ الجميع شعرَ المحدثين ومحاولاتِ الشعراء للتجديد فيه بصدور رحبة ، ورأينا الدارسين في العصر الحديث وقد أغرتهم فكرةُ معاداة أولئك النقاد لمبدأ التجديد في الشعر ولصفة الحدائثة فيه ، بحيث كانت الصورةُ الحقيقية تلوح للواحد منهم بين وقت وآخر ، فلا يلبث أن يغض طرفه دونها لعدم مواءمتها للإطار العام الذي انطلق منه ، بل الذي انطلقوا منه كلهم تقريباً .

لقد أشار نكلسن مثلاً إلى أن تحيز اللغويين للشعر القديم كانت وراءه اعتبارات لغوية ، وقال : إن القصائد القديمة كانت تُدرس باعتبارها مصادر للغة الفصحى النقية وأن تقييمها كان في المقام الأول من وجهة النظر النحوية (١) .

وليس من شك في أن طه حسين اقترب من بعض الزوايا التي كانت كفيلاً بحل لغز الصورة القديمة ، حين راح يسجل تنويه علماء الدين والحديث بأبي نواس ، وبالذات في شعره له في الغزل واللهم ، وأهم من ذلك حين سجل عدداً من أقوال علماء العربية في عصره يُشيدون فيها بداعية التجديد الثائر ، لقد كان في مقدوره حينئذ أن يسلم بأن أحداً لم يعارض الجديد الحق ، وأن أحداً تزعم محاولة للمكابرة بتفضيل القديم لمجرد سبقه الزمني لم يوجد ، إلى جانب أن مسألة التجديد في المعاني وديباجة القصيدة والتعبير عن حياة الناس لم تكن محل أخذ ورد لأنها أمور مقبولة ، فهي لم تناقش لهذا السبب ، لا لأنها ليست هامة .

وكان في إمكانه أن يعطى بعض أسباب تفضيلهم له أو رضاهم عنه ، مثل إتقانه للغة ، وتمكنه منها ، بحيث لا يبدو في أسلوبه تفكك أو التواء ، وأن ذلك كان السبب وراء عدم الثورة ضده ، على حين كان نقيضه ، أعنى التواء الأسلوب والتعسف في استعمال اللغة - كان السبب في الهجوم على أبي تمام .

كذلك وضع طه إبراهيم يده على كثير من مفاتيح الموقف ، ومن ذلك ما ذكره من أن من أسس التفضيل للقديم أساساً لغوياً مرجعه أن أولئك اللغويين كانوا يهتمون

فى الشعر بالشاهد النحوى واللغوى، وأيضاً ما تنبّه إليه من أن طعن اللغويين على المحدثين كان يقوم على أمور تتصل بالصياغة. لقد كان من شأن ذلك كله أن ينبّه إلى طبيعة موقف اللغويين من شعر المحدثين وأنه لم يكن موقف الطعن اللانهايى والرفض المطلق، بل كان وراء ذلك عوامل تتصل بما يسميه يوهان فك (التنقية اللغوية)، كما كان من شأنه أن ينبّه إلى أن الأساس الزمنى بالمعنى الحقيقى فى تفضيل الشعر لا وجود له، وأن القول بالزمن والقول بقديم وحديث لم يكن إلا إشارة أو رمزا للفترة التى توفر فيها شرط أهم، هو شرط النقاء اللغوى، فكان تقدم الزمن كان يعنى عدم اختلاط العرب بغيرهم، فاطمأنوا إلى الاحتجاج بشعرهم.

كذلك عثر على مفتاح هام جداً، لم يُعْرَه أدنى اهتمام، ولم يُدْ حِيَالَه إلا أُمْدُ علامات الدهشة، وذلك حين وجد الأصمعى يفضّل بشاراً - الذى شُهر بأنه من رواد الجديد، على مروان الذى عُرِفَ عنه السيرُ فى ركاب القديم، لقد كان من المنطقي أن يتساءل حيثئذ عما إذا كان صحيحاً أن الأصمعى - وغيره من اللغويين - يهاجمون الجديد؟ وعندئذ كان يمكن أن يقوده السؤال إلى إعادة النظر فى موقف أولئك الفريق بغية معرفة الحقيقة، وربما كانت النتيجة - لو فعل - قريبة مما تبيناه. ولكنه، وفي غمار الصورة القديمة، مضى يؤكد وجود التعصب ضد الشعر المحدث وهو تعصب قام - فيما زعم - على أسس متعددة.

ولاشك أننا نظلم أولئك الناس كثيراً حين نصير على ما يقوله مندور من أنهم فضلوا القديم لمجرد سبقه الزمنى، فمما لاشك فيه أنهم حين اهتموا بجمع الشعر القديم كان لهم غرض فى ذلك، وهو غرض واضح أشار إليه مندور نفسه، هو حاجتهم إلى الشاهد والمثل النقيين، وبالتالي فإن اختيارهم للقديم لم يكن لمجرد سبق فى ذاته، بل كان لأنه الأصلح للشاهد والمثل، ومن الطبيعى أن هذه الحقيقة كان يمكن أن تلقى الضوء على طبيعة موقف اللغويين من شعر المحدثين، أى أنها تشكل مفتاحاً من مفاتيح الموقف لم يستغل كما ينبغى، فانهدمت فائدته فى غمار الإهمال لكل ما يخالف التصور القديم.

وعثر مندور على مفتاح آخر، وذلك عندما تساءل عن السبب فى عدم قيام ثورة أو خصومة حول دعوة أبى نواس، وعندما طرح هذا السؤال على سبيل الافتراض:

«فهل ذلك لأن النقد لم يكن قد نمأ بعد... أم كان لأن أبا نواس - مع أنه مولد أعجمي - كان يجيد اللغة العربية ويحذق الكتابة فيها فجاء شعره عربياً أصيلاً ، لم يخرج في شيء عن عمود الشعر ؟» ، وسلم مندور بأن في كل هذه الأسئلة شيئاً من الصحة . وهكذا كان في إمكانه الوصول إلى شاكلة الصواب في موقف النقاد من حركات التجديد في الشعر العباسي ، ولو أنه تابع بقية الخيط الذي عثر على طرفه حين تساءل عما إذا كانت الصياغة اللغوية عند أبي نواس والتي تتسم بغير قليل من الإحسان والروعة ، سبباً في عدم قيام الخصومة حوله ، فإنه لو فعل ذلك ، فلربما استطاع الوصول إلى حقيقة الموقف ، والتي تقوم على أن أحداً ممن سموا بأنصار القديم - أو من خصوم أبي تمام - لم يكن يرفض تجديد الشعر ولا الإبداع فيه أو حتى تغيير جزء من أجزاء القصيدة .

ولقد تنبه مندور إلى أن أحداً لم يهاجم أبا نواس ، وكان هذا حرياً - لو أنه علّله بعلمه الحقيقية - أن يعود إلى الرأي السليم ، ولكنه تحت تأثير الصورة القديمة لجأ إلى التقليل من شأن دعوة الشاعر كعلة لعدم الهجوم عليه .

ومن اللافت أن يقف إبراهيم سلامة على قول أنصار الباحثين الذين وصّفوا بأنهم أنصار الدعوة إلى شعر الأوائل ، إن الذي يورده الأعرابي - وهو محتذ على غير مثال - أحلى في النفوس والنهي إلى الأسماع وأحق بالرواية والاستجمادة مما يورده المحدثي على الأمثلة (١) ، ومع ذلك لا يتبين في عباراتهم سوى مناصرة القديم ، حتى لو كان تفضيل هذا القديم مستنداً إلى كونه غير محتذ على مثال ، أعني أن نظرة إلى الأصالة جديرة بالإعجاب كانت تحت يده ولكنه لم يربها غير تفضيل القديم ، وهي فعلا تحمل شيئاً من هذا المعنى فيما يتصل بالعبارة ولكنها تبرر التفضيل على أساس أصالة القديم وعدم احتذائه على الأمثلة ، وهو خيط كان تبعه والتنبه إليه خليقاً بأن يغير نظرنا إلى ما أشيع من أن مهاجمي أبي تمام كانوا من المتعصبين للقديم ، وما أشيع من أن أنصار القديم أولئك كانوا يقارنون بين المحدثين - إن قارنوا - ويفاضلون بينهم - إن فاضلوا - على أساس مدى اقتدائهم بالقدامي .

ولعل أخطر خيوط الموقف - فيما نتصوره - كان في يد شكري عياد ، عندما

(١) الموازنة ١ / ٢٣ ، إبراهيم سلامة ، بلاغة لرسطو بين العرب واليونان ص ٢٠٦ .

أشار إلى أن ترك رواية الشعر الحديث عند ابن سلام وزملائه من قدامى اللغويين والنحاة كان أساسه عدم اطمئنانهم إلى السلامة اللغوية لذلك الشعر ، حيث نشأ أصحابه في فترة من شيوع اللحن واضطراب اللغة ، هذا بينما توافر عنصر السلامة والنقاء اللغوي في الشعر الجاهلي والإسلامي الذي حظي بروايتهم له . لقد كان التمسك بهذا الخيط والمضي معه إلى آخر الشوط حيث يؤخذ في الاعتبار تاريخ حركة جمع اللغة وتنقيتها ، كفيلاً بأن يكشف عن المواطن التي رفض فيها الشعر الحديث ، والتي كان ، باستثنائها ، محلاً للقبول والاستحسان من الجميع .

كذلك فقد لمس خيطاً آخر ، وهو ما أشار إليه من هجوم أنصار البحتري على أبي تمام متزعمين الدفاع عن اللفظ والسبك ، لقد كان الوقوف على هذا المنفذ الذي انطلق منه أنصار البحتري إلى الهجوم على أبي تمام كفيلاً بأن يوضح أن فكرة مهاجمة الجديد لأنه جديد - على الأقل في المعاني - كانت أبعد ما تكون عن ذهن أنصار البحتري ، وبالتالي يصبح من المشكوك فيه وصف أنصار البحتري بأنهم أنصار للقديم ، كما يصبح من المشكوك فيه أيضاً أن يكون الحوار بين أنصار الشعارين معركة بين أنصار اللفظ - يمثلهم أصحاب البحتري - وأنصار المعنى - يمثلهم أصحاب أبي تمام ، إذ لم تكن مسألة المعاني والتجديد فيها محل نقاش أو اعتراض من أحد .

كما عثر على خيط ثالث تأتي أهميته من أنه يتناول الحكم على الفكر العربي بصورة عامة ، هذا الخيط هو ما أشار إليه من وجود تناقض في موقف النقاد العرب حين طالبوا باتباع القديم ، والتحرر من القديم - عن طريق رصد السرقات ومهاجمتها - في وقت واحد ، ونحن لا نرى أن هذا التناقض كان موجوداً ، لأن لنا نظرنا إلى الموقف كله دفعة واحدة ، ولكن الأهمية التي تُشير إليها في الخيط الذي لمسناه أستاذنا هي : أن تنبهه لما اعتقد أنه تناقض في موقف أولئك النقاد كان يمكن أن يدفع إلى إعادة النظر في صورة النقد العربي مرات ومرات ، إذ ليس من السهل الوقوف عند مجرد تسجيل الظواهر دون البحث لها عن علل كافية ، وهو البحث الذي كان يمكن أن يؤدي إلى التغافل عن بعض الظلال الواهية في الصورة والتي تبدو متناقضة

مع بقية الأجزاء . أعني أنه كان في الإمكان التنبه إلى أن قدامى النقاد لم يهاجموا الجديد أصلاً ، ولم يطالبوا بالاعتداء بالأوائل .

تلك كلها مفاتيح كانت في أيدي الدارسين المحدثين ، وكان النظر إليها بإمعان ومحاولة التعرف على كل أجزاء الصورة كفيلاً بإزالة اللبس الذي ظل قوياً بحكم سيطرة التصور القديم الذي قام - فيما نعتقد - على أساسين :

الأول : عدم تبيين الدارسين المحدثين لمقتضيات المهام المتعددة لقدامى النقاد من الرواة واللغويين .

الثاني : أساس تاريخي غامض .

(١)

تفسير

المهام المتعددة لقدامى النقاد

يقول أستاذنا شوقي ضيف ، معللاً ما تصوّره من تعصّب قدامى اللغويين والرواة على شعر المحدثين : « وإنما جاءتهم هذه العصبية من وظيفتهم ، فقد كانوا يعدّون أنفسهم حماة اللغة والحرس على تراثها ، ولم يكن يهمهم من الشعر إلا المثل والشاهد في الأساس . وكان ينبغي أن يفرّقوا بين الصّحة اللغوية والصّحة الفنية ، فالشعر ليس من أسباب جودته أن يكون موثوقاً به من الجانب اللغوي ، بل إن ذلك أمر لا يهم إلا اللغويين الذين يريدون اللغة نفسها أو يريدون النحو والإعراب ، أما النقاد فينبغي أن يفصلوا بين القيمة اللغوية والقيمة الفنية » (١) .

وفي رأينا أن اتخاذ فريق اللغويين والرواة من الشعر القديم مادة للاستشهاد والاحتجاج في مجالات اللغة والنحو ، والأخبار والأنساب ، لا ينبغي أن يُطلق عليه أنه (عصبية) طالما أن الأمر - باعتراف أستاذنا - أسبابه ومبرراته من مهمتهم اللغوية ، أو - إذا أردنا الدقّة - من مهامهم العديدة التي من بينها المهمة اللغوية .

أما ما أوجبه من ضرورة التفرقة بين الصّحة اللغوية والصّحة الفنية ، أو بين القيمة اللغوية والقيمة الفنية فنظرة صحيحة تماماً ، غير أننا نضيف هنا حقيقة ذات شقين :

أحدهما : أن ذلك الفريق من اللغويين والنحاة والرواة كان يضطلع بمهام النظر النقدي ، والبحث اللغوي والبحث في التاريخ والأنساب والأيام ، بحيث تصدق عليهم التسمية بالنقاد ، والتسمية باللغويين أو النحاة أو الرواة أو المؤرخين أو النسابين في نفس الوقت .

الأخر : أن ذلك الفريق كان على وعي كامل بهذه التفرقة المطلوبة أثناء مباشرته لهاتين المهمتين أو لتلك المهام المتعددة ، وأنه أقام قبوله أو رفضه للشعر على أساس الصلاحية أو عدم الصلاحية لتلبية حاجة هذا المجال أو ذلك .

ومن هذا نرى أن اللبس الذي وقع فيه الدارسون المحدثون حول موقف قدامي اللغويين والرواة من الشعر المحدث يعود في أهم جوانبه إلى رؤية الصورة من زاوية واحدة دون بقية الزاوي ، وإلى عدم الأخذ في الاعتبار تلك المهام العديدة التي كان علي نقاد القرنين الثاني والثالث أو يقوموا بها ، والتي تطلب العديد منها معرفة دقيقة بالشعر القديم وروايته وحفظه ، ومن هذه المهام ما عرف بـ (حركة التنقية اللغوية) ، ومنها ما تعلق باستخدام الشعر القديم كوثائق تشتمل على حوادث التاريخ والحروب والمعرفة بالأنساب والمعرفة بحياة العرب وظروف معيشتهم في العصور القديمة ، ثم ما ترتب على هذه المهمة وتلك من الإغلاء من شأن رواية الشعر القديم والإدلال بكثرة المحفوظ منه ، كل ذلك دون غض من الشعر المحدث أو الخط من شأنه .

وإذا كان الجاحظ لم يعترف لذلك الفريق من النقاد بالقدرة على تمييز الشعر من الناحية الفنية ، وقصر دورهم على بحثه من ناحية الإعراب والغريب والتاريخ والأنساب ، وأخرج هذه الجوانب والعناية بها من نقد الشعر ، أو من (علم الشعر) - كما هو المصطلح المعروف في وقته (١) - فإن قدامة قد جعل كلاً من هذه الجوانب قسماً من علم الشعر ، إلى جانب تمييز الجيد من الرديء (٢) ، وبذلك عاد إلى ما كان عليه الأمر في تفكير ذلك الفريق من العلماء الذين جمعوا في كثير من الأحيان بين النظر النحوي واللغوي والتاريخي والفني ، واعين بما بين هذه المجالات من فروق ، من حيث الغاية ومنهج النظر ، وكذلك من حيث المادة التي يقوم عليها البحث في هذا المجال أو ذلك .

(١) للجاحظ أكثر من نص في هذا الموضوع ، أحدها - على سبيل المثال - في البيان والتبيين

١ - حركة التنقية اللغوية

قلت إنه كان على أولئك الفريق من النقاد - مثل أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وخلف الأحمر والأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي ، وغيرهم - القيام بدور النقد ، في الوقت الذي يباشرون فيه مهام حركة التنقية اللغوية ، والتي كانت تنظر إلى نماذجها نظرة تختلف عن نظرة الناقد الفني المتكفل بمهمة التحليل والتقييم أو الحكم الخ مراعيًا كل عناصر العمل الفني وحاملًا عيوبه على محاسنه بحيث يُصدر عليه حكمًا كليًا يمثل حصيلة جمع المحاسن إلى العيوب .

وكان عليهم - حين يتصدون للعمل اللغوي - أن يرفضوا كل ما لا يصلح للاحتجاج في هذا المجال ، وكان كثير مما يرفضونه يتمي للعصور المتأخرة وذلك بحكم انعدام شرط النقاء اللغوي ، في شعر المتأخرين ، وهذه هي حقيقة ما يبدو في عبارات بعض أولئك العلماء من تنويه بالشعر القديم دون الحديث ، والتصريح أحيانًا بأن الأول أساس الاحتجاج ، فلم يكن وراء تلك العبارات والتصريحات سوى مبدأ واحد هو أن الشعر القديم يمثل المادة الصالحة للاحتجاج اللغوي والنحوي ، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك وجه لتفضيل شعر على شعر إلا على أساس الجودة بصرف النظر عن مقاييسها - التي لم يكن من بينها قدم الشعر .

رفض لغوي وتقدير فني

وقد عرفنا أنهم نصوا من بين من لا يُحتج بلغتهم على خمسة شعراء بالذات ثلاثة من الجاهليين واثنين من الإسلاميين ، ونقصد عدى بن زيد وأبا ذؤاد الإيادي وأمية بن أبي الصلت والطرماح والكميت .

غير أن أولئك الشعراء كانوا محلًا للتقدير من جانب علماء الشعر حين يتجاوز الحديث أمور اللغة والنحو .

فابن سلام يقول عن هدي : « وله أربع قصائد غرر ، روائع مبررات ، وله بعدهن شعر حسن » (١) ويحكي عن يونس قوله - وقد تمثل بيته :

أيها الشامت المعير بالدهف . . . أنت المبرأ الموقور ؟

(١) ابن سلام ، طبقات الشعراء ، ١١٧ .

فقال يونس : «لو تمنيتُ أن أقولَ شعراً ما تمنيتُ إلا هذه أو مثلَ هذه» (١) ؟ .
ويُورد ابنُ قتيبةَ في حديثه عن عدى ما وصفه به ابنُ سلامٍ من أن له أربعَ قصائدَ
غرراً ثم يروى منها جميعاً في كتابه (٢) ويستجيد له قوله :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ . . . وَالْخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الْحَرِيصِ (٣) .

وهو البيت الذي ذكر المبردُ أن القطاميَّ أخذَ منه قوله :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ . . . وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلُّ

كما يستجيد ابنُ قتيبةَ له قولاً في وصف السقاة ، ويسجلُ له السبقُ في قوله
لأخيه يحذره من دخول أرض النعمان (٤) .

وفي (حلية المحاضرة) يوردُ الحاتميُّ أمثلةً لأحسن ما قيل في ردِّ الشامتين
ويذكر منها بيت عدى بن زيد : (أيها الشامت .. البيت السابق) ويسجلُ أنه صاحبُ
واحدٍ من الأمثال الشاردة في طلب التوفيق من الله ، وكذلك في الوعظ بالأيام ، وفي
الحضِّ على المجازاة عن الخير والشرِّ كلِّ بمثله (٥) . ويستشهد المبردُ - كما في
الحلية - ببيت عدى :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ . . . وَالْخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الْحَرِيصِ

للآيات المشتملة على مثلين ، ويوردُ الحاتميُّ قولَ عدى :

لَوْ بَغِيْرَ الْمَاءِ حَلَقِي شَرَقٌ . . . كُنْتُ كَالْفَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي

على أنه من أحسن ما قيل في مجيء الإساءة من قبل من لا تتوقعُ إساءته (٦) . ولا شك
أن دهشة القاضي الجرجاني - الذي انساق إلى تصور تعصب أولئك

(١) المرجع السابق ١١٨ .

(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ / ١٧٦ .

(٣) المرجع السابق ١ / ١٨٣ .

(٤) المرجع السابق ١ / ١٨٤ ، والحلية ١ / ٢٤٨ .

(٥) ١ / ٢٩٠ ، ٢٩٢ .

(٦) الحلية ١ / ٢٨٥ .

اللغوئين ، حتى على الجاهلين أنفسهم (١) - كانت ستزداد لو علم أن الأصمعي كان يقول : إنه ما رأى كلاماً أشبه بالسنة من قول عدى بن زيد :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَمَطْلُ عَنْ قَرِينِهِ . . . فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالْمُقَارِنِ مُقْتَدٌ (٢)

أما عن أبي دؤاد فإن ابن قتيبة يورد قول الحطيئة (الذي استشهد به القاضي الجرجاني) إن أشعر الناس هو أبو دؤاد في قوله (لا أعد الإقتار عدماً.... الخ) (٣) ويقول ابن قتيبة : وهذه القصيدة أجود شعره ، ويختار بعضها ويورده ، كما يسجل له السبق إلى قول له في حماية الجار والمحافظة على عهده ، أخذه منه الحطيئة (٤) . وأهم من هذا يورد قول الأصمعي فيه : إنه أحد نعات الخيل المجيدين ، وهم ثلاثة : أبو دؤاد . . . وطُفيل ، والنايغة الجعدى (٥) . وفي (الموشح) خبر له دلالة ، ويذهب إلى أن خلفاً الأحمر كان ينحل شعره أبا دؤاد الإيادي ، وأن في أيدي أهل الكوفة أربعين قصيدة باسم أبي دؤاد صنعها خلف الأحمر (٦) ، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو : هل كان خلف ينحل شعره شاعراً لاقيمة له ، أعنى شاعراً لم يكن هناك طلب على شعره ولا أحد يرغب في سماعه ؟ لا شك أن المنزلة الشعرية لأبي دؤاد هي التي جعلت رجلاً مثل خلف يختار هذا الشاعر بالذات يسند إليه قصائده المنحولة .

وأما عن أمية بن أبي الصلت ، ففي (الأغاني) خبر عن عمر بن شبة : « قال أبو عبيدة : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ثم عبد القيس ، ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت » .

وفي خبر آخر عن يحيى بن محمد « قال الكمي : أمية أشعر الناس ، قال

(١) الوساطة للقاضي الجرجاني ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) الحلية ١ / ٢٧٧ ، ٢٨٢ .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ١٩٠ .

(٤) المرجع السابق ١ / ١٩٢ .

(٥) المرجع السابق ١ / ١٩٠ .

(٦) المرجع السابق ١ / ١٩٢ .

كما قلنا ، ولم نقل كما قال ، (١) ويصنّف الأصمعيُّ شعرَ أمية ضمن أشعار من ذهبوا في اتجاه واحد فيرى أنّ عامة شعر أمية في ذكر الآخرة ، كما أنّ عامة شعر عنترة ذهبت في الحرب ، وعامة شعر عمر بن أبي ربيعة ذهبت في ذكر الشباب (٢) ، وفي الأغاني أيضاً أنّ سفيان بن عيينة استشهد بشعر أمية في معنى أنّ ثناء المادح على الممدوح كافٍ في تذكيره بحاجته ، وذلك في أثناء شرح مضمون دعاء الرسول وكيف أنّ دلالة الدعاء جاءت في صورة الذكر (٣) .

ولقد ترجم ابن قتيبة - في الشعر والشعراء - للكُميتِ بن زيد ، وتحدّث عن شعره وكثرة سرّقه ، ولكنه ذكر بعض المختار من شعره ، فأورد له قطعة من قصيدة بائية في النبيّ وبيتا في هشام بن عبد الملك وقطعة أخرى من جيد شعره (٤) ويصفه صاحب (الأغاني) بأنه «شاعر مقدّم عالم بلغات العرب ، خبير بأيامها» ، وفي (الأغاني) أيضاً خبر عن مناظرة بين الكميت وحماد الراوية وأن الكميت غلبه في العلم بالشعر واللغة والغريب والرواية (٥) . وعرض الكميت شعراً له على الفرزدق ، يستشير به في إظهاره إن كان جيداً أو ستره إن كان رديها فأمره الفرزدق - بعد أن سمع الشعر - بإظهار شعره قائلاً «أنت أشعر من مضى وأشعر من بقى» ، ويذكر حماد مصدر علم الكميت ، وأنه كانت له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصيفان له البادية وأمورها ويخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية ، فإذا شكّ في شعر أو خبر عرضه عليهما فيخبرانه عنه ، فمن هناك كان علمه (٦) .

وأما عن الطرمّاح بن حكيم فإنهم يحكّون أنّ الأصمعيّ كان يستجيد قوله في وصف الظليم :

مُجْتَابٌ شَمَلَةٌ بَرُّجِدٍ لِسْرَاتِهِ . . . قَدْرًا وَأَسْلَمَ مَا سِوَاهُ الْبُرِّجِدُ (٧) .

(١) الخبران في الأغاني ٤ / ١٢٢ .

(٢) الأغاني ٤ / ١٢٥ .

(٣) الأغاني ٨ / ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٤) الشعر والشعراء ٢ / ٥٦٤ .

(٥) الأغاني ١٥ / ١١٣ .

(٦) الأغاني ١٥ / ١٣٥ .

(٧) الشعر والشعراء ٢ / ٥٧٢ .

للشعراء المعاصرين مهما تبلغ درجة فصاحتهم وسلامتهم اللغوية ، مبالغة منهم في الاحتياط ، وحرصا على صحة القواعد التي يضعونها والنائج التي يسجلونها (١) .

عدم التقيد بالعنصر العربي

ومما هو جدير بالذكر أن حركة التنقية اللغوية لم تُقم وزنا لاعتبارات الجنس في اختيار شواهدا وأمثلةها ، فحيثما توافرت شروط النقاء استمد أصحاب تلك الحركة شواهدهم دون أن يقيموا اعتبارات لجنس الشاعر ، وكثيرون أولئك الشعراء الذين كانوا من أبناء الإماء ، أو كانوا من أصول أعجمية صرفة ، ومع ذلك قبلوا في مجال الاحتجاج اللغوي ، ومن هؤلاء :

عبد بنى الحسحاس ، الذي جعله ابن سلام في الطبقة التاسعة من الجاهليين (٢) وترجم له ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) (٣) وقال عنه : إنه كان حبشيا معلطاً قبيحا ، ووصفه صاحب الأغاني بأنه كان عبداً أسوداً نوبياً أعجمياً (٤) .

وزياد الأعجم الذي كان مولى عبد القيس ، وكان ينزل اصطخر ، وكانت فيه لكنة فلذلك قيل الأعجم (٥) .

وكذلك أبو دلامة الذي كان مولى بنى أسد (٦) .
وأبو عطاء السندي الذي كان عبداً أسوداً منشؤه الكوفة لا يكاد يفصح بـ لغة ولكنة (٧) .

ومع هذا نجد ذلك النص في (فحولة الشعراء) للأصمعي ، قال أبو حاتم :

(١) يوسف خليف (الشعر والحياة اللغوية في القرنين الأول والثاني للهجرة) ، المجلة ، العدد السادس يونية ١٩٥٧ .

(٢) طبقات ابن سلام ١٥٦ .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٣٦٩ .

(٤) الأغاني ٢٠ / ٢ ساسي .

(٥) الشعر والشعراء ٢ / ٣٩٥ .

(٦) الشعر والشعراء ٢ / ٧٥١ .

(٧) نقلا عن اللالكى - كما أورده محقق الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ / ٧٤٢ .

وفى (حلية المحاضرة) نجد هذا البيت ضمن عدد من التشبيهات (العقم) -
وهى التى لم يسبق أصحابها إليها ولم يدققهم فيها أحد لحوقا محسنا - وهى
التشبيهات التى اختارها أبو عمرو وخلف ويونس ، ضمن عدد من تشبيهات الشعراء ،
منهم عنتره وعدي بن الرقاع والراعى والنابغة وذو الرمة وغيرهم (١) . كذلك يذكر
ابن قتيبة تفضيل الأصمعى لبيته فى وصف الثور (٢) ، وإلى نفس الشىء ذهب الحاتمي
فى (حلية المحاضرة) حيث يذكر تفضيل الأصمعى لبيت الطرمأح :

يَدُو وَتُضْمِرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ . . . سَيْفٌ عَلَى شَرَفٍ يُسَلُّ وَيُغْمَدُ

على قول النابغة :

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ . . . طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ

فقال الأصمعى : إن الطرمأح «أحق بهذا المعنى منه لأنه أخذه وجوده» ، وزاد عليه ،
وإن كان النابغة اقترعه ، (٣) .

وفى هذه الأخبار - على قلتها - كفاية ، فكثير منها صادر عن الأصمعى
يعترف فيها بالشاعرية والتفوق للشعراء الذين رفض الاحتجاج بشعرهم .

وليس لنا أن نبحث عن علة قبولهم - على المستوى الفنى - لأشعار من قالوا
إنهم لا يحتجون بهم لغويا ، فالموقف الطبيعى الذى لا يحتاج إلى تعليل هو موقف
القبول للشعر الجيد ، لكن ما يحتاج حقا إلى البحث هو السبب الذى من أجله رفض
الاحتجاج بأولئك الشعراء خاصة أنهم جميعا يتمتعون بميزة القلم ، إذ كان من
بينهم - كما نرى حتى الآن - ثلاثة من الجاهليين واثنان من الإسلاميين .

علل الرفض اللغوى

ولتوضيح هذه المسألة نورد العلل التى اقترنت بما يروى عن رفض الاحتجاج
بأشعار أولئك الشعراء .

(١) الحلية ١ / ١٧٨ .

(٢) الشعر والشعراء ٢ / ٥٧٢ .

(٣) حلية المحاضرة ١ / ١٧٢ ، ونضرة الإغريض ١٠٨ .

١ - أما عن عدى بن زيد فيقول ابن قتيبة : « كان يسكن بالحيرة ، ويدخل الأرياف فثقل لسانه واحتمل عنه شيء كثير جداً وعلماؤنا لا يرون شعره حجة (١) . ويذكر أبو عبيدة عن أبي عمرو أن « العرب لا تروى شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية ، وكان نصرانيا من عباد الحيرة قرأ الكتب » (٢) . ويقول ابن سلام : « وعدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومركز الريف ، فلأن لسانه وسهل منطقته فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد ، واضطرب فيه خلف الأحمر وخلط فيه المفضل » (٣) . وفي (الأغاني) : « وليس ممن يعد في الفحول ، وهو قروي ، وكانوا قد أخذوا عليه أشياء عيب فيها » (٤) . ويروى أبو عمرو الشيباني عن المفضل قوله « كانت الوفود تفتد على الملوك بالحيرة فكان عدى بن زيد يسمع لغاتهم فيدخلها في شعره » ، ويروون عن أبي عمر بن العلاء قوله : « إن عدياً « في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري مجراها . وفسروا قوله بأنه يشبه بها ويقعد به عن شأوها ألفاظه الحيرية وأنها ليست بنجدية » (٥) .

٢ - وأما عن أبي دؤاد الإباضي فنجد في (الشعر والشعراء) لابن قتيبة قول الأصمعي إن العرب لا تروى شعر أبي دؤاد وعدى بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية (٦) ويشير صاحب (الموشح) إلى أن هناك أشياء أنكرت على أبي دؤاد . والخبر كذلك وارد في (الوساطة) للجرجاني يقول : زعم الأصمعي أن العرب لا تروى شعر أبي دؤاد وعدى بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية (٧) .

٣ - ويذكر ابن سلام في طبقات الشعراء أن أمية بن أبي الصلت كان كثير العجائب ، يذكر في شعره خلق السموات والأرض ويذكر الملائكة ويذكر

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ / ٢٢٥ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ١٨٢ .

(٣) طبقات ابن سلام ١١٧ ، وينقل الموشح الخبر عنه ٧٣ .

(٤) الأغاني ٢ / ٩٧ .

(٥) الموشح ٧٣ .

(٦) الشعر والشعراء ١ / ١٩٠ ، والموشح ٧٣ .

(٧) الجرجاني ، الوساطة ٥١ .

من ذلك ما لم يذكره أحدٌ من الشعراء ، وكان قد شام أهل الكتاب (١) . ويقول ابن قتيبة عن أمية « وكان قد قرأ الكتب المتقدمة ... ويحكى في شعره قصص الأنبياء ، ويأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب يأخذها من الكتب المتقدمة ، وبأحاديث من أحاديث أهل الكتاب » (٢) ، ويحكى أنه كان يسمي السماء في شعره « صاقورة » و « حاقورة » و « برقع » ويقول في الله عز وجل :

* هو (السَّلْطَيْطُ) فوق الأرض مُقْتَدِرٌ *

ويقول : وأبدت (الشُّغُورَا) ، يريد الثغر ، وهذه أشياء منكرة . وعلماؤنا لا يرون شعره حجة في اللغة (٣) . وفي (الأغاني) (٤) في خبر ينتهي إلى عبد الله بن مسلم « كان أمية بن أبي الصلت قد قرأ كتاب الله عز وجل الأول ، فكان يأتى في شعره بأشياء لا تعرفها العرب » (٤) .

٤ - ويذكر ابن قتيبة عن الأصمعي عن خلف أنه رأى الكُمَيْتَ بالكوفة في مسجد يعلم الصبيان (٥) . وفي الموشح عن الأصمعي أنه قال « الكميت ابن زيد ليس بحجة لأنه مولد وكذلك الطرماح » . وهناك تعليل لعدم الاحتجاج به عن الأصمعي حيث يقول : ليس الكميت بن زيد بحجة لأن الكميت من أهل الكوفة فتعلم الغريب ، وروى الشعر وكان معلما فلا يكون مثل أهل البدو ومن لم يكن من أهل الحضرة ... ويقولون : وكان ذو الرمة أحسن حالا عند الأصمعي من الكميت (٦) ، ويروى عنه قوله : الكميت تعلم النحو وليس بحجة وكذلك الطرماح ، وكانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهمانه ، قال رؤبة : كانا يسألانني عن غريب شعرهما ، ويروى عن خلف أن رؤبة ابن العجاج ذكر أن الكميت والطرماح سألاه عن بعض الغريب ثم

(١) طبقات ابن سلام ٢٢٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٤٢٩ .

(٣) المرجع السابق ١ / ٤٣١ .

(٤) الأغاني ٤ / ١٢١ ، وينقل عن ابن قتيبة قوله : (فعلمناؤنا لا يحتجون بشيء من شعره لهذه العلة) .

(٥) الشعر والشعراء ٢ / ٥٦٢ .

(٦) الموشح للمرزباني ١٩٢ .

سمعه في شعرهما ، ويذكرون عن راوية الكميّ أنه سمعه يقول : إذا قلت الشعر فجاءني أمرٌ مستورٌ سهلٌ لم أعبأ به حتى يجيء شيءٌ فيه عويصٌ فأستعمله (١) .

٥- وفي ترجمة ابن قتيبة للطرمّاح يذكرُ خبرَ رؤبة عن نقلِ الكميّ والطرمّاح الغريب عنه واستعمالهما له في شعرهما (٢) ، وفي (الموشح) نجد قول أبي عمرو بن العلاء إنه رأى الطرمّاح بسواد الكوفة وهو يكتب ألفاظ النبط ويتعلّمها ليُدخلها في شعره ، والخبر مذكورٌ أيضاً عن أبي عمرو برواية عن الأصمعي أن أبا عمرو رآه بسواد الكوفة يكتب ألفاظ النبط « فقلت : ما تصنع بهذه ؟ قال : أعربها وأدخلها في شعري » ، وعن شعبة بن الحجاج أنه قال للطرمّاح : أين نشأت ؟ قال : بالسواد (٣) ويستشهد الأصمعي على ذلك بقوله :

• طال في شطّ نهرٍ وان اغتماضي •

ويقول الأصمعي عنهما - أي الكميّ والطرمّاح - « كانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهمانه » (٤) .

هنا نلاحظ أن الاعتبارات التي قدّمت كتعليقاتٍ لعدم الاحتجاج بأشعار أولئك الشعراء هي ما يأتي :

١- اعتبارات مكانية :

وذلك واضحٌ في قولهم عن عدى : إنه كان يسكنُ الحيرة ويدخل الأرياف ، أو قولهم إنه قروي ، وأمّية بن أبي الصلت نفسه كان من شعراء القرى العريية - كما رتبّه ابن سلام - كان من الطائف ، ويقول ابن سلام « وأهل الطائف في طرفٍ » (٥) يعني في مكانٍ ناءٍ بعيد . ويتضح الاعتبارُ المكانيُّ أيضاً في ما

(١) الموشح ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) الشعر والشعراء ٥٦٧ / ٢ .

(٣) الموشح ٢٠٨ .

(٤) الموشح ٢٠٩ .

(٥) طبقات ابن سلام ٢١٧ ، وراجع ما كتبه محقق الكتاب بالهامش من أن الطائف على جبل غزوان

بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً ، وكانت تسكنها ثقيف .

وصفوا به الكُميتَ والطَّرْمَاحَ من أنهما كانا من أهل السَّوَادِ، وَقَوْلِ الْأَصْمَعِيِّ عَنِ الكُميتِ إنه نَشَأَ بِالكُوفَةِ فلا يكون مثل أهل البَدْوِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الحَضَرِ . وهو واضحٌ كذلك في حالة الطَّرْمَاحِ مِمَّا حَكَاهُ عَنْهُ أَبُو عمرو بن العلاء وأنه رآه بِسِوَادِ الكُوفَةِ ، وهو الخَبَرُ الَّذِي يُوَكِّدُهُ شُعْبَةُ بن الحَجَّاجِ ، كذلك يورِدُ القاضِي الجرجاني في الوساطة قول الأصمعي عن الكُميتِ إنه (جَرْمَقَانِي) من جَرَامِيقِ الشَّامِ لا يُحْتَجُّ بشعره (١) . هذا ونذكر أنه مع قَبُولِ الأصمعي الاحتِجَاجَ بشعر ذِي الرِّمَّةِ ، فإنه كان يلاحظ عليه بعض الظواهر المولدة - كما يقول (فِك) - ورأى أن شعره لا يشبه شعرَ العرب باستثناء قصيدة واحدة ، وأن هذه السمات ناشئة من إقامة ذِي الرِّمَّةِ في أرض (السَّوَادِ) الخصبة أو كما يقول الأصمعي في عرض تصويري : « إن ذَا الرِّمَّةِ أَكَلَ البَقْلَ والمَمْلُوحَ في حَوَانِيتِ البَقَالِينِ حتى بِشَمِ » (٢) .

٢ - اعتبار ثقافي خاص :

وهذا الاعتبار ناتج في أغلب الأحيان عن اعتبارات المكان التي سبق الحديث عنها، وهذا ما يتضح من قولهم عن عدى بن زيد : إنه كان نصرانياً من عباد الحيرة قد قرأ الكُتُبَ وأن الوفود كانت تُفدُّ على الملوك بالحيرة فكان عدى يسمع لغاتهم فيدخلها في شعره . ويذكرون عن أمية بن أبي الصلت أنه كان قد شام أهل الكتاب وقرأ الكتب المتقدمة وكان يحكي في شعره قصص الأنبياء ، وفي الأغاني أنه قرأ كتاب الله تعالى الأول . ويقولون عن الكُميتِ إنه كان معلماً بالكوفة وإنه تعلم الغريب وتعلم النحو وأنه كان - هو والطَّرْمَاحُ - يسألان رؤبة عن الغريب ، ويروي أبو عمرو بن العلاء أنه رأى الطَّرْمَاحَ وهو يكتب ألفاظ النبط التي اعترف بأنه يُعربها ويدخلها في شعره .

ومما له دلالة في هذا الصدد أن يُعاب الشاعر بمعرفة الكتابة ، وأن يحاول هو إنكار هذه المعرفة . ففي (الموشح) أخبرني الصولي قال : حدثنا القاسم بن إسماعيل قال : أنشدنا محمد بن سلام لأبي النجم العجلي - وكان له صديق يسقيه الشراب فينصرف ثملاً من عنده :

(١) الوساطة ١٠ .

(٢) الموشح ص ٢٨٤ ، ويراجع : العربية ليوهان فك ص ٤٥ .

أخرجُ من عندِ زيادِ كالخرفُ . . . تخطَّ رجلايَ بخطِّ مختلفٍ

• كأنما تكتبان لامَ الفِ •

قال الصولي : وقد عيب أبو النجم بهذا ، فقيل : لولا أنه يكتب ما عرف صورة لام ألف وعناقها لها ، كما عيب ذو الرمة في وصف عين ناقته حين قال :

كأنما عينها شبها - وقد ضمرت . . . وضمتها السيرُ في بعض الأضأ - ميمٌ

يريد : كأن عينها دائرة ميم لتدويرها وغرورها . والأضأ : الغدير . . . فقيل : لولا أنه يكتب لما عرف الميم . (١) •

وقد حاول ذو الرمة أن يكتف معرفته بهذه المهارة ، ففي (الشعر والشعراء) :
« وقال عيسى بن عمر : قال لي ذو الرمة : ارفع هذا الحرف ، فقلت له : أتكتب ؟ فقال - بيده على فيه - أي : اكتب علي ، فإنه عندنا عيب » (٢) .

ويبدو أن الإنكار لم يكن ممكناً ، لذلك راح ذو الرمة يقر بمعرفته الكتابة وينكره في نفس الوقت - ممارسته لها بيده ، ففي خبر يصل إلى الهيثم بن عدي :
قال : قرأ حماد الراوية على ذي الرمة شعره ، فرآه قد ترك في الخط لأمأ ، فقال له حماد : وإنك لتكتب ؟ قال : اكتب علي ، فإنه كان يأتي باديتنا خطاط يعلمنا الحروف تخطيطاً في الرمل في الليالي القمر ، فاستحسنتها فثبتت في قلبي ولم تخطها يدي » (٣) .

وواضح أن معرفة النحو واللغة تعلمتا كانت من الأمور القادحة في مكانة الشاعر عند اللغويين وكذلك معرفة الكتابة ، التي وصفها ذو الرمة بأنها عيب عندهم ، وحاول التنصل منها بالقول بأنه عرفها بقلبه ولم يخطها بيده .

على أن أياً من هذين الاعتبارين لم يكن مقصوداً لذاته وإنما من حيث ما يترتب عليه من اتصاف أشعار أولئك الشعراء بسماتٍ خاصةٍ لاحظها العلماء وسجلوها وهي سماتٌ أوجدت نوعاً من المباشرة بين لغات أولئك الشعراء ولغات

(١) الموشح للمريزياني ٢٧٩ . ٢٨٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٥٣٢ .

(٣) الموشح ٢٨٠ .

غيرهم ، ويمكن ملاحظة ذلك من قولهم عن عدى بن زيد وعن أبي دؤاد : إن ألفاظهما ليست بنجدية ، وقولهم عن عدى : إنه لأن لسانه وسهل منطقته وإنه كان يدخل في شعره لغات الوفود القادمة على الحيرة ، وكذلك حديثهم عن مجموعة من المآخذ سجلت على أبي دؤاد ، كما سجلوا على أمية بن أبي الصلت أنه كان يأتي بالآفاظ كثيرة لا يعرفها العرب ، يأخذها من الكتب المتقدمة ويمثلون لذلك بتسمية السماء باسم (صاقورة) و (حاقورة) الخ وتسمية الله عز وجل (السَّاطِطِيط) وتسمية الثغر (الثغور) ، وهي الظواهر التي قال عنها ابن قتيبة إنها أشياء منكورة ، وعلل بها عدم احتجاج العلماء بشعر أمية في نص أصرح مما في (الشعر والشعراء) نسبتته إليه رواية في (الأغاني) (١) .

كذلك لاحظ العلماء على شعر كل من الكميت بن زيد الأسدي والطرماح بن حكيم عدداً من السمات ، فيأخذون عليهما أنهما كانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهمانه ، وأنهما كانا يدخلان الغريب في أشعارهما ، ويحكون قول الكميت إنه لا يقبل أن يقول من الشعر ما يجيء مستويا سهلا ولا يعجباً إلا بما يستطيع أن يدخل فيه شيئا من العريض ، ثم يذكرون قوله : إنه يصف الأشهباء التي لم يرها وإنما وصفت له فحسب ، فهو يصفها على السماع ، وكان هذا الاعتراف من جانب تيرير لما لاحظ عليه معاصره ذو الرمة من عدم الدقة في الوصف بسبب عدم الدقة في استعمال الألفاظ . وتكمل الروايات الأخرى هذه الصورة ، حيث تذكر أن ذا الرمة - أو غيره في روايات أخرى - سجل عليه عدم المناسبة في جمعه بين كلمتي (الأنس) - أو الدل - و (الشنب) .

وفي إمكاننا أن نختلف - مطمئنين - مع يوهان فك فيما ذهب إليه من أن محاوره الكميت مع ذي الرمة على النحو السابق تدل على أنه رفع التقليد لذاته إلى مرتبة الحدق الفني (٢) ذلك أن ما يسمي بالاحتذاء الفني - والذي يتمتع بدرجة من الأصالة - مسلك يختلف عن الرغبة الواعية الصريحة في إدخال عدد من الألفاظ أو الرغبة الصريحة في وصف شيء لأن هذا الوصف يتيح استعمال هذا اللفظ أو ذاك ،

(١) الأغاني ٤ / ١٢١ .

(٢) يوهان فك ، العربية ٤٠ .

وهو ما يظهر من قول الكميت إنه لا يقبل من الشعر إلا ما جاء فيه شيء من العويص ،
 وإنه يصف الأشياء التي وُصِفَتْ له ، كما يؤيده ما قيل عنه من تعمده لإدخال الغريب
 في شعره - أقول : فرق كبير بين الاحتذاء الفنى والذي يتحقق نتيجة للإعجاب
 بالنموذج إعجاباً قد يولد في بعض الأحيان انفعالاً يتيح للفنان خلق أثر جديد يتمتع
 بكل سمات الأصالة وبين الرغبة المتعمدة في الحديث عن كل ما يهيجُ للشاعر إدخال
 بعض الألفاظ التي يرجو سلكها في شعره . وهنا يمكن الموافقة - بحق - على ما
 لاحظته فك من الربط بين هذه الظاهرة في شعر الكميت ، وما كان يراه ذلك الشاعر
 من أن أمية بن أبى الصلت أشعر الشعراء ، فقد عرف الشاعر الأخير أيضاً بحب
 الغريب وحسب شعره بألفاظ لا تعرفها العرب ، وهي الظاهرة التي حازت إعجاب
 الكميت . . وكان مما سجلوه عليه أيضاً الخطأ في صيغ الأفعال كاستعماله صيغة الرباعي
 من الفعلين (بَرَقَ ، ورَعَدَ) - حيث قال في الأمر : (أبرق ، أرعد) - في غير
 دالتهما (١) .

وليس هنا مكان إحصاء الأخطاء ، وحسبنا أن نسجل السمات العامة التي كان
 من شأنها أن تبعد اللغويين عن الاعتداد بشعر الشاعر في احتجاجهم اللغوي ، وحسبنا
 أن نذكر أنهم رأوا أن كل علم الكميت ولغته قائمان على التعلم وليس على النشأه
 العربية أو التبدى الذي قد يكون شفيهاً في مثل هذه الحالة .

ويشارك الكميت الطرمأح في معظم الخصائص السابقة من تعلم النحو واللغة
 تعلماً وفي إدخال الغريب في شعره دون فهمه ولكنه اتسم بصفة أخرى هي إدخال
 الألفاظ الأجنبية - والنبطية بالذات - في شعره ، فإلى جانب الثقافة اللغوية المكتسبة -
 على خلاف المطلوب في لغة من يُحتج بشعرهم - فإنه أضاف إليها ألفاظاً ليست عربية
 أصلاً .

ونحن إنما نركز على الاعتبارين السابقين : الاعتبار المكاني ، والاعتبار المتعلق
 باكتساب الشاعر لنوع من الثقافة الغربية على البيئة البدوية المثالية ، وذلك لأننا نرى أن

(١) الموشح ١٩٦ . ومما قالوه في ذلك - حكاية عن الأصمعي - أنه « لا يقال إلا (رَعَدَ) و (بَرَقَ) إذا
 أوعد وتهدد » . أما البيت المشتمل على هذين الفعلين فهو :

أرعد وأبرق يا يزيد . . دُفما وعيدك لى بضائر

هذين العاملين يُشكّلان الأساس الذي كان يترتب عليه رفض أو قبول الاحتجاج
بالشاعر في مجال اللغة ، وليس غير هذين العاملين كان يتحكم في هذه المسألة ، حتى
أصل الشاعر وعدم انتسابه إلى العرب ، لم يكن ليقْدَحَ في صواب الاحتجاج بلغته إذا
توافر له شرطُ البُعْدِ عن كل المؤثرات الأجنبية وشرط البيئة النقية اللغة ، فكما قلت
من قبل ، كانت جميع الاعتبارات لا تُقصد لذاتها بل لما يترتب عليها من احتمال عدم
خُلوص لغة الشاعر وعدم نقاء عريته .

وينقل السيوطي في (المزهري) عن الفارابي في أول كتابه المسمى (الألفاظ
والحروف) قوله : « والذين عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعندهم أخذ اللسان
العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم
أكثر ما أخذ ومُعظمه ، وعليهم اتكّل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل
وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنه
لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم
المجاورة لسائر الأمم حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر
والقبط ، ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصاري يقرأون
بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر
لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين
مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبيشة ، ولا من بني
حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين
عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون
لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ، (١) .

ومن هذا النص يتضح أن شرط المكان كان موضع الاعتبار على أساس أنه
دليل على عدم الخضوع للمؤثرات الأجنبية التي يمكن أن يتعرض لها سكان المدن
والأقاليم المتطرفة ، ومن الواضح أن الإقامة في البادية - في ذاتها - لا تسوِّغ
الاستشهاد بشعر الشاعر ، ما لم تكن إقامته في مكان بعيد عن احتمالات الاختلاط
والفساد ، فهم لم يأخذوا - كما يقول الفارابي - « عن سكان البراري ممن كان

يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم حولهم . فلا سكنى المدن ، ولا الإقامة في الصحراء - في ذاتهما - هما الفاصل في مسألة الاحتجاج بشعر الشاعر أو عدمه ، وإنما الفاصل في ذلك هو مدى تعرض الشاعر للمؤثرات الأجنبية التي يمكن أن تبدو ظواهرها في لغته ، يقول ابن جنى : إن « علة امتناع الأخذ عن أهل المدر كما يؤخذ عن أهل الوبر ماعرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد ، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم لم يعرض للغتهم شيء من الفساد لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر وكذلك لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من الخلل والفساد لوجب رفض لغتها » (١) .

كان العامل الحاسم في اختيار الشعر ، عند قيام الحركة الخاصة بجمع التراث هو صلاحيته للغرض الذي يختار من أجله ، ولقد تنوعت الأغراض في اختيار الشعر ، ولكن غلب عليها في العصر الأول - حوالي أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني - تلك الحركة التي تزعمت ما يسميه يوهان فك بمبدأ (تنقية اللغة العربية) الذي حمل راية المحافظة على خلوص اللغة (٢) ، ولتكن الدوافع إلى تلك التنقية ما تكون - دينية أو قومية أو غير ذلك - فإن الذي لاشك فيه أن تلك الحركة لو أدت أن تضع الصورة المثالية للغة العربية على أحسن الوجوه الممكنة ، وذلك عن طريق جمع نماذجها الممتازة وتحليلها وشرحها . ونظر زعماء تلك الحركة فرأوا أن العرب وهم الذين يمكن جمع هذه النماذج منهم ، قد انتشروا في سائر الأقطار المفتوحة ، كما رأوا أن أبناء تلك الشعوب الأعجمية قد انتشروا في المدن الإسلامية والعربية وحدث بين لغات الفريقين ما يحدث عادة عند التقاء اللغات المختلفة من التأثير والتأثر - وإن احتفظت اللغة العربية بالنسبة الأعلى من الثبات بصفاتها لغة الدين والحكم - لكنها على أي حال ، لم تعد في نقاء اللغة التي يتكلمها أولئك الذين ظلوا في البادية البعيدة بمعزل عن احتمالات المؤثرات الأجنبية على لغتهم .

من هنا جاءت أهمية عامل الزمن ، أعني أن التقدم في الزمن كان قرينة على

(١) السيوطي ، الاقتراح ٢٤ وهو ينقل عن الخصائص ، وراجع الخصائص لابن جنى ١ / ٤٠٥

(باب في ترك الأخذ عن أهل المدر)

(٢) يوهان فك ، العربية ٢٦ .

عدم اختلاط العرب بغيرهم ، على حين كان التأخر قرينةً على العكس ، دون أن يكون للمسألة علاقة بتفضيل جيل على جيل ، أو عصرٍ على عصر ، وهذا ما يوضحه نص من ابن سنان الخفاجي ، يقول : « فأمّا الاستشهاد بأشعار هؤلاء المتقدمين فقد بينا... سببه ، وقلنا : إن تقدم الزمان غير موجب لذلك ، وإنما موجه أن العرب الذين يتكلمون باللغة العربية ولا يخالطون أحداً ممن يتكلم بغير لغتهم هم الذين أقوالهم حجة في اللغة ، والعرب الذين خالطوا غيرهم من العجم وفسدت لغتهم بالمخالطة لا يستدل بكلامهم ، فلما كان العرب المتقدمون قبل الإسلام وفي الصدر الأول منه لا يخالطون في الأكثر غيرهم كانت أقوالهم في اللغة حجة ، ولما صاروا بالملك والدولة يخالطون غيرهم ويحضرهم ويسكنون المدن لم يستدل بلغتهم ، ولهذا السبب كان أبو عمرو بن العلاء يعيب جريراً والفرزدق بطول مقامهما في الحضر ، وأبطل الرواة الاحتجاج بشعر الكميت بن زيد والطرماح لأنهما كانا حضريين » (١).

ومع شدة وضوح كلام ابن سنان هنا فلا بأس بإيراد (بيانه) السابق الذي أشار إليه في هذا النص تأكيداً لرأينا في هذه القضية ، يقول : « فلعل من وجدنا نستدل بكلام العرب المتقدمين على لغتهم ولانستدل بكلام المتأخرين بتخيل أن هذا شيء يرجع إلى الزمان ، وليس الأمر كذلك ، وإنما العرب الأول لما كثر الإسلام واتصلت الدعوة وانتشرت حضر أكثرهم ، وسكنوا الأرياف وفاقوا البدو ، وخالطهم الباقي ، فامتزج كلامهم بمن جاوروه من الأنباط وعاشروه من الأعاجم ، وعدم منهم الطبع السليم الذي كانوا عليه قبل هذه المخالطة ، فهم الآن لا يحتج بكلامهم لهذه العلة ، لا لأن القدم والحدوث سببان في الصواب والخطأ... » (٢).

ذلك هو - صراحة - السرف في موقف أبي عمرو - إن كان قد حدث بالفعل - ممن سماهم (محدثين) ولم يحتج بهم ، وكذلك موقف الأصمعي وغيره من عدم الاحتجاج بأشعار المحدثين ، وهو الموقف الذي أساء فهمه بعض القدماء وكل الدارسين المحدثين تقريباً ، أعني أن الفيصل في قبول الشعر من زاوية النقاء اللغوي هو ما يضمن وجود هذا النقاء ، ولا شيء غير ذلك .

(١) ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، ١٢١ .

ولقد كان ذلك المسلك طبيعياً ولا يحمل أى سمة من سمات الرجعية - كما يحاول (فك) أن يصف تلك الحركة (١)، ذلك أن القائمين عليها ظلوا على الوفاء لمبدئهم وهدفهم، ولقد كان الهدف - كما ذكرت - محاولة جمع، ووضع، صورة للعربية كأنقى ما تكون، ولقد أجمعوا على أن مصادرهم إنما هي الكلام الموثوق بفصاحته « فشمّل كلام الله تعالى - وهو القرآن - وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين، نظماً ونثراً، عن مسلم أو كافر، فهذه ثلاثة أنواع لا بد فيها من الثبوت » .

أما القرآن فكل ما ورد بأنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية، سواء كان متواتراً أم شاذاً، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً (٢) .

تطبيق المبدأ على الحديث النبوي

ويتضح الوفاء لمبدئهم من أنهم لم يستشهدوا - في اللغة - بكل كلام الرسول، ورأوا أن كلامه إنما يستدل منه « بما ثبت أنه قاله على اللفظ المروي، وذلك نادرٌ جداً، إنما يوجد في الأحاديث القصار على قلة أيضاً، فإن غالب الأحاديث مروى بالمعنى، وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها » (٣) . وهكذا لم تستثن أحاديث الرسول ولم تعف من أى شرط من شروط حركة التنقية اللغوية، فأى شك في بعض رواة الحديث كافٍ لأن يصبح الحديث خارج دائرة الكلام الذى يستشهد به في اللغة . ولقد كان ذلك مسلك متقدمى اللغويين والنحاة كأبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمرو والخليل وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائى والقراء وعلي ابن المبارك الأحمر وهشام الضرير من أئمة الكوفيين، وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين (٤) .

(١) يوهان فك، العربية ٢٦ .

(٢) السيوطى، الاقتراح ١٤ .

(٣) الاقتراح ١٦ .

(٤) الاقتراح ١٧ .

وكان طبيعياً ألا يُستثنى كلامُ العرب - وهو المصدر الثالث والأهم عند اللغويين - لأنهم احتجوا به على صحة ألفاظ القرآن - من نفس القاعدة، فرأوا الامتناع عن الاحتجاج بكل ما يُحتمل فيه وجود شيء من الفساد أو الاختلاط، ولم يكن عنصرُ الزمن هو الفيصل في ذلك، وإنما كان الشرطان المتقدمين الذكرهما الأساس، أعنى المكان البعيد عن المؤثرات الخارجية، والثقافة العربية الخالصة، فلما انعدم الشرطان في شعراء مثل عدى بن زيد وأبي ذؤاد وأميرة ابن أبي الصلت - وهم جاهليون - ولما انعدم كذلك في شاعرين إسلاميين كالطرماح والكميت، رفضوا الاحتجاج بشعرهم أيضاً، فلما فشا الاختلاط وانتشر اللحن وأصبحت العربية تؤخذ تلعماً واكتساباً لاسليقة وفطرة، وصار ذلك هو الشائع بين معظم الشعراء، وضع اللغويون لأنفسهم حداً زمنياً يتوقفون عنده عن الاحتجاج بأشعار الشعراء الذين يتأخرون عنه، ولم يكن الحد الزمني يحمل معنى التمييز بين قديم ومحدث، وإنما كان يحمل - في حقيقة الأمر - دلالة مكانية ثقافية معينة، فهم قد رأوا أن الزمن المتأخر ازداد فيه الاختلاط بين الشعوب المختلفة في المملكة الإسلامية، بحيث انعدم الشرطان السابقان، وبالتالي أصبح التهاون في شرط العنصر الزمني تهاوناً في شرط النقاء اللغوي الذي تطلبوه واشترطوه فيمن يحتج بلغتهم، وذلك دون أن يلتفتوا - في هذا المجال بالذات - إلى المستوى الفني للشعراء، ودون أن ينصوا حقيقة على أن من رفضوا الاحتجاج بأشعارهم كانوا أدنى في درجة الشاعرية ممن قبلوا الاحتجاج بهم.

ويقول يوسف خليف: إنه « بقيام الدولة العباسية واستقرار الأوضاع في المجتمع الإسلامي الجديد، يبدأ العصر اللغوي الثالث، من حوالي الثلث الثاني من القرن الثاني للهجرة إلى نهاية هذا القرن... في هذا العصر اللغوي الثالث كانت بواكير الحياة العقلية قد أخذت في الظهور... وكانت حركة التنقية اللغوية قد بلغت أشدها بعد أن أصبحت الفصاحة أمراً غير طبيعي في مجتمع انتشرت فيه العناصر الأجنبية وتغلغت في مختلف ميادينه السياسية والاجتماعية واللغوية والأدبية، في حين تراجعت العناصر العربية تراجعاً ملحوظاً بالنسبة إلى مراكزها في العصرين السابقين، وأخذ اللحن في الظهور بصورة واضحة، ليس فقط في المجتمع العام ولكن في المجتمع الأدبي أيضاً، الأمر الذي دفع علماء اللغة والنحو إلى عدم الاحتجاج بالآثار الأدبية

« وسألته عن زياد الأعجم ، فقال حجة لم يتعلق عليه بلحن ، وكنيته أبو أمامة ، قلت فأخبرني عن عبد بنى الحسحاس قال : هو فصيح ، وهو زنجي أسود . قال : وأبو دلامة عبد رأيت ، مولد حبشي ، قلت : أفصيحاً كان ؟ قال : هو صالح الفصاحة .. قال : وأبو عطاء السندي عبد أعرب مشقوق الأذن ، قلت : وكان في الأعراب ؟ قال : لا ، ولكنه فصيح ، (١) .

ذلك هو اعتراف أحد زعماء حركة التنقية اللغوية ، وواحد من الذين اتهموا بالتعصب ، بقبول لغة تلك الطائفة من العبيد .

ولا داعي للإطالة في هذا الصدد ، وحسبنا أن نذكر أن سيويه قد استشهد بشعر سحيم عبد بنى الحسحاس (٢) واستشهد كذلك بشعر ابن ميادة - أحد من ختموا بهم الشعراء - وكان هذا الأخير يزعم أن أمه فارسية (٣) .

وهكذا لم يكن هناك اعتباراً زمانياً بالمعنى المفهوم ، ولا حتى اعتبار مكاني لذاته يحول دون الاحتجاج النحوي واللغوي بالشعر المحدث ، وإنما وقفوا عند الشروط التي تتيح لهم الحصول على شواهد اللغة النقية ونماذجها وهي الشروط التي كانت موضع احترام الجميع .

وكأنما كان هناك ما يمكن تسميته بالطبقات اللغوية - أو المستويات اللغوية - للشعراء ، تقوم على درجة الاطمئنان إلى الاحتجاج بلغة الشاعر بصرف النظر عن مستواه الفني ، وهذا واضح مما قلناه الأصمعي « قال .. وابن هرمة ثبت فصيح ... قال : وابن أذينة ثبت في طبقة ابن هرمة ، وهو دونه في الشعر » (٤) ، وكثيراً ما كانت الصفات التي يفهم منها الغرض من الشاعر إنما تعني رداءة لغته ، بما يخلُ بشرط صلاحيتها للاحتجاج ، قال أبو حاتم عن الأصمعي : « رأيت يظعن في الأقيشير (شاعر إسلامي أموي) ولم يلتفت إلى شعره . قال : ولا يقال إلا (رجل شرطي) فقلت :

(١) الأصمعي ، فحولة الشعراء ، ٣١ ، ٣٣ .

(٢) البغدادي ، خزائن الألب ، ١ / ٢٨٢ .

(٣) المرجع السابق ، ١ / ١١٠ ، ٣٠٥ .

(٤) فحولة الشعراء ، ٣٢ ، ٣٣ .

قال الأقيشر :

إِنَّمَا نَشْرَبُ مِنْ أُمُورِنَا . . . فَاسْأَلُوا الشَّرْطِيَّ مَا هَذَا الْغَضَبُ

فقال : ذاك مولد ، (١) وكان وصف الشاعر - في حديث الأصمعي - بأنه (مولد) إنما كان يعنى انتماءه إلى الفئة التي لا يُحتجُّ بلغتها ، لا الفئة الرديئة فنياً ، وذلك ما يكمل إيضاحه وصف الأصمعي لمروان بأنه « كان مولداً ، ولم يكن له علمٌ باللغة » (٢) . وان كان هذا لم يمنع من الاحتجاج ببعض أولئك المولدين حيثما توافر عنصر الاطمئنان إلى لغتهم .

غير أن ما حدث هو أن الدارسين المحدثين نظروا إلى توقّف اللغويين والنحاة - في الاحتجاج اللغوي - عند عصر معين ، أو شعراء معينين فرأوا في ذلك تعصباً ضدّ الشعر المحدث ، وغضباً منه ، وتبع هذا خلطهم بين روح المحافظة في اللغة في مستواها العادي وقولهم - أو قول بعضهم - إن اللغة لا يُقاس عليها ، وبين كراهية التّجديد والإبداع في كل النواحي والتعصب للقديم أيّا كان ، فَعَلَّ ذلك نكّلنن وفعله أحمد أمين ، وكذلك جرو نباوم وغيرهم .

ومن الأمثلة على هذا الخلط أيضاً ما نجده في حديث (بروكلمان) عن الأصمعي يقول : « ويؤكد ابن جنّي في الخصائص تعظيم الأصمعي للسنة والرواية ، وكراهيته للبدعة والرأي ، ومن ثمّ كان يكره اختراع المعاني والعناية بالعروض » (٣) ، والواقع أن فهم بروكلمان لعبارة ابن جنّي في هذا الصدد واستنتاجه منها كراهية الأصمعي للاختراع في المعاني يمثل ذروة المشكلة التي وقع فيها الدارسون المحدثون حين خلطوا بين منع الاستشهاد في اللغة والنحو بشعر المحدثين ، وبين التعصب ، كما أنهم خلطوا بين نزعة المحافظة في اللغة في مستواها المثالي النظري ، وبين مقاومة الجديد بصفة عامة ، بما في ذلك الاختراع في المعاني .

(١) المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٢) الاغانى ١٠ / ٨٣ والموشح ٢٥١ .

(٣) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٢ / ١٤٨ .

ويمثل فهم بروكلمان لعبارة ابن جنى فى الخصائص خلطاً من النوع الثانى، أعنى الخلط بين نزعة المحافظة فى اللغة والنحو وبين كراهية الاختراع والتجديد فى المعانى، ففى الخصائص (باب فى أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب) يقول فيه ابن جنى: «إن الأصمعى ليس ممن ينشط للقياس، ولا لحكاية التعليل» (١)، ويحكى عن الخليل بن أسد النوشجاني قال: «قرأت على الأصمعى هذه الأرجوزة للعجاج (ياصباح هل تعرف رسماً مكرساً)، فلما بلغت (تقاعس العزبنا فاقعنسنا) قال لى الأصمعى: قال لى الخليل: أنشدنا رجل (ترافع العزبنا فارقعنا) فقلت: هذا لا يكون، فقال: كيف جاز للعجاج أن يقول: تقاعس العزبنا فاقعنسنا، ولا يجوز لى» (٢)، ويقول ابن جنى عن الخليل: إنه كان معروفاً بقله ابتعائه فى النظر وتوفره على ما يروى ويحفظ، وتؤكد هذا عندك الحكاية عنه وعن الأصمعى، وقد كان أرادَه الأصمعى على أن يعلمه العروض فتعذر ذلك على الأصمعى وبعد عنه فيئس الخليل منه (٣).

ومع أن ما أشار إليه بروكلمان من حديث ابن جنى عن الأصمعى لا يحتمل كل ما فهمه منه، فإننا نذكر أن الأصمعى وكثيرين غيره من اللغويين كانوا على القول بأن هناك جوانب فى اللغة لا يقاس عليها، وزاد الأصمعى إلى ذلك - وإن لم ينفرد به أيضاً - كراهية تفسير القرآن بالرأى، ويقول المبرد: إن الأصمعى كان لا يشد ولا يفسر ما فيه ذكر الأنواء، لقول الرسول (صلعم) إذا ذكر النجوم فأمسكوا... وكان لا يفسر شعرا يوافق تفسيره شيئاً من القرآن، هكذا يقول أصحابه (٤).

وبالإضافة إلى ذلك فنحن نعرف موقف الأصمعى من أبى عبيدة فى تأليف الأخير لكتاب (مجاز القرآن)، وأن الأصمعى رأى أن عمله هذا يعد تفسيراً للقرآن بالرأى (٥)، وهو مبدأ لم يكن يقره الكثيرون، حيث كانوا يرون أن التفسير الأمثل

(١) ابن جنى، الخصائص ١ / ٣٦٢.

(٢) ابن جنى، الخصائص ١ / ٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) الخصائص ١ / ٣٦٦، ٣٦٧.

(٤) الكامل ٤٤٩ ط. وليام رايت.

(٥) نزعة الألباء ٧٣.

للقرآن هو ما أُثِرَ عن الرسول (صلعم) ، وبالتالي كانوا يتحرجون في تفسير القرآن بالرأى واشتهر الأصمعي بهذا التحرج ، ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه « كان شديد الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة ، فإذا سئل عن شيءٍ منهما يقول : العرب تقول : معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شيء هو » (١) .

وكما قلت ، كان ذلك موقف الكثيرين - وإن لم يدل على شيء من رجعية الفكر ، بل إن من المؤلفين من يرى أن ذلك الموقف من الأصمعي لم يكن حقيقياً ، وإنما كان نكايَةً من الأصمعي في أبي عبيدة (٢) ، أما الأخير فقد رأى أن القرآن نص عربي يجرى على سنن العرب في كلامهم ، ومن هنا فسّر القرآن وعُدته الأولى اللغف بالعربية وأساليها (٣) . على أي حال كان الأصمعي وغيره من اللغويين مثل الأخفش - الذي تمنى لو ضرب أباً عبيدة بسبب تأليف مجاز القرآن - يظهرون كراهية التفسير بالرأى ، وكما قلت لم يكن مثل هذا المسلك يدل على شيء من الرجعية في الفكر ، وإنما كان يخضع لرأي عام ذي نظرة خاصة فيما يتعلق بتفسير القرآن بالذات .

ولا شك أن بروكلمان قد أسقط تصوّره لموقف الأصمعي في هذه الناحية على تفسيره وفهمه لعبارة ابن جنى في الخصائص ، والأفهي لا تحمّل أي معنى يدل على محافظة الرجل في غير مجال تنقية اللغة وتفسير القرآن ، وكثير من حديث ابن جنى ينصب على محافظة الخليل بن أحمد وذهابه إلى القول بأن اللغة لا يقاس عليها ، فهو - كما قلت - رأى لا ينفرد به الأصمعي ، ثم هو لا يستوجب الوصف بكرهية التجديد في كل النواحي على نحو ما فعل بروكلمان .

والى نفس هذا المنحى تقريباً ذهب جرونباوم ، وذلك في تصريحه بأن علم اللغة كان بمثابة العامل المُحافظ في الأدب ، وأن القلق على الوضع الأدبي الناجم عن تلاشي الصلة ما بين أهل المدينة ولغة البلد الفصحى شجع على المضى في الاتجاه

(١) نقلهما أورده محققا فحولة الشعراء للأصمعي ص ٨٢ .

(٢) راجع : ياقوت الحموي ، إرشاد الأريب ، ٢٦١ / ٧ .

(٣) راجع ص ١٦ من مقدمة محمد فؤاد سزجين لتحقيقه لمجاز القرآن .

التقليدى (١) .

على أن النوع الآخر من الخلط الذى وقع فيه المحدثون ، والذى يمثل
العنصر الأوضح فى الصورة ، هو خلطهم بين عدم الاحتجاج بالشعر
المحدث والتعصب ضد هذا الشعر ، على الرغم من اعترافهم بوجود
اعتبارات لغوية وراء التنويه بالشعر القديم .

ومن أمثلة الفهم لإعلاء اللغويين من شأن الشعر القديم كمصدر للغة النقية على
أنه تعصب لذلك الشعر ضد شعر المحدثين ماذهب إليه أستاذنا شوقى ضيف فى
حديثه عن دور اللغويين فى المحافظة على اللغة والعمل على بقائها نقية سليمة ، فهو لاء
العلماء « كانوا حراساً أمناء على العربية ، فوضعوا قواعدها ودقاتها وجمعوا
شعرها القديم واتخذوه مثلاً أعلى للفصاحة والبيان وظلوا يذودون عنها ذيادة قويا
متعصبين للجاهلين تعصباً شديداً ، فهم الشعراء حقا ، وغيرهم عالية عليهم ، بل لقد
أهدروا شاعرية معاصريهم ولم يجعلوا شعرهم حرمة ولا فضلا ، إن قالو حسناً فقد
سبقوا إليه ، وإن قالوا قبيحا فمن عندهم ، ومنعوا الاحتجاج بشعرهم ، فهم لا يحتجون
فى مسائلهم النحوية ، واللغوية إلا بعرب البادية » (٢) .

هكذا ، تحت سيطرة فكرة التعصب للقديم وما نتج عنها من تصور
جرى الشعراء وراء هذا القديم ، تتحول عملية استمداد الشواهد اللغوية
والنحوية من الشعر القديم إلى تعصب لذلك الشعر ، ثم يتحول ذلك
التعصب إلى إهدار لشعر المحدثين ، وتكون النتيجة هى الجرى فى
ركاب القديم .

والواقع أن تلك الحركة إنما كانت تريد نماذج خالية من الخطأ اللغوى ومن
كل عوامل التأثير الأجنبية . وكانت المؤثرات الأجنبية قد ازدادت وتراكمت فى

(١) جوستاف فون جرونباوم ، (نشأة الشعر العربى وتطوره) بحث ترجم إلى العربية ونشر ضمن
مجموعة أبحاث أخرى بعنوان دراسات فى تاريخ الأدب العربى ١٤٢ - هذا مع أن جرونباوم قد
تنبّه إلى الوظيفة اللغوية لذلك الفريق من النقاد كالأصمعى ، راجع بحثنا لنفس المؤلف بعنوان
(النقد العربى فى القرن العاشر) ص ١٠٦ .

(٢) شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ١٢٥ .

البيئة الحديثة ، فبدأ أصحاب حركة التنقية اللغوية - والذين كانوا نقادا من ناحية أخرى - يتحفظون في قبول نماذج الشعراء الإسلاميين ، واضطروا إلى رفض بعضها ، لأنها متأخرة زمنيا ولكن لأنها فقدت صفة النقاء والخلو من الشوائب الدخيلة ، وبمرور الوقت ، وتزايد احتمال وجود التأثير الأجنبي في لغة الشعراء اضطروا اللغويون إلى وضع حد زمني - كان محل اختلاف - للفترة التي لا يجوز الاحتجاج بشعر الشعراء المتأخرين بعدها . وكما أوضحنا من قبل ، لم يكن المقصود فاصلا زمنيا بالمعنى المفهوم ، وإنما كانت للزمن دلالة بالنسبة لعوامل التأثير الأجنبي التي كانت تزايد بمرور الوقت . وهكذا أصبح التقدم في الوقت دليلا على النقاء اللغوي .

والدليل على أن التقدم الزمني لم يكن مقصودا لذاته أن اللغويين الذين أشيع عنهم - خطأ - حب القديم والعزوف عن الجديد ، رفضوا الاحتجاج بشعر قبائل بأكملها في الجاهلية ، ولو كان العامل الحاسم هو عامل الوقت حقيقة ، لما كان هناك محل للاستثناء ، لكن ما نقله السيوطي عن الفارابي وما ذكره ابن جني يوضح أن عدد القبائل التي استثنى شعرها من الاحتجاج بالشعر الجاهلي ، كان كبيرا ، وكان السبب وراء استثنائها عدم توافر شرط النقاء اللغوي لا غير ، وكان فقدان هذا الشرط نفسه وراء عدم الاحتجاج بشعر الطرماح والكميت من الإسلاميين - الذين قبلوا الاحتجاج بشعرهم - وكان انعدام هذا الشرط أيضا هو السبب في توقفهم عن الاحتجاج بشعر المحدثين عند فترة معينة كان من الصعب بعدها الاطمئنان إلى خلوص لغة الشعراء من المؤثرات الأجنبية .

على أن أولئك الشعراء الذين رفض الاحتجاج بأشعارهم على المستوى اللغوي - ومنهم الشعراء المحدثون - كانوا يتمتعون بكل آيات التقدير التي كان يحظى بها الشعراء الآخرون ممن قبلوا لغويا ، وذلك حين يدبر الناقد ظهره إلى اعتبارات النقاء اللغوي ، ويولي وجهه شطر العناصر الفنية الحقيقية في الشعر . وهذه الحقيقة وحدها هي التي تفسر قبول الاحتجاج بشعر الطرماح والكميت على المستوى البلاغي والأساليب البيانية ، وكذلك الاحتجاج بشعر المحدثين كبشار وأبي نواس في نفس هذه المجالات ، وهي وحدها أيضا التي تفسر صدور الهجوم ضد الشعر الحديث وصدور الثناء عليه والتنويه به على لسان العالم الواحد .

٢ - الشعر القديم كوثائق للمعلومات

وانطلاقاً من المهمة السابقة - مهمة التنقية اللغوية - إلى مهمة أخرى من المهام التي اضطلع بها قدامى النقاد دون حاجة إلى شواهد من الشعر المحدث ، يقابلنا حديث الجاحظ الذي سبقت الإشارة إليه : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل ، (١) .

وقد فرغنا من القول فيما سُمي حديثاً بـ (حركة التنقية اللغوية) ، وقد اضطلع بها - فيما رأينا - أصحاب النحو واللغة ، وهم الذين يشملهم حديث الجاحظ عن النحويين ، كما يشمل جانباً من نشاط من أطلق عليهم (رواة الأشعار) الذين نسب إليهم الاهتمام بالغريب والمعاني الصعبة ، وهنا نصل إلى فريق آخر هم الذي أطلق عليهم الجاحظ (رواة الأخبار) ، وقال إن غايتهم هي : (كل شعر فيه الشاهد والمثل) ، ولا بد أن يكون المقصود في حديثه تلك الشواهد والأمثلة التي تتخذ وثائق تحمل وقائع التاريخ وحوادثه وأيام العرب وأنسابهم ، وسائر أنواع المعلومات عنهم ، وهذه وظيفة أخرى استغل فيها الشعر القديم دون أن يكون في استخدامه أدنى شبهة من عصبية على شعر المحدثين .

وفي هذا الصدد يصادفنا تصريح لأبي عمرو بن العلاء يربط فيه بين الشعر والعلم - بمعنى المعرفة - يقول أبو عمرو : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ لجاهكم علم وشعر كثير ، (٢) ويقول ابن سلام ناقداً أخطاء ابن إسحاق في الرواية : « فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق وماروى الصحفيون ، ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم ، (٣) . وهكذا نراه يصرح بأن الشعر كان في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون ، ثم يورد كلمة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : « كان الشعر علم قوم

(١) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

(٢) طبقات ابن سلام ١ / ٢٥ .

(٣) نفس المرجع ١ / ١١ .

لم يكن لهم علم أصح منه» (١).

وجول هذا المعنى يقابلنا حديثُ يونس عن الفرزدق: «لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس»، كما يجيء وصف أبي عبيدة للفرزدق بأنه «رواية الناس وصاحب أخبارهم» (٢). ليصادفنا هذا الربط بين رواية الشعر والعلم بالأخبار والأنساب - مرة أخرى - لدى الجاحظ الذي يورد قول أبي الحسن المدائني (ت ٢١٥): «أربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار وعلماءهم بالأنساب والأخبار...» (٣)، ثم سوغ مثل قول أبي هلال: «إننا لانعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستتبط آدابها ومستودع علومها» (٤)، كما سوغ ما صرح به المرزوقي من أن «الله عز وجل قد أقامه [يعنى الشعر] مقام الكتب لغيرها من الأمم، فهو مستودع آدابها، ومستحفظ أنسابها ونظام فخارها يوم التفار وديوان حجاجها يوم الخصام» (٥).

لتذكر - إذن - كل هذه النصوص في الإشارة، أو التصريح بأن شعر العرب القديم كان مستودع تاريخهم وثقافتهم، بالمعنى الواسع للتاريخ والثقافة، ولتذكر مسلك الجاحظ في كتاب (الحيوان) وعدة الشعر العربي مصدراً هاماً من مصادر معلوماته، ولتذكر كلامه الذي قدمنا به لهذه الفقرة في تقسيم اهتمامات الرواة - إلى نحو ولغة وأخبار - وهو ما كرره في أكثر من موضع، مصرحاً بأن من الرواة من يقصر همه على معرفة الأخبار والأنساب والأيام (٦). لتذكر كل ذلك لتؤكد من وجود هذه الغاية وراء رواية الشعر القديم، أعنى معرفة تاريخ العرب القدماء وأنسابهم، وهي كما نرى، غاية لا يصلح لتحقيقها الشعر المحدث، وبالتالي فإن الانصراف عنه - في هذا المجال المحدد - إلى أشعار القدماء لا يحتمل أدنى شبهة من التعصب على المحدثين لصالح القدماء.

(١) طبقات ابن سلام ١ / ٢٤ . والعمدة ١ / ٢٧ .

(٢) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٣٢٣ .

(٤) الصناعتين ١٤٤ .

(٥) مقدمة المرزوقي لشرحه على الحماسة ١ / ٣ .

(٦) العمدة ٢ / ١٠٥ .

٣ - المهمة النوعية للرواية :

هكذا كانت رواية الشعر القديم عمليةً ضروريةً فرضتها - في مجال اللغة والنحو - ملايسات الحاجة إلى الشواهد النقية التي ارتبط نقلها بقدم الشعر المستشهد به، كما فرضتها طبيعة الحاجة إلى الشعر القديم باعتباره وثائقً مشتملة على تاريخ العرب وجوانب حياتهم المختلفة، في الجاهلية على وجه الخصوص، وقد رأينا أنه في كلا المجالين لم يكن لاستخدام الشعر القديم أدنى دلالة على التعصب على الشعر المحدث .

ونضيف هنا - وبعبداً عن الوظيفتين السابقتين اللتين اتخذت مادتهما من الشعر القديم - أن ظاهرة الرواية بمعناها المطلق، بعبداً عن توظيف الشعر المروي لغرض معرفي، هذه الظاهرة كانت نتاجاً طبيعياً لوجود التراث الضخم من جهة، ولتخلف وسائل الكتابة والتدوين من جهة ثانية، الأمر الذي أوجد ظاهرة الرواية كوسيلة للاحتفاظ بذلك التراث ونقله إلى الأجيال اللاحقة أقرب ما يكون إلى صورته الأصلية الصحيحة .

من هنا جاءت الدراسات التي تعمل على تحصيل عملية الرواية من محاولات الإخلال بصحة المروي وسلامة نسبه إلى أصحابه، فكانت الوقفة العظيمة التي وقفها ابن سلام في مقدمة طبقاته في مواجهة انتحال الشعر ووضع الخطأ في الرواية وتشويه المروي، فقد صرح بأنه « في الشعر مصنوع مفتعل كثير لاخير فيه ... وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفى، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه (١) .

لنلاحظ هنا المقابلة بين كون الشعر متداولاً من كتاب إلى كتاب، مأخوذاً عن الصحف ومروياً عن الصحفيين من ناحية، وكونه مأخوذاً عن أهل البادية قد عرض على العلماء وأهل الرواية الصحيحة من ناحية ثانية؛ فالأول مفتعل مصنوع لاخير فيه، والآخر متفق عليه موثوق به، من هنا كان ما يتردد في أخبار اللغات من الرواة من

مدحهم بالحفظ والصدق ، وصحة الرواية ، وعدم الأخذ عن الصحف ، وعلى سبيل المثال ، يقول مكى بن سواده في أبي عمرو بن العلاء :

الجامع العلم نساها ويحفظه .: . والصادق القول إن أنشاده كذبوا

ويقول ابن سلام عن خلف : « كنا لانبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً إلا نسمعه من صاحبه » (١) . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن خلفاً الأحمر قد طلب من أبي نواس أن يرثيه - وهو حى - ليرى ما يقول فيه ، فقال الشاعر (ضمن أبيات) :

كنا متى ما ندن منه نغترف .: . رواية لا تجتنى من الصحف (٢)
فلما مات خلف فعلاً كان مما قاله فيه أبو نواس :

لا يهيم الحاء في القراءة بالخطأ .: . ولا لامها مع الألف

ولا يعنى معنى الكلام ولا .: . يكون إنشاده من الصحف (٣)

ومن هذا القبيل قول أبي جعفر القرطبي « ما رثي في يد ابن الأعرابي كتاب قط » (٤) . ذلك هو منتهى الإطراء - مدحاً أو رثاءً - إطراء العالم بأنه لا يأخذ معلوماته عن الصحف ولا يعتمد على النقل عن كتاب ، لماذا ؟ لأن الكتابة - حتى ذلك الوقت - لم تكن محل ثقة من المثقفين ، إذ كانت مظنة لوقوع التصحيف والخطأ في القراءة ، وفي أخبار أولئك العلماء أمثلة كثيرة لما وقع فيه كثير منهم من صور التصحيف والتحريف بسبب الاعتماد على الكتابة دون التلقى والمشافهة ، ولعل من المناسب هنا أن نستأنس بما هو معروف عند علماء القراءات القرآنية من ضرورة أخذها مشافهة وتوقيفاً وعدم الاقتصار على ما هو مكتوب في المصحف .

(١) ابن سلام ١ / ٢٣ ، وإرشاد الأريب ١١ / ٦٧ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ١٤٨ ، وفي الديوان ٥٧٧ باختلاف يسير ، وينظر : الشعر والشعراء ٧٨٩ / ٢ .

(٣) الديوان ٧٥٦ ، إنباه الرواة للقطبي ١ / ٣٥٠ .

(٤) الأغاني ٦ / ٧١ ، ويتكرر في ٩٣ .

لقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه الملابسات هي الاعتزاز بالحفظ وكثرة الرواية إلى حدّ المبالغة ، فزعم حماد الراوية - وقد سأله الوليد بن يزيد عن محفوظه وما استحقّ به لقب الراوية - أنه ينشد « على كلّ حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة ، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام » (١) ، وزعم مرة أنه يروي « سبعمائة قصيدة أول كلّ منها (بانت سعاد) » (٢) . أما الأصمعي فقد أثر عنه قوله : « أحفظ عشرة آلاف أرجوزة » و « قال أبو عبدالله بن الأعرابي : شهدت الأصمعي وقد أنشد نحواً من مائتي بيت مافيها بيت عرفناه » (٣) ، أما ابن الأعرابي نفسه فيقول لتلميذه ثعلب : « أمليت - قبل أن تجيئني يا أحمد - حملَ جمل » (٤) .

أما عائد كل هذا المحفوظ وهذه الرواية فهو - بصرف النظر عن المبالغة - شرح الأشعار وتفسير غامضها وتمييز بعضها من بعض : القديم من المحدث ، المأخوذ من المأخوذ منه ، الجيد من الرديء .. الخ ، وتلقانا في أخبار حماد والأصمعي - على سبيل المثال - نماذج غير قليلة من التعرض للأشعار بالشرح والتفسير ، كما أن ترتيب ابن سلام لطبقاته يحمل - دون شك - حكماً تقويمياً على شعراء كل طبقة . ويدل حماد في حضرة الوليد بن يزيد بكثرة محفوظه وروايته ، ويقول : إنني « لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميّزت القديم منه من المحدث » (٥) ، وذكر مروان بن أبي حفصة أنه رأى حماداً في مجلس الوليد بن يزيد « وكلما أنشد شاعراً شعراً وقف الوليد بن يزيد ... على بيت بيت من شعره ، وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعر » (٦) .

أما خلف الأحمر فإنه يدلّ بمكانه من نقد الشعر وتمييزه ، وهو صاحب الممثلة

(١) الأغانى ٦ / ٧١ ، ويتكرر في ص ٩٣ .

(٢) الأغانى ٦ / ٩٢ .

(٣) نزهة الألباء ١١٤ ، وفي سرعة حفظ الأصمعي وبقته انظر ص ١٢١ .

(٤) نزهة الألباء ص ١٥١ .

(٥) الأغانى ٦ / ٧١ .

(٦) الأغانى ٦ / ٧١ .

بين عمله في نقد الشعر وعمل الصراف في تمييز النقود ، وقد استغل الإقرار له بسعة العلم بالشعر في تأكيد معرفته بالعلّة وراء رفض ما يرفض وقبول ما يقبل من الشعر دون أن يبدى السبب في ذلك (١) ، وبهذا استحق وصف معاصريه له بأنه : « أفرسُ الناس بيت شعر » (٢) .

كذلك وُصف الأصمعي بأنه في منزله خلف من العلم بالشعر ، وربما فضّله بعضهم عليه ، كما نُسب إلى الرشيدي أنه أطلق عليه (شيطان الشعر) لسعة علمه به وقدرته على فهمه وتبيين المقصود منه (٣) .

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال عما إذا كانت عناية أولئك الرواة مقصورة على أشعار القدماء ؟ ويجيء على الفور الجواب بالنفي استناداً إلى ما مر بنا من احتفالهم بشعر المحدثين وروايتهم وحفظه ودرسه ليرد - مرة أخرى - سؤال عن السبب في اقتران الحديث عن الرواية بأشعار القدماء دون شعر المحدثين ، وهو ما كان وراء الاعتقاد بعصية أولئك الرواة لأشعار القدماء على الشعر المحدث .

وهنا لا يتعدى الجواب تفصيل ما أطلقنا عليه طبيعة (المهمة النوعية للراوية) ، بمعنى الوظيفة الحقيقية أو الدور الحقيقي للراوية ، ولا يتعدى هذا الدور بمفهومه المطلق دور الوساطة أو المعبر بين مصدر الشعر ومتلقيه ، ومصدر الشعر هو الشاعر ، أو راويه المباشر ، أو سلسلة رواته إن كان موعلاً في القدم ، وتنحصر مهارة الراوية وقدراته في تحصيل أكبر قدر من الأشعار يُفترض فيها أن تكون قديمة وربما نادرة ، ليدخلها ضمن مروياته ، مباهايا بانفراده - إن أمكن - بروايتها ومعرفة غريبها ومعناها . وهذا هو معنى قول الجاحظ : « ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلي الاستخراج » (٤) ، وهو نفسه ما صرح به الباقلاني في حديثه عن مذاهب (أهل الصنعة) في اختيار الكلام ، فقد « يختار قوم ما يغمض معناه ويفرب لفظه » ،

(١) ابن سلام ١ / .

(٢) ابن سلام ١ / ٢٣ . وياقوت ١١ / ٦٧ .

(٣) نزهة الألباء ١١٣ ، ١١٤ .

(٤) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

وه الذين اختاروا الغريب فإنما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم وإظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه (١) .

ومع أن الحصر في كلام الجاحظ قد ينطوي على مبالغة ، كما أن رواية الغريب ، أو من يختارونه في كلام الباقلاني ليسوا هم جميع الرواة ، مع ذلك تظل هناك حقيقة لاجدال فيها وهي اعتزاز الراوية - بحكم مهمته - برواية الغريب والناذر ومالاتحاح معرفته وفهمه لكل أحد ، وهذا هو السر في اعتزازهم برواية القديم والإعلان عن ذلك والتباهي به ، بحيث اقترن عمل الراوية - كما سبق القول - برواية القديم ، فخيّل للكثيرين أن ذلك المسلك هو صدى لعصبية منهم على شعر المحدثين ، بينما الحقيقة خلاف ذلك .

كانت الحقيقة - وهذا أمر منطقي أن أولئك الرواة لم يستشعروا كبير قيمة ، وربما كبير خدمة يؤدونها إلى معاصريهم ، برواية الشعر المحدث ، لاعصية عليه كما فهم الدارسون في عصرنا الحديث ، وإنما لأنه موجود ومتاح للجميع وفي متناولهم ، وهذا هو الموقف الذي يكشف عنه مسلك المبرد مع معاصره ، وصديقه ، البحترى ، وسبق أن رأينا مدى احتفاء المبرد به وتنويهه بشاعريته ، لقد تساءل الأستاذ عبد الخالق عزيمة - في دهشة - عن السبب الذي من أجله خلا كتاب (الكامل) للمبرد من شعر للبحترى ، مع ما كان بينهما من الصداقة والألفة (٢) ، وقد أجاب المبرد نفسه عن السؤال ، وأزال الدهشة ، وبين السبب ، جاء في كتاب (الموازنة) : وأخبرنا أبو الحسن الأخفش ، قال : سمعت أبا العباس محمد بن يزيد المبرد يقول : ما رأيت أشعر من هذا الرجل - يعني البحترى - ولولا أنه ينشدني كما ينشدكم لملاّت كتبي وأمالي من شعره (٣) .

ومعنى (ينشدني كما ينشدكم) أن البحترى كان باقيا في زمانه ، وأن المبرد - لهذا السبب - لم يكن ليجد كبير فائدة في رواية شعره وإملائه ، لأن موقف

(١) إجاز القرآن للباقلاني ١١٧ .

(٢) المبرد حياته وأثره ص ٥١ .

(٣) الموازنة ١ / ٢١ ، ٢٢ ، وانظر (أخبار البحترى) حاشية المحقق ص ٥٠ ، ٥١ .

معاصريه لا يختلف عن موقفه في معرفة شعر البحترى وروايته ، وبالتالي فليس ثمة ما يغرى من زاوية عملية - معرفية أو فنية - برصده وتسجيله ، أو التباهى بذلك ، وإن كان حافظاً له متدوقاً ومقدراً .

ويبدو أن ذلك المسلك ، ولنفس السبب ، هو الذى كان غالباً على الرواة ، مما جعل ابن رشيقي - وقد انزلق إلى اتهامهم بالتعصب - يقول عن أبي عمرو بن العلاء وأصحابه - كأصمعي وابن الأعرابي - : « إن كل واحد منهم يذهب فى أهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم » (١) ، وبذلك فسّر توقفهم عن رواية أشعار معاصريهم - أو ما يحكى عن ذلك - بالتعصب عليها وتقديم غيرها . وليس لذلك أساس من الحقيقة ، فقد سبق أن رأينا تقدير أبي عمرو لبشار ، وتقدير الأصمعي له ولأبي نواس ، وتقدير ابن الأعرابي لأبي العتاهية ، وإسحاق الموصلي ، وأبي نواس ، الذى كتم روايته لشعره وأخفى ما سجل منه ، لا لشيء إلا لأن رواية أشعار المعاصرين لم تكن مدعاة لافتخارهم من حيث إنهم رواة ، أو - إن شئنا الدقة - لم تكن رواية أشعار المحدثين محكاً لإظهار كثرة المحفوظ من الغريب والنادر غير المعروف للجميع (٢) ، وإنما كانت مظنة ذلك هى رواية الشعر القديم التى يتحقق بها وحدها المهمة النوعية للرواية ، دون أن يعنى ذلك تعصبا على الشعر المحدث أو غصبا منه .

٤ - اعتبارات شخصية

قلتُ في كلمة التمهيد : إن من الشُّروط الأساسية لقراءة التراث النقدى أن تؤخذ فى الاعتبار كل العوامل المحيطة بنصوص ذلك التراث ، بغية الوصول إلى الدلالة الصحيحة التى قد تكون وراء هذه النصوص ، ويخطئ خطأ جسيماً من يدخل إلى دراسة التراث العربى من مدخل التسليم بكل ما يُقال ، أو قبول دلالاته على وجهها ، ولنا فى مسلك ابن سلام - قبل تزييدات الدارسين المحدثين - مثل رافع فى الاحتراس

(١) العمدة ١ / ٩٣ .

(٢) تنخر كتب الأدب - كالأغاني - بالحكايات عن استقدام الخلفاء والحكام للرواة من أمثال حماد والمفضل والأصمعي ، لسؤالهم عن أمور تتصل بالشعر القديم ، مثل نسبته أو مناسبته ، أو شرح معناه وتفسير غريبه .. الخ .

من تدخل الأهواء ودوافع المنافسة بين الأفراد والعشائر في توجيه الحكم بالقبول والرفض .

وقد كان ذلك المسلك منه اعترافاً بأن وقائع هذا التراث وأخباره قد تُنقل بين أفراد أو جماعات لكل منهم أهواؤه ومواقفه الخاصة البعيدة عن العلم أو الفن ، وأن هذه الأهواء وتلك المواقف غير الفنية قد انعكست بالضرورة على مواقف العلماء والشعراء بعضهم من بعض ، متخذةً - في الظاهر - طابع الرأي العلمي أو الحكم الفني .

من ذلك - مثلاً - ما يروى عن المنافسة بين أبي عبيدة والأصمعي وانتقاد الأصمعي تأليف أبي عبيدة لكتابه (مجاز القرآن) (١) ، ومنه ما سبقت الإشارة إليه من أسباب تحامل الأصمعي على الفرزدق مما دفعه إلى القول بأن تسعة أعشار شعره سرقة . وقد اعترف الصولي بأن من عاتبي أبي تمام « من يجعل ذلك سبباً لنباهة ، واستجلاباً لمعرفة - إذ كان ساقطاً خاملاً .. ليجرى له ذكر في النقص إذ لم يقع له حظ في الزيادة ، ومكسب بالخطأ إذ حرّمه من جهة الصواب » (٢) . كما تحدث مؤرخو النقد عن طعن دعبل بن علي الخزاعي على أبي تمام ، وذكر علي بن الجهم أنه « كان يكذب على أبي تمام ويضع عليه الأخبار » (٣) ، وقد نسبوا إليه قوله : « لم يكن أبو تمام شاعراً ، إنما كان خطيباً » (٤) .

وقد يمكن القول بوجود شبهات من عصبية غير فنية - عرقية مثلاً - وراء أحكام تحمل طابعاً فنياً ، علي نحو ما نجد في مقدمة (البديع) لابن المعتز ، من تأكيده على أن المحدثين من أمثال بشّار ومسلم وأبي نواس لم يخترعوا البديع ولم يسبقوا إليه ، إذ كان موجوداً في أشعار القدماء وفي كتاب الله وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

لقد كان أخذ مثل هذه الظروف في الاعتبار كفيلاً بإلقاء الضوء على بعض

(١) نزهة الألباء ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) رسالة الصولي إلى مزاحم بن فائق - أخبار أبي تمام ص ٢٨ .

(٣) أخبار أبي تمام ص ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ .

(٤) أخبار أبي تمام ص ٢٤٤ .

المواقف التي حُملت على محمّل التعصب على المحدثين ، دون أن يكون لها في -
حقيقة الأمر - أدنى صلة بهذا الموقف .

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما يُحكى عن موقف الأصمعي من إسحاق
الموصلى ، وهو الموقف الذي اتخذ دليلاً على تعصب الأصمعي ضد المحدثين قاطبةً ،
وتقول الرواية إن إسحاق قد عرض على ذلك الناقد بيتين من إنشائه قدمهما له على
أنهما لبعض القدماء ، وأن الأصمعي استحسنتهما على هذا الأساس ، ثم رجع عن
حكيمه عندما عرف أنهما لإسحاق (١) .

وكما سبق القول كان ذلك الموقف هو الدليل على تعصب الأصمعي ، لا على
إسحاق وحده ، وإنما على المحدثين عموماً ، مع أن النظر في طبيعة العلاقة بين الرجلين
وقيام المنافسة بينهما للفوز بالهبات والعطايا في قصر الخليفة ، من شأنه أن يضيء على
الخبر دلالةً مغايرةً ، ففي خبر عن الأصمعي أنه دخل هو وإسحاق الموصلى على الرشيد
فوجداه لقيس النفس ، فأنشده إسحاق أبياتاً أعجب بها الرشيد فأجازه ، ثم ضاعف له
الجائزة لما سمع من شكره ، « قال الأصمعي : فعلت يومئذ أن إسحاق أحذق بصيد
الدراهم مني » (٢) .

هذا من ناحية الأصمعي ، أما من ناحية إسحاق فيحكى أنه كان يُنشد الفضل
ابن الربيع أبياتاً كان الأصمعي أنشده إياها ، قال : « ودخل الأصمعي فسمعني أنشدها ،
فقال : هات بقيتها ، فقلت له : ألم تقل إنه لم يبق منها شيء ؟ فقال : ما بقي منها إلا
عيونها ، ثم أنشد بعد هذه الأبيات ثلاثين بيتاً منها ، فغاطني فعله ، فلما خرج عرفتُ
الفضل بن الربيع قلةً شكره لعارفة ، وبخله بما عنده ، ووصفت له فضل أبي عبيدة معمر
ابن المثني ، وعلمه ونزاهته ، وبذله لما عنده ، واشتماله على جميع علوم العرب ، ورغبته
فيه ، حتى أنفذ إليه مالا جليلاً واستقدمه » (٣) .

ويصور أبو الفرج ما كان من تغير الحال بين الأصمعي وإسحاق فيقول : « كان

(١) الخبر في الأغانى ٥ / ٣١٨ ، وفي الوساطة ص ٥٠ ، وفي نزهة الألباء ص ١٧١ .

(٢) الأغانى ٥ / ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٣) الأغانى ٥ / ٣٨٦ .

وسار محمد مندور في نفس الدرب متأثراً برواية ابن قتيبة وتوجيهات ابن رشيق، فأما «تعصب اللغويين للشعر الجاهلي وعدم أخذهم بغيرهم فهذه مسألة لم يكن يفضل الشعر الجاهلي لأسباب فنية... وإنما لمجرد سبقه كما يقول ابن قتيبة: (كان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته)، والمحدث في قوله هذا هو شعر الفرزدق وجرير وأمثالهما... ويقول ابن رشيق: هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعي وابن الأعرابي» (١).

وواضح أن مندور أقدم قام بنفس عملية المزاجنة والتلفيق التي قام بها طه إبراهيم، لقد زواج بين حديث ابن قتيبة عن مفضلتي القديم لقدمه وحديث الأصمعي عن عدم رواية أبي عمرو لشعر المحدثين أمثال جرير والفرزدق، وهي مزاجنة صنعها ابن رشيق، ووافق عليها مندور، كما وافقه على الصياغة النهائية للموقف بوجود ما سماه (مذهب أبي عمرو وأصحابه). وشأن مندور هنا شأن ابن رشيق، إذ يُقر كلاهما بعلّة توقف اللغويين والرواة عن الاحتجاج بشعر المحدثين - وهي الحاجة إلى الشواهد النقية - ثم يعود ليصف الموقف بأنه تعصب...!

هذا، ويبدو أن عبارات مما ورد في كلام أستاذنا شوقي ضيف من وصف أولئك العلماء بأنهم كانوا «متعصبين للجاهليين تعصباً شديداً»، فهم الشعراء حقاً، وغيرهم عالية عليهم.. إن قالوا حسناً فقد سبقوا إليه، وإن قالوا قبيحاً فمن عندهم، هي مما تأثر فيه بصياغة صاحب (العمدة)، وإن كان استخدامه لكلمة (المحدثين) يشير إلى تأثره أيضاً برواية ابن قتيبة (٢).

أما إبراهيم سلامة وهدارة فواضح لديهما تأثير القاضي الجرجاني، والأخبار التي أوردها عن مواقف معينة لأفراد من فريق اللغويين من بعض نماذج من أشعار المحدثين.

• • •

(١) النقد المنهجي ٨٠، ٨١.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٢٥، وانظر كتابه: النقد ص ٤٠.

إسحاق يأخذ عن الأصمعي ، ويكثر الرواية عنه ، ثم فسّد ما بينهما فهجاه إسحاق ، وكشف للرشيّد معايبه ، وأخبره بقلّة شكره ، وبخله وضعة نفسه ، وأن الصنيعة لا تزكو عنده .. ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعي وأسقطه عندهم ، وأنفذوا إلى أبي عبيدة من أقدمه ، (١) .

ومن الباحثين من يرجع العداوة بين الأصمعي وإسحاق إلى أسس قومية تمثلت في عربيّة الأصمعي وشعويّة إسحاق ، وربما زج فيها بشيء من العوامل السياسيّة التي تمثلت في ذهاب دولة الأصمعي وحظوته في قصر الرشيّد بعد القضاء على البرامكة (٢) .

وأيا كانت الأسباب وراء العداوة بينهما فقد وقعت هذه العداوة التي بدأت - كما هو واضح - بالتحاسد ومحاولة كل من الرجلين للظفر بالمكانة الأرفع والحظ الأوفر في بلاط الخليفة ، وظهرت آثار ذلك فيما يمكن أن نسميه بـ (الحرب الكلامية) بينهما ، فقد هجا كل منهما الآخر ، وعمل على تشويه صورته ، وإن بدا تفوق إسحاق وتمكنه من خصمه في هذا المضمار ، بدليل أن المعركة انتهت لصالحه بمغادرة الأصمعي بغداد وعودته إلى البصرة ، مما لا يستغرب معه - في مثل هذا الجو - وجود هذه الرواية عن هذا الرجوع غير المبرر - في نفس اللحظة - من الحكم بالاستحسان إلى الحكم بالاستهجان .

وأقول (الرواية) لأنني أستبعد وقوع الحادثة التي تشير إليها ، فليس من المألوف إنسانيا - ناهيك عن الأخلاق - أن يستحسن الإنسان ثم يستهجن في نفس اللحظة دون أي مبرر ، كما أن تصديق هذه الرواية وحملها على محمل العصبية على المحدثين ، فضلا عن تعارضه مع الموقف المطرد للأصمعي في قبول الشعر المحدث وتشجيعه ، فإنه يتعارض مع موقف الأصمعي في استحسان شعر إسحاق نفسه وتفضيله في مواطن أخرى (٣) . وأغلب الظن أن هذه الرواية من صنع إسحاق ،

(١) الأغاني ٢٨٦ ، ونزعة الأبناء ص ١١٧ - ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٢٠ .

(٢) الأصمعي واتجاهه الخلفي في الرواية الأدبية للدكتور جلال حجازي ص ١٥٦ - ١٥٨ ، وانظر

كتاب (الأصمعي) لأحمد كمال زكي ص ٢٢٢ - ٢٣٥ .

(٣) الأغاني ٥ / ٢٧٨ ، وانظر في المقابل تنويها من إسحاق بالأصمعي في : الموشح ص ٢٩٧ ،

وفي (الأصمعي واتجاهه الخلفي) ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

وضعها في إطار الحملة الشاملة التي نظمها ضد الأصمعي ، وإلا فإن أبسط ما يقال :
إنها بعض حصاد المنافسة والبغضاء بين الرجلين ، وإن الهدف من ورائها لا يتخطى
واضعها ومن وجهت إليه . ومن ثم كان لا ينبغي اتخاذ مثل هذا الخبر دليلاً على وجود
اتجاه عام من العصبية على المحدثين كما فعل الدارسون في عصرنا الحديث .

وهكذا ، وعلى ضوء المهام اللغوية والنحوية والإخبارية لذلك الفريق من النقاد ،
نستطيع أن نفسر ما يبدو وكأنه رفضٌ للشعر المحدث بسبب الحدائث في ذاتها ، وهو
ما فهمه الدارسون المحدثون على أنه تعصب ضد هذا الشعر .

نستطيع أن نفسر فكرة (آخر الشعراء) أو (خاتم الشعراء) أو (ساقّة الشعراء)
فلا نرى لها علاقة بالمستوى الفني للشاعر .

ونستطيع أن نفهم السبب فيما ذهبوا إليه من عدم الاحتجاج بأشعار المحدثين
فلا نرى فيه لعنة أبدية سلطوها على ذلك الشعر .

وأن نفسر ما كان يُعلنه بعضهم من رفض رواية شعر معاصريه ورفض الحكم
عليه ، وما كان يتمناه البعض لشاعره المفضل من المشاركة في ميزة التقدم الزمني ،
فلا نرى في ذلك أكثر من محاولة من اللغوي الراوية لتثبيت مكانته العلمية
والاجتماعية القائمة على حفظه للنادر والغريب من الأشعار ، وكذلك القديم ، وذلك
لعلنا أن مثل تلك التصريحات بعدم رواية شعر المحدثين وعدم الحكم عليه ، لم
تكن تتعدى مجرد القول إلى أي لون من ألوان التطبيق الفعلي .

كذلك نستطيع أن نفهم السبب وراء ظاهرة مشابهة ، وهي رجوع بعض أولئك
اللغويين عن كتابة الشعر حين يعلم أنه لمحدث .

وأخيراً نستطيع أن نفهم فهما صحيحاً - فيما أظن - ما اضطرب أمامه رجل
كالقاضي الجرجاني من رفض أولئك اللغويين الاحتجاج في اللغة بأشعار بعض
الجاهليين وبعض الإسلاميين ، وأن نرده إلى علته الحقيقية القائمة على الشك في نقاء
لغة أولئك الشعراء ، لا الغضب من شاعريتهم كما فهم الجرجاني ، وهو الفهم الذي
جعلته يعلل ذلك الموقف بما وجهه إلى ذلك الفريق من اللغويين من تهمة التعصب ،
والذي يشير في نفس الوقت إلى وجود أساس تاريخي خاطئ أدى بالدارسين
المحدثين إلى الوقوع فيما وقعوا فيه .

(٢)

تعليق

الأساس التاريخي للتصور القديم

قلتُ: إنَّ مواقفَ قدامى النقاد وتصريحاتهم كانت تتعدّد وتباينُ بتعدّد أدوارهم وتباينها، وإنَّ تصريحاتهم من خلال مهامهم اللغوية والنحوية والإخبارية كانت تحمل معنى الاعتزاز بالشعر القديم باعتباره المادة الصالحة لتقديم الشواهد في تلك المجالات، وإنَّ تلك التصريحات كانت سبباً في شيوع التصور القديم عن تعصّب ذلك الفريق ضد شعر المحدثين، وهو التصور الذي لم يكن ليعمّ لو أن الدارسين المحدثين قد تنبّهوا إلى ذلك التنوع في المهام ومجالات النشاط لدى أولئك العلماء، وبالتالي إلى التفاوت في قيمة نصوص الشعر، قديمه وحديثه، بالنسبة لكلّ من تلك المجالات.

ذلك عن شيوع هذا التصور، أمّا وجوده من البداية فإنه يعود - في تقديرنا - إلى ما يمكن تسميته بـ (الأساس التاريخي) لذلك التصور، وهو أساس ساهم في وضعه عددٌ من أعلام ذلك النقد بعد فترة البداية، يتحمّلون مسؤولية إيجاده وماترتّب عليه من إساءة الفهم لموقف قدامى اللغويين والرواة من شعر المحدثين ومن محاولات التجديد في ذلك الشعر.

ونحن إنمّا نستعمل كلمة (الأساس) مجازاً، إذ ليس ثمة أساس في الحقيقة، وإنمّا هي ثلاثة نصوص نزع أحدها من سياقها وحمل دلالة غير دلالاته. أمّا الثاني فينضح بروح الافتعال والزيف، ويغلب على الظن أنه من مبالغات راويه، كما سنرى. وأمّا النص الثالث ففيه حدة وفيه اندفاع في توجيه التهمة - تهمة تعصّب اللغويين والرواة على شعر المحدثين - وفيه - إلى جانب ذلك - تناقض يحمل نقضه في ثناياه.

* * *

هناك ثلاثة نقاد شاركوا في إيجاد ما أسميناه بـ (الأساس التاريخي) للتصور القديم، وكانت عدتهم في ذلك ثلاثة نصوص شاعت في تاريخ التراث النقدي واستمرت إلى العصر الحديث، أما النقاد فهم - على الترتيب الزمني - ابن قتيبة (ت ٢٧٦)، والقاضي الجرجاني (ت ٣٦٦) وابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦). وأما النصوص فاثنتان منها ينسبان إلى أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ أو ١٥٩) وثالثها للقاضي الجرجاني.

وواضح أن لدينا نصين لم يذكر صاحبهما ضمن مجموعة النقاد المخصوصين بالحديث، وهما نصاً أبي عمرو، كما أن لدينا ناقدين ليست لهما نصوص ضمن مجموعة النصوص المرشحة للدرس، وهما ابن قتيبة وابن رشيق.

وعلة هذه الظاهرة - ظاهرة نصوص بغير نقاد ونقاد بغير نصوص - أننا في هذا السياق لانتهم بمن ينسب إليه النص قدر اهتمامنا بتوجيه النص وتفسيره والقائم على هذا التفسير والتوجيه، فهذا - في الحقيقة - هو العامل المؤثر الذي يستحق الانتباه والمتابعة.

ولنبداً بإيراد النصوص بعيداً عن سياقاتها.

في خبر عن الأصمعي قال: «جلست إلى أبي عمرو عشر حجج ماسمعه يحتج بيت إسلامي».

وفي خبر آخر قال: «وقال مرة [يعني أبا عمرو بن العلاء]: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت أن أمر فتياننا بروايته، يعني شعر جرير والفرزدق وأشباهما» (١).

أما نص القاضي الجرجاني فقد جاء في غمرة حماسه للمتنبى ونكيره على من يتعصبون على المحدثين - وهم الذين ينتمى إليهم المتنبى، قال القاضي: «وقد بعدت بهم العصبية في ذلك إلي تناول بعض المتقدمين، زعم الأصمعي أن العرب لا تروى شعر أبي دؤاد وعدى بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية، وكيف يكون ذلك؟ وهذا

معاوية يفضل عدياً على جماعة الشعراء ، وهذا الخطيئة يُسأل : من أشعر الناس ؟
فيقول : الذي يقول ، وأنشد لأبي ذؤاد ... ، (١) .

هذه هي النصوص الثلاثة ، نصاً أبي عمرو عارفين من أى سياق ، ونصّ القاضي مسبقاً بأقل ما يمكن من التمهيد ، إذ كان صاحب النص هو وجهه وملبسه دلالة ومناسبه ، وذلك بخلاف نصّ أبي عمرو اللذين تولّى ابن قتيبة ثم ابن شيبان القيروانى توجيههما وإلباسهما الدلالة التى ارتأياها .



فى سياق شرح ابن قتيبة لمنهجه فى (الشعر والشعراء) يقول : « ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيل من قلّد أو استحسّن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدّم منهم بعين الجلالة لتقدّمه ، وإلى المتأخّر بعين الاحتقار لتأخّره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظّه ووفّرت عليه حقّه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدّم قائله ويضعه فى متخيره ، ويرذل الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه أو أنه رأى قائله .

ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده فى كلّ دهر ، وجعل كلّ قديم حديثاً فى عصره .. فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدّون محدّثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممتُ بروايته . ثم صار هؤلاء قدماً عندنا بيعدّ العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا » (٢) .

وباستثناء بعض ملاحظات شكلية فإنّ أحداً لا يستطيع إلا أن يوافق على ما جاء فى النصّ عن مبدأ ابن قتيبة فى عدم التقليد فى الاختيار - وهو غير داخل فى اهتمامنا هنا - إلى الحديث عن التسوية بين المحدثين والقدماء ، ورفض مسلك أولئك الذين فضّلوا القديم لمجرد قدمه ، واسترذلوا الحديث لمجرد حداثة ، وهو المسلك الذى لم

(١) الوساطة للجرجاني ص ٥١ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٦٢ ، ٦٣ .

ينسبه ابن قتيبة إلى أحد بعينه ، وإنما ذكر أنه وجد من العلماء من يفعل ذلك .

أما الحديث عن جرير والفرزدق والأخطل وتسميتهم محدثين ، فقد نسبه مباشرة إلى صاحبه أبي عمرو بن العلاء ، مغفلاً رآويه الوسيطين : الأصمعي والجاحظ ، وقد أوردته تأييداً لما ذهب إليه من أن كل قديم كان محدثاً في وقته ، كما أن كل محدث سيصير بمرور الوقت قديماً ، وهي المقدمة التي رتب عليها القول بضرورة التسوية في الحكم بين المحدثين والقدماء .

وإلى هنا والحديث طبعي ومنطقي : ناقد يريد أن يقدم لبعض الأصول النقدية ، كوجوب الاستقلال في الرأي وعدم التقليد ، والتزام الحياد وعدم التحيز أو العصبية لعصر على حساب عصر ، ويريد - في نفس الوقت - أن يروج لمنحاه ذلك ، وأن يسلط عليه المزيد من الأضواء ، فتوسل إلى ذلك بدعوى التفرد ومخالفة التيار السائد من تقليد الآخرين في الاختيار والحكم ، والانحياز إلى بعض العصور ضد بعض ، فكان ما صرح به من وجود من يقلد في الاختيار ، ومن ينحاز في الحكم لصالح القديم على حساب الحديث ، ليحجى دوره في القول بأن القدم والحداثة أمران نسبياً ، وكأنهما وجهان لعملة واحدة ، إذ كل قديم كان محدثاً ، وكل محدث سوف يصبح قديماً ، وهاهم أولئك الذين نعدّهم قدماءً - مثل جرير والفرزدق والأخطل - كانوا في نظر أبي عمرو بن العلاء محدثين ، كما كانوا مجيدين إلى الحد الذي جعله يفكر في رواية أشعارهم .

هذه ترجمة أرجو أن تكون أمينة للسياق الذي استخدمت فيه إحدى روايتي الأصمعي عن موقف أبي عمرو من الإسلاميين ، وليس في هذا السياق ما يشير التساؤل باستثناء الجزء الأخير والذي يفيد أن أبا عمرو قد همّ برواية أشعارهم ، ولكنه - كما يؤكد اتجاه الدلالة - لم يفعل .

ونترك ابن قتيبة مؤقتاً ، ونعبر على نص القاضي الجرجاني - مؤقنا أيضاً - لنصل إلى ابن رشيقي - الشارح الآخر لخبري الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء - قال ابن رشيقي :

« كل قديم من الشعراء فهو محدثٌ في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد أحسن هذا المولد حتى هممتُ أن أمرَ صبياننا بروايته ، يعنى بذلك شعرَ جرير والفرزدق ، فجعله مولداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعدُّ الشعر إلا ما كان للمتقدمين . قال الأصمعي : (جلستُ إليه ثمانى حجج فما سمعته يحتج ببيتِ إسلامي) ، وسئل عن المولدين فقال : (ما كان من حسنٍ فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيحٍ فهو من عندهم ، ليس النمطُ واحداً ، ترى قطعةً ديباج وقطعةً مسيح وقطعةً نطع) .

هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه ، كالأصمعي وابن الأعرابي ، أعنى أن كل واحدٍ منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم ، وليس ذلك إلا لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ، ثم صارت لاجاة .

فأما ابن قتيبة فقال : (لم يقصر الله الشعرَ والعلمَ والبلاغة على زمنٍ دون زمن ، ولا خصَّ قوماً دون قوم ، بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كلِّ دهر ، وجعل كلَّ قديم حديثاً في عصره .

ومما يؤيد كلام ابن قتيبة كلامُ علي رضي الله عنه : (لولا أن الكلام يُعاد لنفد) ، فليس أحدنا أحقَّ بالكلام من أحد ، وإنما السبق والشرف معاً في المعنى على شرائط تأتي بها فيما بعد ... وقول عنتره :

* هل غادرَ الشعراء من متردِّم *

يدلُّ على أنه يعد نفسه محدثاً قد أدرك الشعرَ بعد أن فرغ الناسُ منه ولم يغادروا له شيئاً ، وقد أتى في هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدِّم ولا نازعه إياه متأخر ، (١) .

لقد أطلنا في نقل رواية ابن رشيقي ، أو - بعبارة أخرى - نقل ما قام به من تليفيق بين رواية الأصمعي عن مسلك أبي عمرو و كلامه ، ورواية ابن قتيبة وتوظيفه لنفس الكلام . وهنا نلاحظ :

١ - أن ابن رشيقي قد بدأ من حيث انتهى ابن قتيبة ، إذ بدأ بتقرير النتيجة التي كان قد وصل إليها ناقد القرن الثالث ، وهي أن كل قديم كان محدثاً في زمانه و كل محدثٍ سيصير فيما بعد قديماً .

٢ - استشهد على ذلك - مثل ابن قتيبة - بما نسب إلى أبي عمرو من تسمية جرير والفرزدق محدثين - أو (مولدين) كما هي عبارة ابن رشيقي - وأضاف مفسراً : إن أبا عمرو قد وصفهم بهذه الصفة بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين .

٣ - شفع ذلك بما ذكره الأصمعي من أنه جلس إلى أبي عمرو عشر حجج - أو ثمانى حجج كما اختار ابن رشيقي - فما سمعه يحتج ببيت إسلامي ، كما أضاف كلاماً آخر لأبي عمرو يحمل وصف شعر المحدثين بالتفاوت ، وأنهم سبقوا إلى كل ما هو حسن . ويأيراد ابن رشيقي لرواية الأصمعي في عدم احتجاج أبي عمرو بالإسلاميين مع إضافة أنه (كان لا يعد الشعر إلا للمتقدمين) يكون قد فصل ما أجمله ابن قتيبة ، ووسم ما تركه غفلاً ناقد القرن الثالث الذي لم ينسب مسلك تفضيل القديم واسترذال الحديث إلى أحد ، فجاء ابن رشيقي ليحكم إصاق ذلك المسلك - بدلالته التي اختارها ابن قتيبة - إلى أبي عمرو .

٤ - تطوع ابن رشيقي بعد هذا بتسمية ذلك المسلك (مذهباً) ، ثم أضافه إلى (أبي عمرو وأصحابه) الذين عدّ منهم الأصمعي البصري ، وابن الأعرابي الكوفي .

٥ - انطلاقاً من ذلك قام بإحكام المضادة بين موقف ابن قتيبة والموقف الذي نسبه إلى أبي عمرو وأصحابه ، موقف التعصب للقدماء واختصاصهم بالشاعرية والفضل ، إذ نقل قول ابن قتيبة : (لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ... بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره) .

٦ - قام بإضافة بعد آخر إلى دلالة كلام ابن قتيبة ، إذ حمله معنى الدفاع عن قدرة المحدثين على الابتكار والسبق ، وذلك عندما أورد - على سبيل التأييد لابن قتيبة - كلمة علي - رضى الله عنه - (لولا أن الكلام يُعادُ لَنفدَ) مفسراً لها بقوله : « فليس أحدنا أحقّ بالكلام من أحد ... » وقول عنتره : (هل غادرَ الشعراءُ من متردّم) يدل على أنه يعد نفسه محدثاً قد أدرك الشعرَ بعد أن فرغ الناسُ منه ولم يغادروا له شيئاً ، وقد أتى فى هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدم .. وعلى هذا القياس يحمل قولُ أبي تمام :

يقول من تفرعُ أسمعهُ .: كم تركَ الأولُ للآخرِ

فنقضَ قولهم (ماترك الأولُ للآخر شيئاً) ، (١) .

وكان ابن رشيق يإيراده لهذه الأقوال فى تأييده لما فهمه من كلام ابن قتيبة قد أحكم إلصاقِ التهمة بـ (أبى عمرو وأصحابه) - تهمة العصبية على المحدثين - مضيفاً إليها تهمةً أخرى هى إنكارُ قدرة أولئك المحدثين على الابتكار والإتيان بالجديد ، وهو ما عارضه بكلام علي - رضى الله عنه - وصنيع عنتره وبيت أبى تمام .

كيف ضمُّ ابنُ رشيق كلاً من الأصمعيّ وابن الأعرابي (ق ٢ ، ٣) إلى أبى عمرو بن العلاء ليكون منهم ذلك الثلاثي المتعصب - فى رأيه - على المحدثين؟ يبدو أن الدور هنا كان للقاضى الجرجاني (ت ٣٦٦) الذى يقف من الناحية التاريخية فى منتصف المسافة بين ابن قتيبة (ت ٢٧٦) وابن رشيق القيروانى (ت ٤٥٦) والذى كان - رغم ثقافته واتزان شخصيته - كان مندفعاً إلى المبالغة فى دعوى تعصب النقاد على المحدثين ، كسبب عام يفسر ما تصوّره من تعصب بعضهم على المتنبى .

يقول الجرجاني : « وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهجُ بعيب المتأخرين » . ثم يورد ما قيل عن استحسان الأصمعي بيتين لإسحاق الموصلى على أنهما لبعض الأعراب ، ثم رجوعه عن الاستحسان إلى الطعن عليهما حين علم أنهما لإسحاق . كما يورد خبراً آخر عن مسلك مماثل لابن الأعرابي مع

أبيات لأبي تمام ، ثم يقول :

« وقد بعدت بهم العصبية في ذلك إلي تناول بعض المتقدمين ، زعم الأصمعي أن العرب لا تروى شعر أبي دؤاد وعدى بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية ، وكيف يكون ذلك ! وهذا معاوية يفضل عدياً على جماعة الشعراء ، وهذا الحطيفة يُسأل : من أشعر الناس ؟ فيقول : الذي يقول ، وأنشد لأبي دؤاد ، . (ثلاث أبيات) (١) .

هكذا يبدو أن القاضي الجرجاني كان وراء ما ذهب إليه ابن رشيقي من ضم الأصمعي وابن الأعرابي إلى أبي عمرو ليكون من الثلاثة فريقاً ينسب إليه (مذهباً) أطلق عليه : (مذهب أبي عمرو وأصحابه) ، وهو مذهب أساسه التعصب على المحدثين ، « ثم صارت لجاجة » كما يقول ابن رشيقي .



ومن الواضح أن الدارسين في العصر الحديث قد نظروا إلى صورة الموقف بعيني ابن رشيقي (الذي استوعب حكايات القاضي الجرجاني) ، وحصلوا معلوماتهم عن قدامى الرواة واللغويين من خلال فهمه - أي فهم ابن رشيقي - لكلام ابن قتيبة وتوظيفه لما رواه الأصمعي عن أبي عمرو من عدم احتجاجه بأشعار الإسلاميين .

صنع ذلك طه حسين فقال : « وكان أبو عمرو بن العلاء يروى كارهاً شعر جرير ، لأن هذا (المولّد) كان مجيداً » (٢) ، وهي رواية بالمعنى لا تخلو من اجتهاد ، ولكنها تعتمد صياغة ابن رشيقي ، إذ إنه هو الذي استخدم كلمة (المولّد) بدلاً من (المحدث) التي جاءت في الرواية الأصلية .

وصنع نفس الشيء طه إبراهيم في قوله : إن « أخص الناس الذين كانوا يتعصبون للقدماء ، ولا يكادون يُقرّون بإحسان لمحدث هم النحويون واللغويون ، فأبو عمرو بن العلاء شيخهم وأسنتهم كانت ذهنيته جاهليةً وتعصبه شديداً للجاهليين فلا

(١) الوساطة ٥٠ ، ٥١ .

(٢) حديث الأربعاء ٦ / ٢ .

يرى الشعرَ إلا لهم ولا يرى مَنْ بعدهم شيئاً ، وغالى في ذلك مغالاةً صرفته إلى النظر إلى المتقدم بعين الجلالة لا لسبب إلا لأنه متقدم ، والنظر إلى المتأخر بعين الاحتقار لا لسبب إلا لأنه متأخر ... وحتى قال في أشعار كبار الإسلاميين : (لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته) (١) .

ومن اليسير أن نلاحظ عملية التلفيق بين الرواية الأصلية ورواية ابن قتيبة وتوجيه ابن رشيقي ، مع وضوح توجيهات الأخير بدرجة أكبر ، نجد ذلك في قول طه إبراهيم عن تعصب أبي عمرو للجاهليين : (فلا يرى الشعر إلا لهم) وهو مضمون قول ابن رشيقي (وكان لا يعد الشعر إلا للمتقدمين) ، ثم هو ينسب إلى أبي عمرو صراحة النظر بعين الجلالة إلى المتقدم وبعين الاحتقار إلى المتأخر ، وهي نسبة لم يقل بها ابن قتيبة نفسه ، الذي اقتصر على القول بأنه وجد من علمائهم من يستجيد .. ومن ... من غير أن ينص على أحد بعينه ، وإنما فعل ذلك ابن رشيقي على نحو واضح مضيئاً نفس المسلك إلى الأصمعي وابن الأعرابي . كذلك ربط طه إبراهيم بين عدم احتجاج أبي عمرو بشعر الإسلاميين ووصفه لجرير والفرزدق بأنهما محدثان ، وهو في ذلك أيضاً متابع لابن رشيقي في تحريفه لدلالة الخبر عند ابن قتيبة .

ويبدو أن أحمد أمين قد أقر النتيجة التي توصل إليها ابن رشيقي في قوله : (هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعي وابن الأعرابي) يعنى في التعصب للقديم ، فقال أحمد أمين : (وقد تزعم معسكر الدعوة إلى القديم فريق من اللغويين أمثال الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء وابن الأعرابي) ، ثم يضيف : إن دعوتهم قد نجحت (وساد في ذلك العصر تقديس الشعر الجاهلي وكل شيء جاهلي) (٢) ، وكما نرى فإن حديثه هنا صدى لما قاله ابن رشيقي عن أبي عمرو من أنه (كان لا يعد الشعر إلا للمتقدمين) ، تماماً مثلما كان حديثه عن (معسكر الدعوة إلى القديم) صدى لحديث ابن رشيقي عن (مذهب أبي عمرو وأصحابه) .

(١) تاريخ النقد الأبي عند العرب ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي - مجلة الثقافة عدد ١٩ - مايو ١٩٢٩ ص ٧ ، ٨ .

وكما سبق القول فإننى استعمل كلمة (الأساس) مجازاً، إذ هو - فى الحقيقة - لا وجود له من واقع كلام أصحابه الحقيقيين وواقع السياقات التى وردت فيها النصوص التى أقيم عليها. ولنبداً فى مناقشته ببعض الملاحظات السريعة، ولنذكر قبل هذه الملاحظات ما سبق أن سجلناه من قيام هذا الأساس على ثلاثة نصوص، اثنان منها مرويان عن أبى عمرو بن العلاء - رواهما الأصمعى - وثالثها صادر عن القاضى الجرجانى .

لنبداً بما رواه الأصمعى من قول أبى عمرو : (لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت أن أمر فتياننا بروايته، يعنى جريراً والفرزدق وأشباههما)، فنلاحظ:

١ - أن عبارة (حتى لقد هممت) تدل على أنه لم يفعل، إذ (الهمُّ بالفعل) خلاف الفعل، وهى عبارة تذكّر بعبارة البيت الذى قاله أحد الثائرين على عثمان رضى الله عنه :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ، وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي . . . تَرَكْتُ عَلَى عِثْمَانَ تَبْكِي حَلَالُهُ

وهى دلالة أبعد ما تكون عن الحقيقة لما رأيناه - فى الفصل الثانى من الباب الثانى - من كثرة رواية أبى عمرو لأشعار الإسلاميين ومن بعدهم .

٢ - أن (الهمُّ) فى الرواية الأصلية - وهى غير رواية ابن قتيبة ورواية ابن رشيقي - متعلق بأمر (فتيانهم) برواية شعر أولئك المحدثين (لقد هممت أن أمر فتياننا) وليس بأبى عمرو نفسه (هممت بروايته) كما هى رواية ابن قتيبة، ولا بـ (صبيانهم) (هممت أن أمر صبياننا) كما هى رواية ابن رشيقي . كل ذلك يوحى بأن الخبر شابه كثير من الافتعال والتكلف .

٣ - فى الرواية الأصلية استخدمت كلمة (محدث)، وتابعتها ابن قتيبة، واستبدل بها ابن رشيقي كلمة (مولد)، وهو على أى حال خلاف غير ذى بال، إذ شاع استخدام كل من الكلمتين مكان الأخرى، ومع ذلك يثير وصف أبى عمرو لكل من الفرزدق وجرير بأنه (محدث) أو (مولد) مشكلة غير سهلة، فمن المعروف أن أبى عمرو بن العلاء قد توفى فى العقد السادس من القرن الثانى الهجرى، وقد

ذكر أنه توفي سنة ١٥٩ أو سنة ١٥٤ ، أما الفرزدق وجريير فقد توفيا سنة ١١٠ ، ومعنى هذا أن وفاتهما سابقةً على وفاة أبي عمرو بحوالي ثلاث وأربعين سنة على الأقل ، وقد يصل الفرق إلى ثمانٍ وأربعين سنة على القول الآخر .

والسؤال هنا : أيكون من المناسب - مع هذا الفارق في السن - أن يُطلق أبو عمرو على كل من الشعارين صفةً (المحدث) ؟ ليس هذا فحسب ، بل إن صياغة الخبر تشتمل على كثير من أمارات الافتعال والتصنع ، فإلى جانب تركيب العبارة : ، حتى لقد هممت بروايته ، حتى لقد هممت أن أمر صبياننا بروايته) ، هناك استعمال اسم الإشارة للقريب (هذا) الذي يحمل في هذا السياق بالذات دلالةً على هوان الشأن ودنو المنزلة ، وهي - كلها - وسائلٌ صناعية ألصقت فيما أحسب ، أو نسجت حول خبر له - في ظاهره - صلةٌ بدعوى التعصب على المحدثين ، وهو - في حقيقته - لاعلاقة له بالمسألة من قريب أو بعيد .

بل إن من اللافت في أعقاب تلك الرواية عن توقف أبي عمرو عن رواية شعر (هذا المحدث) وعدوله عن أمر (فتيانه) أو (صبياننا) بروايته ... أن يتطرق الحديث إلى علم أبي عمرو وصدقه وبلاغته ، والخبر مروى هذه المرة عن أبي عبيدة : « وفي أبي عمرو بن العلاء يقول الفرزدق :

مازلت أفتح أبوابا وأغلقها .: حتى أتيت أبا عمرو بن عمّار

قال (أبو عبيدة) : فإذا كان الفرزدق - وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم - يقول فيه مثل هذا القول ، فهو الذي لا يشك في خطابته وبلاغته . وقال يونس : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس ، (١) .

لنلاحظ الآن كيف كان أبو عبيدة - معاصر الأصمعي - كيف كان ينظر إلى الفرزدق ، وكيف استشهد بشعره في أبي عمرو بن العلاء على مكانة أبي عمرو من العلم والبلاغة .. إلخ ، ولنتذكّر وصفه للفرزدق بأنه (راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم) ، هذا الفرزدق نفسه - الذي سبقت وفاته وفاة أبي عمرو بثلاث وأربعين

سنة على الأقل ، هو الذي جعلته رواية الأصمعي محدثا لآبائه أبو عمرو برواية شعره .

أليس في ذلك ما يشير التساؤل - وربما الشبهات - حول رواية الأصمعي ؟ خاصة إذا ذكرنا أن الأصمعي هو صاحب القول بأن تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة وأن جريراً لم يسرق سوي نصف بيت ٢٠ .

لنتوقف الآن عند هذا الحد من التساؤل وقد انهار تماماً أحد أركان ذلك الأساس المتوهم للتصور القديم ، ولا يعود سبب انهياره إلي ما قمنا به هنا من التحليل والنقد الداخلي للخبر وصياغته فحسب ، وإنما يعود أيضاً إلى ما مرّ بنا من الأخبار الكثيرة المتواترة عن قيام أبي عمرو برواية شعر ذلك الجيل وإنشاده ، والتعلم من شعرائه واستفتائهم في قضايا الشعر واللغة والجلوس منهم مجلس التلميذ من الأستاذ ، ذلك فضلاً عن رواية أشعار من بعدهم .

ونأتى بعد ذلك إلي النصّ الثاني من نصّي أبي عمرو اللذين رواهما الأصمعي وقد حاز شهرةً لعلها تفوق شهرة النصّ السابق ، ولاذّ به من الدارسين المحدثين - كما رأينا - جمعٌ غفير وجدوا فيه جميعاً البرهان الساطع على تعصّب أبي عمرو وفريقه - الأصمعي وابن الأعرابي - ضدّ الشعراء المحدثين ، خاصة أن هؤلاء الدارسين قد أخذوا رواية الأصمعي عن صنيع أبي عمرو وفقاً لما وجهها إليه ابن قتيبة ثم ابن رشيقي ، مغفلين تماماً سياقها الأول الذي وردت خلاله الرواية مرفوعةً إلى صاحبها بطريق مباشر . وقد سبق لنا في بداية الفصل إيراد النصّ ، ولكننا تعمّدنا أن نصنع كما صنع الدارسون المحدثون في تجريد النصّ من سياقه الأول ومناسبته الحقيقية ، لنكشف إلى أي مدى يخطئ المتصدّي لنصوص التراث إذا ما أهمل الإحاطة الكافية بظروف هذه النصوص وملابساتها .

لقد وردت رواية الأصمعي عن عدم احتجاج أبي عمرو بأشعار الإسلاميين في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ في أثناء ذكره لعدد من الخطباء والنسّابين والعلماء على هذا النحو :

« ومن النسّابين من بنى العنبر ثم من بنى المنذر : الحنّف بن يزيد بن جعونة ... وكان أبو بكر رحمه الله أنسب هذه الأمة ، ثم عمر ، ثم

جبير بن مطعم ثم سعيد بن المسيب ، ثم محمد بن سعيد بن المسيب .. ومن النسائيين العلماء : عتبة بن عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام... ومن بني حرقوص : شعبة بن القلم ... ومن بني أسيد بن عمرو بن تميم : أبو بكر بن الحكم ، كان ناسباً راوية شاعراً... ومنهم معلل بن خالد ، أحد بني أنمار بن الهجيم ، وكان نساباً علامة راوية صدوقاً .. ومنهم من بني العنبر ثم من بني عمرو بن جندب : أبو الخنساء عباد بن كسيب ، وكان شاعراً علامة وراوية نساباً ... ومنهم : عمرو بن خولة ، كان ناسباً خطيباً وراوية فصيحاً ... وكان يحيى بن عروة بن الزبير ناسباً عالماً ... ومنهم ثم من قريش : محمد بن حفص ، وهو ابن عائشة ...

ومن بني خزاعي بن مازن : أبو عمرو وأبو سفيان ابنا العلاء بن عمار بن العريان . فأما أبو عمرو فكان أعلم الناس بأمر العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان ، حدثني الأصمعي قال : جلست إلى أبي عمرو عشر حجج ما سمعته يحتج بي بيت إسلامي ... وحدثني أبو عبيدة قال : كان أبو عمرو أعلم الناس بالغريب والعريية وبالقرآن والشعر وأيام العرب وأيام الناس ... وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية ...

وكان عقيل بن أبي طالب ناسباً عالماً بالأمهات ... ومن رؤساء النسائيين : دغفل بن حنظلة أحد بني عمرو بن شيبان ... ومن نسائيي كلب : محمد بن السائب ، وهشام بن محمد بن السائب ، وشرقي بن القطامي ... (١) .

والنص طويل ، يخلط الجاحظ في أجزاء كثيرة منه حديث الخطباء بالقضاة بالعلماء بالرواة والنسائيين ، ولكننا اجتزأنا باقتباس مجاله الأليق بخبر الأصمعي ، ما قبله وما بعده ، يدور كله على ذكر النسائيين والعلماء بأخبار الناس والوقائع ، فلا عجب أن يسبق النص بالحديث عن علم أبي عمرو (بأمر العرب ، مع صحة سماع

(١) البيان والتبيين ١ / ٣١٨ - ٣٢٢ ، وقد حذفنا - كما هو واضح - كثيرا من مواضع الاستطراد .

وصدق لسان) ، وأن يلحق بالحديث عن علمه (بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس) ، ثم يتلو ذلك ما يؤكده رسوخه في علمه بالأخبار والأنساب والأيام ، خاصة القديم منها ، وذلك بالقول بأن (عامة أخباره كانت عن أعراب أدركوا الجاهلية) .

وفي تصوّري أن دلالة الخبر - بعد أن أوردناه في سياقه الأصلي - واضحة تمام الوضوح ، فالحديث عن رجل نسبة إخباري مؤرخ ، عدته رواياته وما يحفظه من أخبار العرب وأخبار وقائعها ، ووعاء ذلك كله الشعر القديم ، ثم ما يظفر به من أخبار يفضل فيها على نحو دائم علو المصدر ، ومن هنا كان اعتزازه باستقاء أخباره من أعراب قد أدركوا الجاهلية ، ومن هنا أيضا يمكن أن نفهم مسلكه في عدم الاحتجاج بالشعر الإسلامي - إن صحّت الرواية - في أي مجال ؟ ليس في مجال النقد والحكم الفني بحال من الأحوال ، وإنما كان ذلك في مجال التاريخ والأنساب والوقائع ، وليس ثمة إشارة من قريب أو بعيد إلى حكم فني أو تحييز - من زاوية فنية - لعصر ضد عصر آخر .. وما أشار إليه أستاذنا شوقي ضيف في نصه الذي نقلناه في أول الفصل السابق من أنه كان من الضروري أن يفرق أولئك العلماء (بين الصحة اللغوية والصحة الفنية) كان مراعى لديهم بالفعل .

كان الهدف من رواية الشعر القديم متنوعاً ، كان الشعر القديم نصوصاً فنية تُروى ، شأنها شأن شعر المحدثين ، لإشباع الذوق الفني ، يشهد بذلك ترتيب ابن سلام لطبقاته ، وكان الشعر القديم - دون شعر المحدثين - متوناً لغوية صالحة للاحتجاج في ميدان اللغة والنحو ، فروى لهذه الحاجة أيضا ، وكان وثائق تحمل أخبارهم وأنسابهم ووقائعهم ، فروى كذلك لهذه الحاجة أيضا دون شعر المحدثين .

- وليست بنا حاجة بعد الذي قدمناه - في الفصل الثاني من الباب الثاني - إلى تقديم المزيد عن احتفاء ذلك الفريق من اللغويين والرواة بشعر المحدثين وتنويههم بأصحابه وتفضيلهم لهم أحيانا على فحول الأقدمين . ولم يكن مما يقدر في ذلك الشعر من الوجهة الفنية أنه لا يصلح مادة للاحتجاج في مجالات النحو واللغة والتاريخ والأنساب ، تلك المجالات التي تفرّد الشعر القديم بتلبية حاجاتهم فيها .

وليس من ذنب أولئك الفريق أن الدارسين المحدثين لم يتبينوا تعدد مهامهم ،

وبالتالي اختلاف مواقفهم وتفاوت قيمة النصوص عندهم تبعاً لاختلاف حاجاتهم منها. كما أنه ليس من ذنبهم أيضاً اختلاط الأمر على بعض القدماء أنفسهم ، وهم - كما سبق القول - ابن قتيبة والقاضي الجرجاني وابن رشيقي القيرواني ، فهؤلاء الثلاثة مسئولون عن الإيهام بوجود هذا الأساس الزائف الذي قام عليه القول بتعصب قدامى النقاد من الرواة واللغويين ضد شعر المحدثين .

أما ابن قتيبة فقد عزل الخبر المروي عن أبي عمرو - إن كان وقع منه فعلاً - عن سياقه الذي ورد فيه ، سياق الاعتزاز في ميدان التاريخ والأنساب واللغة والنحو بشعر الأقدمين ، وأورد النص في سياق يوحى بتعصب أبي عمرو على المحدثين ، وأنه المقصود بالإشارة إلى من يفضلون القديم لقدمه ويستردلون الحديث لحداثته .

وأما القاضي الجرجاني فقد أكد الدعوى وجمع عدداً من الأخبار عن نقداً جزئية لنفر من اللغويين موجهة إلى بعض شعر محدث ، ثم عمم مسلك التعصب والاتهام به مرتداً به إلى الوراء ، فأولئك العلماء لا يتعصبون على المحدثين فحسب ، وإنما هم يتعصبون على القدماء أنفسهم ، وصدر عنه في ذلك ما يؤكد أن المسألة كانت غامضة في ذهنه تماماً نتيجة عدم إدراكه لتعدد مهام ذلك الفريق من الرواة واللغويين ، واختلاف مواقفهم من الشعر تبعاً لهذه المهام .

فلما جاء ابن رشيقي وجد الطريق معبداً بالفعل إلى التناقض وسوء الفهم ، فوجه إلى (أبي عمرو وأصحابه) تهمة التعصب على شعر المحدثين ، مستديلاً بعدم روايتهم له - مع روايتهم للشعر القديم - معترفاً في نفس الوقت بأن روايتهم للشعر القديم إنما كانت لحاجاتهم إلى الشاهد . ومعلوم أن رواية الشعر من أجل الحاجة إلى الشاهد في مجالات النحو واللغة والتاريخ والأنساب - حيث لا يصلح شعر المحدثين - مسلك علمي موضوعي ، وهو - لذلك - لا علاقة له بالتعصب .

على أن ابن قتيبة يعدُّ مسئولاً إلى حد كبير عن الفكرة التي شاعت عن وجود فريق من النقاد يزدرى الشعر المحدث ويحتقره لتأخر زمنه . وقد يكون فيما أعلنه من إهمال البعض لرواية الشعر الحديث شيء من الصحة ، لكن ذلك كان قاصراً على مجال الاستشهاد اللغوي ، فلم يكن اللغويون يهتمون في البحث عن شواهدهم بالعنصر الفني في الشعر ، وإنما كان مهمهم توافر عنصر النقاء - كما

ذكرنا - وهذا واضح من تصريح للأصمعي بأن الشاعر ابن أذينة شاعر ثبت من (طبقة) ابن هرمة وإن كان أدنى منه في درجة الشاعرية ، فالطبقة هنا تعني المنزلة التي يحتلها الشاعر من حيث درجة الاطمئنان إلى إمكان الاحتجاج بشعره .

لكن حديث ابن قتيبة كان عاماً فلم يحاول التفرقة بين المجالين - إن كان قد تبينهما - وهذا التعميم ، الذي يؤدي إلى سوء الفهم ، واضح بشدة عند القاضي الجرجاني ، ولعله المسئول الأول عن توجيه تهمة التعصب ضد الشعر الحديث إلى متقدمي اللغويين والنحاة في القرنين الثاني والثالث أو - على الأقل - لعله مسئول عن تقرير التهمة وتفصيلها وتوسيع نطاقها ودفعها خطوة أخرى أكثر مما فعل ابن قتيبة الذي لم يتعد الإدلاء ببعض الأقوال العامة المطاطة ، والمضللة في نفس الوقت ، فلقد صرح ابن قتيبة بأنه وجد من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويرذل الشعر الرصين لتأخر زمنه ، ثم قال : إن كل قديم كان محدثاً في وقته ، واستشهد على هذه الحقيقة بما كان يقوله أبو عمرو بن العلاء عن جرير والفرزدق ووصفه لهما بأنهما محدثان ، ثم قمص ابن قتيبة شخصية الرجل العادل الذي لا بغض من الشعر عنده تأخره ولا يعلى من شأنه تقدمه ، ووقف عند هذا الحد والتزم به فعلا في (الشعر والشعراء) (١).

على أن خطورة تصريح ابن قتيبة إنما تأتي - كما ألمحنا - من تعميمه لترك اللغويين لرواية الشعر الحديث في مجال الاحتجاج اللغوي على الموقف من الشعر الحديث في كل الميادين ، وذلك حين جعل من نفسه مدافعا ضد ما اعتبره تحكيما للزمن في الشعر .

فلما جاء القاضي الجرجاني راح يحدد الخصوم المحتملين الذين يريد أن يقوم بالوساطة بينهم وبين المتنبي ، فرأى أن « خصم هذا الرجل فريقان : أحدهما يعم بالنقص كل محدث ، ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهلي ، وما سلك به ذلك المنهج ، وأجرى على تلك الطريقة ، ويزعم أن ساقية الشعراء رؤبة وابن هرمة وابن ميادة والحكم الحضري » (٢) . ورأى أن أصحاب هذه النزعة الذين وضعوا المتنبي مع المحدثين فجملوا على شعره ضمن حملتهم على الشعراء المحدثين جملة أقل ظلماً من

(١) الشعر والشعراء ١ / ٦٠٦ .

(٢) الوساطة ٤٩ .

الفريق الثاني من المحصوم ، وهم الذين يعترفون للمحدثين - مثل أبي تمام ومسلم ومن بعدهما - بالفضل ، ولكنهم ينكرون ذلك على المتنبي بالذات ، وهو واحد من المحدثين ، وهذا الفريق هو الذي يريد القاضي مجادلته والاحتجاج لديه .

ونحن إنما نقدم هذا التمهيد لنبين كيف كان القاضي لا يزال يرى أن هناك من رفض شعر المحدثين على أساس زمني مستغلا ما قالوه عن ختم الشعر بعدد من الشعراء اختلفوا فيهم وفي الزمن الذي انتهى عنده الاحتجاج بالشعر - كما قدمنا - ثم راح يفصل رأيه في تعصب الفريق الأول : « فما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين » (١) . ثم يمثل بما دار بين الأصمعي وإسحاق الموصلي ، وما يحكى عن صنيع ابن الأعرابي بشعر أبي تمام . ثم راح يبائع في مدتهمة التعصب تلك ، فجعلها وراء رفض الأصمعي الاحتجاج بشعر عدي بن زيد وأبي دؤاد الإيادي ، ويتساءل القاضي : « كيف يكون ذلك وهذا معاوية يفضل عدياً على جماعة الشعراء ، وهذا الخطيئة يسأل : من أشعر الناس فيقول : الذي يقول : (وينشد لأبي دؤاد ثلاثة أبيات) (٢) .

ونسى القاضي أن الأصمعي نفسه كان معجباً بالشاعرين ، وأنه تمثل كثيرا - في غير مجال اللغة - بشعر عدي بن زيد علي وجه الخصوص ، وأن رفض الاحتجاج بلغة الشعر شيء مختلف تماماً عن رفض الشعر من الوجهة الفنية ، وهكذا يصير هذا الموقف ، كما صورته القاضي المرحماني وكما فهمته ، مدعاة للتساؤل ، فهل كان الأصمعي ممن يتعصبون للقديم ضد الحديث ؟ أم أنه كان يتعصب ضد الحديث والقديم أيضاً ؟

والواقع أنه كان في مقدور القاضي أن يتبين حقيقة الموقف لو أن تفكيره لم يقع تماماً تحت ضغط ماتصوره من تعصب أولئك الفريق من اللغويين والذي أذاه إلى عدم التفرقة بين رفض الاحتجاج بالشعر ، ورفض الشعر من زاوية فنية ، وهذا ما يتضح من جعله رفض الأصمعي للاحتجاج اللغوي بشعر عدي وأبي دؤاد نوعاً من التعصب ضد الشاعرين .

(١) الوساطة ٥٠ .

(٢) نفس المرجع .

ولقد كان ابن رشيقي - في العمدة - أبعد نظراً من الجرجاني ، إذ فطن إلى أن تقديم اللغويين للشعر القديم إنما كان لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون (١) .

وهذه نظرة صحيحة لا ضارَ عليها ، غير أنه لم يستطع أن يتحرر على طول الخط من الفكرة الشائعة عن تعصب اللغويين ضد الشعر الحديث ، وضد كل ما هو جديد في الشعر ، أكثر من هذا نراه يربط بين تلك الفكرة والقول بعدم قدرة المحدثين على الابتكار ، لأن القدماء قد استنفدوا المعاني ولم يعد أمام المحدثين شيء يستكرونها . ونحن الآن لا نعرض رأي ابن رشيقي في القضية وإنما نعرض فهمه لموقف اللغويين الأوائل من الشعر الحديث ، فلقد تسلّم الخيط المضلل من سابقه أمثال ابن قتيبة والقاضي الجرجاني ، ثم راح يشعب القضية ويفرغها ، ناسياً أنه اعترف في البداية بأن تفضيل اللغويين للشعر القديم كان بسبب الحاجة إلى الشواهد النقية في اللغة .

بعبارة أخرى ، كانت نظرة ابن رشيقي مستقيمة إلى حد بعيد عندما قرر أن رواية اللغويين والنحويين - أمثال أبي عمرو والأصمعي وابن الأعرابي - للشعر القديم كان بسبب حاجتهم إلى الشاهد والمثل ، وأن الشعر القديم هو المصدر الموثوق به في هذا المجال ، لكنه مالبث أن عرض في مقابل تلك النظرة موقفاً آخر ، هو الذي وقفه ابن قتيبة في مقدمته للشعر والشعراء من وجوب التسوية في الإنصاف والتقبل بين القديم والحديث ، فبعد أن يذكر موقف أبي عمرو في عدم الاحتجاج بالشعر الإسلامي ، يقول : « فأما ابن قتيبة فقال : لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوماً دون قوم ، بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره » (٢) .

وهكذا يجعل ابن رشيقي من دفاع ابن قتيبة عن المحدثين رداً على ما توهمه من رفض اللغويين لذلك الشعر في غير مجال الاحتجاج اللغوي ، وهو فهم خاطئ عزز به ما سبقه إليه ابن قتيبة والقاضي الجرجاني . ثم مالبث أن وقع في خطأ آخر حين أضاف إلى فهمه الخاطئ لموقف اللغويين القدامى من الشعر الحديث عنصراً آخر ،

(١) العمدة ١ / ٩١ .

(٢) العمدة ١ / ٩١ .

صور - بمقتضاه - أولئك القوم في صورة من يسلبون المحدثين القدرة على الابتكار والسبق ، وذلك حين أيدَ كلامَ ابنِ قتيبة السابق بنصِّ عن الإمامِ عليٍّ مؤداهُ أن إعادةَ الكلامِ حقٌّ للجميع : « فلولا أن الكلام يُعادُ لَنَفِدَ » ويقول إنه ليس أحدٌ أحقُّ بالكلام من أحدٍ ، وإنما السبقُ والشرفُ معاً في المعنى على شرائطِ نأتى بها فيما بعد .

ولاشك أن إيرادَهُ لكلمةِ عليٍّ - رضى الله عنه : « لولا أن الكلام يُعادُ لَنَفِدَ » تأييداً لدفاعِ ابنِ قتيبة عن المحدثين دليلٌ قاطعٌ على ربطِ ابنِ رشيقي بين الهجوم المزعوم من جانب اللغويين على الشعر الحديث وتعريه أصحاب ذلك الشعر من القدرة على الابتكار والسبق ، وكأنه رأى - بعد أن خلط ، ذون أن يشعر ، بين رفض اللغويين للشعر الحديث في مجال الاحتجاج اللغوي ، ورفض ذلك الشعر مطلقاً - كأنه رأى أن من أسباب ذلك الرفض المزعوم خلوه ذلك الشعر من عنصر الابتكار والسبق ، فراح يرد عليهم بكلام ابن قتيبة في وجوب قبول الجيد من القديم والحديث ، لأن الله لم يقصر الشعر على زمن دون زمن ، ثم راح يؤيد كلام ابن قتيبة بكلام عليٍّ في أن الكلام حقٌّ للجميع يستخدمونه دون أن يكون في استخدامه فضلٌ للأول على الآخر ، لأن الكلام محدودٌ ولولا أنه يُعادُ لَنَفِدَ ، وكان ابن رشيقي وقد رأى ابن قتيبة يؤكد وجوب إلغاء عامل الزمن في الحكم على الشعر رأى أن يؤكد هو الآخر أن في إمكان المتأخرين أن يُدعوا وأن يتكروا .

وعلى الرغم من أن نصَّ ابن قتيبة في حد ذاته ، وبدون ربطه بالسياق الذي أورده فيه ابن رشيقي ، يمثل مبدأ مقبولاً ، وأن عبارة الإمام عليٍّ التي أوردها ابن رشيقي أيضاً تمثل هي الأخرى أساساً هاماً من أسس استخدام اللغة ، فإن سوق هاتين العبارتين في سياق التعقيب والرد على ما يروى من رفض القدماء للشعر الحديث في ميدان الاحتجاج اللغوي قد أعطى للصورة طابعاً آخر ، حيث أبرز موقفين متعارضين ، وهو مادعّم فكرة تعصب اللغويين القدامى ضد الشعر الحديث ، بشكل واضح .

وعلى الرغم من ارتفاع غالبية الأصوات - إن لم يكن جميعها - منذ وقت مبكر ، بالتنويه بالشعر الحديث (١) ورغم أن رجلاً كالثعالبي أعلن - صراحةً - تفضيل

(١) راجع الفصل الثاني من الباب الثاني .

الشعر الحديث على الشعر القديم إلى حد الاعتقاد بأن تفوق الشعر وامتيازَه يتناسب تناسباً طردياً مع تأخر الزمن ، وعلى الرغم - أيضاً - من أن البلاغيين العرب ما لبثوا أن فتحوا باباً للحديث عما سموه (الاختراع) ضمن أبحاثهم في علم البديع ، وأن الحث على الابتكار والمطالبة بقول الجديد كان قويا ونشطا ، وأن رجلاً كان جنى يقول صراحة إن المولدين يُستشهد بهم في المعاني كما يُستشهد بالقدماء في الألفاظ (١) ، ورغم أن المتأخرين من البلاغيين قسموا علوم الأدب إلى ستة : اللغة والصرف والنحو ، والمعاني والبيان والبديع ، وقالوا إن الثلاثة الأولى يُستشهد عليها بكلام العرب وحدثهم دون الثلاثة الأخيرة ، فإنه يُستشهد فيها بكلامهم وكلام غيرهم من المولدين ، لأنها راجعة إلى المعاني ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم إذ هو أمر راجع إلى العقل ، ولذلك قبل من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحترى وأبي تمام وأبي الطيب (٢) ، على الرغم من ذلك كله ، وهو ما كان كافياً لتغيير الصورة القديمة التي فهمت من أقوال قدامى النقاد ، فإن الدارسين المحدثين ظلوا على ترديد القول بأن أولئك النقاد عارضوا الشعر الحديث وهاجموه بصفة عامة ، وأنهم ركزوا هجومهم بصفة خاصة على ما احتوى على بعض مظاهر التجديد ، وقبل هؤلاء الدارسون ما انحدر إليهم في بعض عبارات تفتقر إلى الدلالة القاطعة ، عن تحكيم الزمن في الشعر . ونسوا أن قول أولئك النقاد القدامى برفض الشعر الحديث بناءً على التأخر الزمني لا غير ، معناه أنهم يلقون أنفسهم ووجودهم ووجود عصرهم قبل كل شيء . فكثير منهم - مثل خلف والأصمعي - كان يحلو لهم أن يقولوا الشعر أحيانا (٣) ، ومع أن شاعريتهم لم تكن من النوع الممتاز ، فإن مجرد محاولتهم لقول الشعر تدل على أنهم كانوا يرون أن إله الشعر لم يحجب إلهامه عن الوجود بعد .

لقد رأينا اهتماما من أبي عمرو وخلف ويونس بتسجيل التشبيهات العقم - وهي التشبيهات التي لم يسبق أصحابها إليها - ولم تكن تلك التشبيهات التي سجلوها قاصرة على الجاهليين ، بل شارك فيها عدى بن الرقاع والراعي والطرماح وذو الرمة ،

(١) الخصائص ٢ / ٢٣٦ .

(٢) خزانة الأدب لابن حجة ٥ ، ٦ ، خزانة الأدب للبغدادي ١ / ٣ .

(٣) أغاني ١٥ / ١٢٥ .

وليس يعنينا هنا أصحاب هذه التشبيهات بقدر ما يعنينا هذا الاهتمام المبكر من ذلك الفريق من لغويي النقاد بتسجيل مظاهر النسيق عند الشعراء ، ولقد عقد الحاتمي في حلية المحاضرة فصلاً عن (السابق والمصلي) من الشعراء ، والفصل عبارة عن مجموعة من الأبيات والمعاني التي قرر متقدمو اللغويين أن بعض الشعراء سبقوا إليها ، وقد يكون الفصل منصباً على ما سبق إليه بعض الجاهليين - وإن بدا أن فيه نقصاً - ولكن هذا ليس محور نظرنا ، وإنما تنصب هذه النظرة أساساً على هذا التنبيه المبكر لكل ما هو جديد مبتكر ، والعمل على إحصائه وتسجيله ، وليس بعقل من قوم كان تفكيرهم على هذا النحو أن يرفضوا الشعر الحديث تحت دعوى أنه استحدثت مالم يكن موجوداً في الشعر الجاهلي ، أو تحت دعوى أنه لم يحظَ بلحظات من العصر (المقدس) للشعر العربي .

خاتمة

لقد وقفت وراء فكرة هذا البحث مجموعة من النصوص القديمة ، كان من أثر التنبه لها الشك فيما قيل حول مقاومة النقد العربي الخالص لشعر المحدثين والحركات التجديد في ذلك الشعر حتى القرن الثالث على الأقل ، وتبع هذا الشك مراجعة دقيقة بقدر الإمكان لكل ما أُتيح الاطلاع عليه من آراء النقاد في تلك الفترة ، مع محاولة الاستفادة - كلما أمكن - من مناهج علماء الحديث واللغة في توثيق النصوص ومقابلة بعضها ببعض والنظر في أحوال الرواة وأهوائهم .

ومع أن النتيجة التي انتهى إليها بدأت تتضح مبرأة من الشك منذ بدايات تلك المراجعة ، فإنه كان لابد من المضي في الشوط إلى آخره ، خاصة أن القول بمقاومة النقد العربي للشعراء المحدثين - وبالذات من عرفوا ببعض النزعات التجديدية - مسألة أصبحت من المسلمات بين دارسي ذلك النقد في الوقت الحاضر .

من هنا كانت ضرورة استعراض أهم الآراء وأوضحها فيما يتعلق بهذه المشكلة عند هؤلاء الدارسين ، وقد بدأ أن هناك ما يشبه الإجماع على هذا القول ، وحدث أيضا - وهذا هو الأخطر - أن ما أجمعوا عليه راح كل منهم يستغله على نحو خاص في تفسير ما بدأ له من الظواهر وكأنه معلول تلك العلة - أعني تعصب النقد العربي ضد الحدائث والتجديد .

وكان مما شجعهم على المضي في توجيه هذه التهمة إلى النقد العربي أن ظروف الأدب العربي ذاته - خاصة في العصور المتأخرة - كانت في اتجاه تأكيدها ، إذ حمل هذا الأدب كثيرا من سمات الاتباع والمحاكاة للنماذج الرائعة للمبدعين العظام في العصور الأولى ، وبدا ذلك وكأنه دليل دامغ على ثبوت التهمة فأصبحت - كما قلت - من المسلمات التي يبدأ منها دارسو هذا النقد لينتهوا بعد ذلك إلى

ما يشاءون من نتائج كثير ما يجانبها الصواب ، إذ لا يخفى أن المقدمات الخاطئة لا ترتب عليها إلا نتائج مماثلة .

وكان هذا النوع من النتائج ومحاولة تفويضها من أصعب ما تعرض له هذا البحث خاصة حين كانت النتيجة الواحدة تتخذ أوثاناً شتى بحسب الداهيين إليها .

وتتعدد النتائج المختلفة مرتبة على مقدمة واحدة ، وتتفاوت مواقف الدارسين ، ولكن الحقيقة تظل ثابتة كما هي ، ويتسبب ثباتها في كثير من المشاكل التي تعترض طريق القول بمعاداة النقاد العرب للجديد ، وأخطر هذه المشاكل ، وهي أقوى أدلتنا في نفس الوقت ، هذه النصوص الكثيرة والأخبار المتواترة التي توضح العكس ، أعني قبول النقد العربي لشعر المحدثين واستيعابه لمحاولات التجديد فيه .

ولما كانت هناك بعض النصوص القديمة مما يشير إلى وجود حركة نقدية حول بعض الشعراء من ذوى النزعات التجديدية ، كما أن بعضاً آخر يشير إلى عدم الاعتدال - في مجالات خاصة - بشعر المحدثين ، كان من الطبيعي أن نتعرض بالدراسة لحقيقة موقف النقد العربي من حركات التجديد ، وهو ما تفرع عنه الوقوف عند عددٍ من المصطلحات التي شاع استخدامها في النقد القديم مثل « عمود الشعر » و « المقاربة » في التشبيه والاستعارة و « الطبع » و « التكلف » وغيرها .

أما النوع الآخر من النصوص ، أقصد النصوص التي تشير إلى عدم الاحتكام - في بعض المجالات - إلى شعر المحدثين ، فقد تكفل ببيان حقيقتها الفصل الأول من الباب الرابع من البحث ، والذي أتضح منه دوران هذه النصوص حول عدم الاحتجاج بشعر المحدثين في ميدان النحو واللغة والتاريخ والأنساب نظراً للشك في نقاء لغة أولئك الشعراء بعد اتساع اختلاطهم بالأعاجم ، ولأن الشعر القديم يمثل - من الوجهة العلمية المحايدة - المادة الصالحة للاستشهاد به في هذه المجالات .

أما مسألة القبول - على المستوى الفني - لشعر المحدثين ، وأما احتضان سمات التجديد فيه ، فأمر تؤكد - كما قلت - النصوص الكثيرة المتواترة . وإن في تنويه ذلك الفريق من النقاد - ممن تعرضوا لتلك التهمة - بشعر المحدثين ، وروايتهم له ، وتصنيف الكتب فيه ، وجمع دواوين أصحابه ، لدلائل قاطعة على ما نقول .

على أن هناك مسألةً جديرةً بالإشارة إليها وهي أن هذا العرض المحدد لحقيقة موقف النقد العربي من مسألةٍ محددةٍ ، لم يحاول أن يتجاوز ذلك إلى النظر في الأدب العربي ، فَبَقِيَ الحديثُ خاصاً بالنقد ، وليس ذلك هروبا من المشاكل ، وإنما هو في حقيقة الأمر ابتعادٌ عن الوقوع فيما وقع فيه أصحابُ القول بمعاداة النقد العربي لشعر المحدثين وحركات التجديد ، حين خَلَعُوا نظرتهم إلى الأدب العربي - الأدب الذي قد تَبَدَّلُو عليه بعض سمات الأتباعية والمحافظة - على تصورهم للنقد ولآراءِ رجاله . فبدأوا - لهذا السبب - بأفكار مُسبِّقة عن ذلك النقد مؤدِّها أنه نقدٌ محافظ ، وذلك على أساس أن الأدبَ المحافظَ لأبد أن يكون قد عاش في ظل نقدٍ يعادى الحداثة ويقاومُ التجديد .

وكان ما كان من النتائج التي ترتبت على هذا النوع من الإسقاط - إن جاز استعارةً مصطلح من الدراسات النفسية - كان أن شاعَ اتِّهامُ النقدِ العربي الخالص بمعاداة الجديد ، وكان أن فُسرَ الاتجاهُ إلى قبول الجديد بعد ذلك بعوامل أجنبية طارئة - وكان أن أغفل الدارسون المحدثون كلَّ النُصُوصِ التي تنقُضُ هذه التصورات الواهية ، وكان أيضا أن أغفلوا التعرُّضَ بالدُّرسِ لمبحثِ هام ودال ، احتفل به النقد العربي القديم وهو مبحث (الابتكار) . ويسدو أن إغفال التعرُّض لهذا المبحث كان - هو أيضا - نتيجة لإسقاطٍ أو وهمٍ آخر ، أساسه أن من المستبعد أن يكون النقد الذي واكب هذا الأدبَ المحافظَ نقداً يحتفل بدراسة الابتكار ، لأن الطبيعي في مثل هذا النقد البحثُ في (فضل الأقدمين) لا تجديد المحدثين .

من هنا كان وقوفُ هذا البحث عند مجال النقد لا يتعداه ، مع الإيمان في نفس الوقت بعدد من المبادئ من بينها :

- * أن المحافظة في الأدب قد يكون مصدرها أمراً آخر غير النقد .
- * أن ناتج هذه المحافظة قد لا يكون - بالضرورة - رديها .
- * أن الحُضُّ على التجديد في ذاته - على مستوى النقد - والأخذ الواعي به على مستوى الأدب - قد لا تكون نتيجة مرضية من وجهة الفن السليم .
- من هنا كان التحلُّل من الجزم بجدوى موقف النقاد العرب في قبول الجديد

والترحيب به على الآثار الأدبية والاكتفاء بتسجيل الموقف فحسب .
 أما ما يبدو أنه نتيجة لنزعة محافظة في الأدب ، وأما حقيقة التجديد الذي
 طالب به وشجعه النقد العربي ، وأما نتيجة ذلك على مستوى الإنتاج الفني ، من واقع
 نظرة تمتد لتربط بين المجالين ، وأما قيمة شعار التجديد في ذاته - من حيث المبدأ -
 بالنسبة للفن .. فأسئلة تحتاج الإجابة عنها إلى بحث مستقل .

المصادر والمراجع

• الدكتور إبراهيم سلامة

بلاغة أرسطو بين العرب واليونان - الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية
١٩٥٢.

• إبراهيم بن علي بن تميم (أبو إسحاق الحميرى)

زهر الآداب وثمر الألباب ، ضبط وشرح الدكتور زكى مبارك ، المكتبة
التجارية مصر ١٩٢٥ .

• ابن حجة الحموى

خزانة الأدب ، طبعة سنة ١٢٩١ هـ .

• ابن عبد ربه الأندلسى (شهاب الدين أحمد)

العقد الفريد ، طبعة سنة ١٣١٦ بالمطبعة الشرقية

• ابن منظور المصرى (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى)

أخبار أبى نواس ، شرحه وضبطه ونشره : محمد عبد الرسول إبراهيم ، وعباس
الشريينى ، مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٢٤ .

• الأستاذ أحمد أمين

جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى ، مجلة الثقافة ١٩ ، ٢١ السنة الأولى
١٩٣٩ .

النقد الأدبى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٢ .

• أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى

شرح ديوان الحماسة (المقدمة) تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥١ .

• أغناطيوس كراتشكوفسكى

دراسات فى تاريخ الأدب العربى (مجموعة أبحاث مترجمة عن الروسية) دار النشر (علم) موسكو ١٩٦٥ .

• جوسعاف فون جرونهاوم

(الاستجابة للطبيعة فى الشعر العربى) ، (نشأة الشعر العربى وتطوره) ، بحثان ضمن مجموعة أبحاث لنفس المؤلف نشرت بعنوان : دراسات فى الأدب العربى ، ترجمة إحسان عباس وآخرين . منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٥٩ .

• الحسن بن بشر الأمدى

الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ، تحقيق السيد أحمد مطهر ، دار المعارف بمصر ، ذخائر العرب ٢٥ .

• الحسن بن رشيق القيروانى

العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ١٩٥٥ المكتبة التجارية الكبرى .

• الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (أبو هلال)

ديوان المعانى ، تصحيح الدكتور كرنكو ، عنيت بشره مكتبة القدسى ١٣٥٢ هـ .

• الحسن بن عبد الله بن سينا

الخطابة ، تحقيق محمد سليم سالم - القاهرة ١٩٥٤ .

• الدكتور شكري محمد عياد

كتاب أرسطو طاليس « في الشعر » نقل أبي بشرمتمى بن يونس القنّائي من السرياني إلى العربي ، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية . دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٧ .

• الدكتور شوقي ضيف

البلاغة : تطور وتاريخ ، دار المعارف ١٩٦٥

الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٦٠ .

• الأستاذ طه أحمد إبراهيم

تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٧ .

• الدكتور طه حسين

تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ، بحث ألقى بالفرنسية في بعض مؤتمرات المستشرقين ، ترجمه عبد الحميد العبادي ونشر في مقدمة (البرهان) - وهو الكتاب المعروف بنقد النثر والمنسوب خطأ إلى قدامة بن جعفر ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

حديث الأربعاء . دار المعارف ، مصر .

• الأستاذ عباس محمود العقاد

ابن الرومي ، حياته من شعره ، مطبعة مصر ، (بدون تاريخ) .

• عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

الاقتراح في علم أصول النحو .

المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، شرحه وعلق عليه محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبو الفضل إبراهيم .

• عبد الرحمن بن أبي الوفاء بن عبد الله بن أبي سعيد الأنباري
نزهة الألباء في طبقات الأدباء، نشر على يوسف، جمعية إحياء آثار علماء
العرب (بدون تاريخ).

• عبد الرحيم العباسي

معاهد التنصيص، طبعة قديمة.

• عبد القادر بن عمر البغدادي

خزانة الأدب ولبّ أبواب لسان العرب، دار العصور للطبع والنشر بمصر
١٩٢٩.

• الدكتور عبد القادر القط

(حركات التجديد في الشعر العباسي)، بحث منشور ضمن مجموعة
دراسات بعنوان: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين، دار المعارف
١٩٦٢.

• عبد القاهر بن عبد الرحمن المجراني

أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتز، استانبول، ١٩٥٤.

دلائل الإعجاز، الطبعة الرابعة، دار المنار بمصر ١٣٦٧ هـ.

• عبد الله بن أحمد بن حرب المهزومي (أبو هفان)

أخبار أبي نواس، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، مكتبة مصر ١٩٥٣.

• عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي

سر الفصاحة، تحقيق على فودة، الطبعة الأولى ١٩٣٢، نشر مكتبة الخانجي.

• عبد الله بن مسلم بن قتيبة

الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار إحياء الكتب
العربية، القاهرة ١٣٦٤ هـ.

• عبد الله بن المعتز

طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر
١٩٥٦. - كتاب البديع، نشره وعلق عليه، وكتب مقدمته أغناطيوس
كراتشكوفسكى ١٩٣٣.

• عبد الملك بن قريب (أبو سعيد الأصمعي)

فحولة الشعراء، شرح وتحقيق ونشر محمد عبد المنعم خفاجى وغيره، المطبعة
المنيرية، ١٩٥٣.

• عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابورى العالى

يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد،
ط ٢ المكتبة التجارية ١٩٥٦.

• على بن بسام الشنترينى

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول فى مجلدين، المجلد الأول من
القسم الرابع، مطبوعات كلية الآداب بجامعة القاهرة، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر.

• على بن الحسن الأصفهانى (أبو الفرج)

الأغاني، الأجزاء من ١ - ١٦ مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، نشر
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر + الأجزاء من ١٥ -
٢٠ ط ساسى.

• على بن الحسين الموسوى العلوى، المعروف بالشريف المرتضى

غُررُ الفوائدِ ودررُ القلائد، المعروفُ بأمالى المرتضى، تحقيق: محمد أبو
الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٩٥٤.

• على بن عبد العزيز المرحبانى

الوساطة بين المتنبى وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، على
محمد البجاوى الطبعة الثانية دار إحياء الكتب العربية ١٩٥١.

• عمرو بن بحر المعروف بالمحافظ

البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة مكتبة الخانجي (مكتبة المحافظ ٢).

الحيوان، بتحقيق وشرح عبدالسلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - الطبعة الأولى صدرت في سبعة أجزاء، من ١٩٢٨ إلى ١٩٤٥.

• قدامة بن جعفر

نقد الشعر، الطبعة الأولى، مطبعة الحوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ.

• كارل بروكلمان

تاريخ الأدب العربي، ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار، دار المعارف، مصر ١٩٦٢، ٦١، ٥٩.

• محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شريف القهرواني

أعلام الكلام، نشر مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٩٢٦، الرسائل النادرة (١).

• محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي

عيار الشعر، تحقيق د. طه الحاجري، د. محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية ١٩٥٦.

• محمد بن الحسن بن المظفر الخاتمي

حلية المحاضرة في صناعة الشعر، تحقيق: جعفر الكعبي، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ١٩٦٩ - مكتبة جامعة القاهرة. وطبعها وزارة الثقافة والإعلام - العراق ١٩٧٩.

الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره، تحقيق د. محمد يوسف نجم، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٥.

- محمد بن حيدر البغدادى
قانون البلاغة ، ضمن رسائل البلقاء ، اختيار وتصنيف محمد كرد على ، الطبعة الثالثة ، ١٩٤٦ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- محمد بن سلام الجهمى
طبقات الشعراء ، شرح وتحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٥٢ .
- محمد بن الطوب الباقلانى (القاضى أبو بكر)
إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٥٤ .
- محمد عبد الخالق عضيمة
المبرد ، حياته وآثاره ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٣٨٥ هـ .
- محمد بن عمران المرزبانى
الموشح فى مأخذ العلماء على الشعراء ، جمعية نشر الكتب العربية ، بالقاهرة ١٣٤٣ هـ .
- معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠ .
- الدكتور محمد مصطفى هدارة
مشكلة السرقات فى النقد العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٥٨ .
- الدكتور محمد مندور
النقد المنهجى عند العرب ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٩٤٨ .
- محمد بن يحيى الصولى
أخبار أبى تمام ، وبأولها رسالة الصولى إلى مزاحم بن فاتك ، فى تأليف أخبار

أبي تمام، نشره وحققه : خليل عساكر ، محمد عبده عزام، نظير الإسلام
الهندي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧ .

أخبار البحري ، (وذييل الأخبار من رواية الصولي) ، حقه وعلق عليه د .
صالح الأشتر . مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، الطبعة الأولى
. ١٩٥٨

الأوراق (قسم أخبار الشعراء) ، عنى بنشره جـ. هيورث دن ، الطبعة الأولى
. ١٩٣٤

مقدمة الصولي لديوان أبي نواس بروايته ، نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة نقلا
عن النسخة الخطية المحفوظة بالمكتبة التيمورية . دار الكتب برقم (١٣٥٦٨ ز) .

• محمد بن يزيد المبرد

الكامل في اللغة والأدب ، الجزء الأول بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم
والسيد شحاته ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، الجزء الثاني طبع المطبعة الخيرية
بالجمالية ١٣٠٨ هـ .

• المظفر بن السعيد العلوي الحسيني

نصرة الإغريض في نصرة القريض ، تحقيق نهى عارف الحسن ، مطبوعات
مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٦ .

• الدكتور نجيب البهيتي

أبو تمام الطائي : حياته وشعره ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٥
تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، القاهرة ، مطبعة دار
الكتب ١٩٥٠ .

• ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي

إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (المعروف بمعجم الأديب) .

• يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوى

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، مطبعة المقتطف بمصر
١٣٣٢ - ١٩١٤ .

• يوسف البديعى

هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ، نشر وتحقيق محمود مصطفى ، مطبعة العلوم
بالسيدة زينب ١٩٣٤ .

• الدكتور يوسف خليف

الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، دار المعارف ١٩٥٩ .
الشعر والحياة اللغوية فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، المجلة ، العدد ٦ يونيو
١٩٥٧ .

صور أخرى من المقدمات الجاهلية ، المجلة ، العدد ١٠٤ أغسطس ١٩٦٥ .

• يوهان فك

العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة الدكتور عبد الحليم
النجار ، مصر .

مراجع باللغة الانجليزية

ELKOTT (A.) Arab Conception of poetry AS Illustrated
in kitab Al - Muwazanah Bayna Abi - Tammam
Wal - Buhturi, A thesis submitted for the Ph . D.
degree , University of London , May 1950.

GRUNEBAUM (G . E . V .) The Concept of plagiarism
in Arabic Theory , Journal of Near Eastern
Studies, Vol , III , Oct , 1944.

NICHOLSON (R . A .) A literary History of The Arabs .

تمهید أو : كلمة فى المشكلة والمنهج

المشكلة : الخط الذى سارت فيه الدراسات الحديثة عن النقد العربى . -
الإجماع على معاداة أعلام ذلك النقد لشعر المحدثين - خضوع الدارسين
لفكرة سابقة - تضارب النصوص والأقوال بعضها مع بعض - تضاربها مع
الواقع - شروط القراءة السليمة للتراث النقدى - المنهج المقترح : رصد
الاتجاهات العامة وتتبعها - عدم الاعتداد بالنصوص الجزئية والمفردة - الأصل
التراثى الذى يستند اليه المنهج .

الباب الأول

موقف النقد العربى من شعر المحدثين كما تصوّره

الدراسات الحديثة

- ١ - عرض لتصور الدارسين المحدثين عن الموضوع :
- رينولد نكلسن فى (التاريخ الأدبى للعرب) - طه حسين فى (حديث
الأربعاء) - طه إبراهيم فى (تاريخ النقد الأدبى عند العرب) - أحمد أمين
فى كتاب (النقد الأدبى) ومقال - (جناية الأدب الجاهلى على الأدب
العربى) - محمد مندور فى (النقد المنهجى عند العرب) - إبراهيم سلامة فى
(بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) - شكرى عياد فى (كتاب أرسطوطاليس
فى الشعر) - عبدالقادر القط فى (حركات التجديد فى الشعر العباسى) -
محمد مصطفى هدّارة فى (مشكلة السرقات فى النقد العربى).

٢ - تحليل هذه الآراء ومناقشتها

- سير نكلسن فى حدود التصور القديم رغم تنبيهه للهدف من جمع أشعار
القدماء - تردّد طه حسين بين القول بمقاومة النقاد والمجتمع للجديد والقول
بأخذهم بكلّ جديد - طه إبراهيم ينوّه بدعوة أبى نواس رغم حقيقة أنها لم

تُهاجم ، اهتزاز التصور القديم عنده أمام تفضيل الأصمعي لبشار على مروان - أحمد أمين وتردده بين وصف ابن قتيبة بالتحرر ووصفه بالرجعية - مندور والأسباب الحقيقية - في رأيه - لقيام ثورة على الجديد ، عدم وضوح الفرق بين دعوة أبي نواس ومذهب أبي تمام من واقع تصويره للمحاولتين - إبراهيم سلامة والقول بانتكاسة الشعر المحدث كأثر للدعوة إلى محاكاة القديم ، اصطدام هذا الرأي بموقف أنصار البحتري في تشجيع الجديد والحض عليه - شكرى عياد والقول بتناقض النقد العربي مع نفسه في مطالبته باحتذاء القديم .. ومعارضته - في نفس الوقت - لظاهرة السرقات - عبدالقادر القط وطبيعة التجديد في كل من دعوة أبي نواس وطريقة أبي تمام ، تجديد المقدمات ليس مقصوداً على أبي نواس ، الاتجاه السلوكي وراء دعوة أبي نواس ، تجديد أبي تمام بين الكم والكيف - هدأة وتأکید وجود الثورة ضد الإخلال بالنظام القديم للقعيدة ، منطقية كلامه بالنسبة لكلام مندور ، الأسس الثلاثة التي قام عليها رفض الرواة وعلماء اللغة ، في تصوره ، لشعر المحدثين ، اتسام هذه الأسس بالتعميم وعدم التفرقة بين نظرة اللغويين إلى الشعر كمادة لغوية ونظرتهم إليه كأثر فنية .

الباب الثاني

بين مشكلات التصور وصورة الواقع

١ - مشاكل يفرضها القول بتعصب النقد العربي ضد شعر المحدثين .

مقدمة : طابع المشاكل السابقة والفرق بينها وبين المشاكل المثارة في هذا الفصل .

• **المشكلة الأولى :** تمثلها في التعارض بين النصوص التي تحمل معنى التعصب ضد شعر المحدثين والنصوص التي تحمل معنى قبوله والحماس له ، أمثلة ، الطريق المسدود الذي يفضي إليه التعارض .

• **المشكلة الثانية :** تمثلها في القول بتحكيم قدامى النقاد لمعيار التقدم الزمنى في الحكم على الشعر ، تراجع هذا المعيار أمام رفض النقاد لأشعار

بعض القدماء ، القاضى الجرجانى يتهم قدامى النقاد بالتعصب على الجاهليين أيضا .

• المشكلة الثالثة : تمثلها فى الطفرة التى تبدو - بحكم التصور القديم - بين المراحل المتعاقبة فى تاريخ النقد العربى . الإقرار بقبول الجديد والحماس له بعد المرحلة الأولى .

• المشكلة الرابعة : تمثلها فى محاولة التعليل لما بدا أنه تحول غير طبيعى ، الربط بين قبول الجديد واتساعه ودخول الفكر اليونانى إلى ساحة الفكر العربى . القول بأن قدامة قد دافع عن جديد أبى تمام ضد هجوم ابن المعتز .

٢ - صورة الموقف من واقع النصوص التى رويت عن أولئك

النقاد

أبو عمرو بن العلاء .. روايته لأشعار جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة وعمر بن أبى ربيعة وعدى بن الرقاع ، ومعرفته وروايته لأشعار مخضرمى الدولتين ، تنويهه ببشار وروايته شعره .
خلف الأحمر .. تفضيله مروان بن أبى حفصة على الأعشى ، كتابته شعر بشار ، ميله إلى أبى نواس .

يونس بن حبيب .. تفضيله مروان على الأعشى .

أبو عمرو الشيبانى .. اجتماع مسلم وأبى نواس وأبى العتاهية وتناشدهم عنده ، تنويهه بأبى نواس .

أبو هبيرة .. ذهابه إلى أن بشاراً والسيد الحميرى هما أشعر المحدثين ، تفضيله بشاراً على مروان وعلى جرير والفرزدق ، تفضيله مروان على الأعشى ، تنويهه بأبى نواس وتفضيل إحدى قصائده على قصيدة لامرئ القيس .

أبو زيد الأنصارى .. تنويهه ببشار والحكم له على مروان .

الأصمعى .. تفضيله بشاراً على مروان . إعجابه بابن هرمة . التجديد أساس إعجابه ببشار . إسهاماته بالسيد الحميرى . إعجابه وتنويهه بأبى نواس فى مجلس

الفضل البرمكى . قبوله لشعر أبى العتاهية . إعجابه بشعر إسحاق الموصلى
وشعر محمد بن حازم الباهلى .

ابن الأعرابى .. ثناؤه على شعر العباس بن الأحنف ، وعلى أبى نواس ،
وعلى إسحاق الموصلى وأبى العتاهية . تنويهه بمحمد بن حازم الباهلى . خبر
يؤكد رواية ابن الأعرابى لشعر المحدثين رغم تظاهره بعدم روايته .

إسحاق الموصلى .. إسحاق نفسه شاعر محدث . كيف يرفض شاعر
محدث أشعار المحدثين . تنويهه بأبى نواس . انتصاره للعباس بن الأحنف .
ارتياحه لوصف بعض الأعراب له بأنه مجدد .

يعقوب بن السكيت .. تفسيره لديوان أبى نواس . معرفته بشعر ابن
هرمة .

أبو حاتم السجستاني .. تفضيله لبشار وروايته شعره .

أبو هفان المهزومى .. إعجابه بأبى نواس وتأليفه كتاباً فى أخباره .

الربامسى .. إعجابه بالعباس بن الأحنف وأبى نواس والحسين بن الضحاك .

ابن قتيبة .. تسويته بين القدماء والمحدثين . عدم أخذه الشعراء بما أوجبه
عليهم من اتباع خطوات القصيدة التقليدية . بشار يعدل عن المقدمة التقليدية
دون أن يتعرض لمؤاخذه الناقد . مسلم يفعل نفس الشيء ولا يؤاخذ . سلوك
نفس المسلك مع أبى نواس . روايته الكثير مما سبق إليه أبو نواس وأخذته منه
الشعراء .

المهرّد .. استبعاده لمعيار الزمن فى الحكم على الشعراء . روايته لشعر عمارة
وابن منذر والعتابى ومنصور النمرى وبشار وابن المعتدل وأبى نواس . تنويهه
بالحسين بن الضحاك . سعيه إلى كتابة شعر أبى تمام - شدة إعجابه بالبحترى .
تأليفه كتاب (الروضة) فى أشعار المحدثين .

ثعلب .. حكمه بين مسلم وأبى نواس وتفضيل مسلم . طلبه اختياراً من
أشعار أبى تمام . حماسه لأبى تمام مع إعجابه بالبحترى .

المحافظ وموقفه من المحدثين . تنويهه بيشيار . إعجاباه الشديد بأبي نواس وشعره في الطرد . وضوح خط التطور البديعي في ذهنة وتعيين شعرائه قبل ابن المعتز . رده على من يستسقط أشعار المحدثين .

ابن المعتز . . نموذج من النقاد الأدباء الذين تقبلوا شعر المحدثين ونوهوا به . حقيقة موقف ابن المعتز من أبي تمام . تأليفه كتاب (طبقات الشعراء) وقصره على الشعراء المحدثين .

عدم خضوع أى من النقاد السابقين في قوله بتفضيل المحدثين لأية تأثيرات أجنبية . حول مسلك اللجوء إلى علل خارجية لما يبدو من ظواهر تجديدية في الأدب أو النقد . خطورة الاعتماد على النصوص الجزئية والمبتسرة . صورة من آثار هذا المسلك . المدلولات الحقيقية لبعض الصفات التي وُصف بها شعر المحدثين : صفة التفاوت ، الوصف بسرعة زوال الأثر .

الباب الثالث

دراسة لطبيعة دعوة أبي نواس ومذهب أبي تمام

مقدمة : الاضطراب الذي تتسم به الأبحاث الحديثة حول هاتين المحاولتين ، تضارب الأقوال في مدى الهجوم على كل منهما ، وفي أسبابه .

١ - موقف النقاد من أبي نواس : صدور القائلين بوجود الهجوم على دعوته والقائلين بعدم الهجوم من منطلق واحد . الخروج على المقدمة التقليدية سابق على أبي نواس . أهمية دعوته وإحساس النقاد بها . عدم تعرض النقاد لها بالهجوم .

٢ - طابع الخصومة حول أبي تمام : عمود الشعر والخروج عليه بين أبي نواس وأبي تمام . عمود الشعر في تصور الدارسين المحدثين . عناصر يجب استبعادها من الخصومة حول أبي تمام : أخطاء الإعراب ، استخدام البديع والإكثار منه ، السرقات ، للتجديد والمعاني الجديدة . الوطن الحقيقي للنزاع حول أبي تمام : من وجهة نظر أصحاب البحتري ، من واقع الأخطاء التي سجلها الأمدى . رسوخ فكرة الخطأ اللغوي في أذهان المهاجمين لأبي تمام على مستوى التركيب

والدلالة . أصحاب البحري يعتقدون بإمكان الابتداء مع المحافظة على سلامة العبارة . عمود الشعر كما صورَه المرزوقي . العناصر النسبية والعناصر الموضوعية فيه . حدود التجوز وفكرة المقاربة في التشبيه والاستعارة . التقاء الفريقين على الاعتراف بعنصرى المعنى المتدع والعبارة المستقيمة . صعوبة القول بأنها معركة بين مدافعين على قديم ومدافعين عن جديد . تأكد هذا الرأى من واقع المصطلحات المستخدمة فى النزاع .

٣ - عودٌ إلى حقيقة الموقف من أبى نواس : تركّز الفارق الحقيقى بين دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام فى خروج الأخير على عمود الشعر . الثقافة اللغوية الواسعة لأبى نواس واستقامة أسلوبه . عدم خروج أبى نواس على عمود الشعر وراء عدم الهجوم عليه . وعى النقاد بدعوة أبى نواس وقبولهم لها . البحترى هو الآخر لم يخرج على عمود الشعر . التطور الذى لحق لغة الشعر وقبله الجميع .

الباب الرابع : تفسير وتعليل

مقدمة : مفاتيح للموقف كانت فى أيدي الدارسين المحدثين . تنبه نكلسن إلى الاعتبار اللغوية وراء جمع الشعر القديم . طه إبراهيم والتنبيه إلى حاجة اللغويين إلى الشاهد النحوى واللغوى ، إغفاله لدلالة تفضيل الأصمعى لبشار على مروان . مندور يغفل دلالة عدم قيام خصومة حول أبى نواس . إغفال إبراهيم سلامة لقول أصحاب البحترى إن صاحبهم لا يحتذى على مثال أحد . أخطر خيوط الموقف كان فى يد شكري عياد ، عدم الاحتجاج بالشعر الحديث بسبب شيوع الاضطراب اللغوى واللحن ، قوله بالتناقض فى موقف النقد العربى كان كفيلا بالكشف عن الموقف الحقيقى .

المهام المتعددة لقدامى النقاد : بين تقويم الشعر فنيا والنظر إليه كمتون لغوية .

١ - حركة التنقية اللغوية : بين قبول الشعراء من الوجهة الفنية ورفضهم من الزاوية اللغوية : عدى بن زيد ، أبو دؤاد الإيادى ، أمية بن أبى الصلت ، الكميت بن زيد ، الطرمّاح . العلل التى اقترنت برفض الاحتجاج اللغوى بأشعار هؤلاء الشعراء ، طبيعة الاعتبارات التى صاحبت رفض الاحتجاج بأشعارهم : اعتبار مكاني ، اعتبار ثقافى ، القبائل التى احتجوا بأشعارها فى اللغة والنحو ، الدلالة

الحقيقية لصفة القدم في الشعر . رفض ماذهب إليه يوهان فك من وصف حركة التنقية اللغوية بأنها حركة رجعية . مصادرهم في جمع اللغة : القرآن الكريم ، كلام الرسول (ص) ، الموثوق بفصاحته من كلام العرب . حركة التنقية لتقييم وزنا لا اعتبارات الجنس ، احتجاجهم بأشعار العبيد والهجناء ، الدلالة الخاصة لكلمة (مولد) . صور من خلط المحدثين بين رفض الشعر من الوجهة اللغوية ورفضه فنيا .

٢ - الشعر القديم كوثائق للمعلومات : حديث الجاحظ عن رواة الأخبار

- الذين عدوا الشعر مصدراً للعلم : عمر بن الخطاب - أبو عمرو بن العلاء - ابن سلام - الشعر مصدر للتاريخ ومعرفة الأنساب : المدائني - أبو هلال - المرزوقي . وظيفة لا يصلح لها إلا الشعر القديم - رواية الشعر القديم لهذه الغاية لايعنى التعصب على الشعر المحدث .

٣ - المهمة النوعية للرواية : أهمية (وسيلة) الرواية في ظل تخلف (وسيلة) الكتابة - ذم الأخذ عن الصحف أو الكتب - تعلق مكانة الرواية بمقدار محفوظه

من أشعار القدماء - الشعر المحدث لا يحتاج إلى رواية لأنه متاح للجميع - مثال من موقف المبرد من تدوين شعر البحري

٤ - اعتبارات شخصية : كيف انعكست الخلافات الشخصية على الأحكام الفنية - مثال للصراع بين الشعراء : دعبل بن علي وأبو تمام - مثال للصراع بين الشعراء والنقاد : الأصمعي وإسحاق الموصلي ، تبين قيم النصوص باختلاف مجالات الاهتمام .

الأساس التاريخي للتصور القديم . خبران عن أبي عمرو بن العلاء ، التصوير

الانفعالي للموقف علي يد ابن قتيبة . القاضي الجرجاني يؤكد التهمة ويوسعها ، تعميم موقف التعصب ليشمل الجاهليين . ابن رشيقي يسأل في ترسيخ الصورة الخاطئة . انطلاقه من حيث انتهى ابن قتيبة والقاضي الجرجاني ، مذهب أبي عمرو وأصحابه في التعصب على المحدثين . الربط بين رواية الشعر القديم وأدعاء القول بضالة حظ المحدثين من الابتكار . النقد الداخلي لرواية الأصمعي عن أبي عمرو . سبق الفرزدق وجرير زنيا على أبي عمرو - دلالة حديث أبي عمرو من واقع سياقه الحقيقي في رواية الجاحظ - النص يشير إلى صنيع مؤرخ نسابة وليس موقف ناقد فني .

خاتمة : الدافع إلى البحث . المنهج . الصعوبات . المجال النوعي المحدد للبحث

